وزارة المعارف العمومية

تاريخ الأدب العربي

لتلاميذ السنتين الثالثة والرابعة من المدارس الثانوية

ألفه الأساتذة

احمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم بك

عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد ضيف

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٨

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د/ محمد سعيد الفارسي
المملكة العربية السعودية

وزارة المعارف العمومية

تاريخ الأدب العربى

لتلاميذ السنتين الثالثة والرابعة من المدارس الثانوية

ألّفه الأساتذة

أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم بك

عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد ضيف

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٨

الأدب العـــربى وتاريخـــه

[مقرر السنة الثالثة]

بسم الله الرحمن الرحيم

الْأَدَبُ فِى الْعَصْرِ الْعَبَّاسِى الْأَوَّلِ وَفِى الْأَنْدَلُسِ

(١) العصر العباسى الأول

من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٣٣٤ هـ

اتِّصَالُ الْعَرَبِ بِغَيْرِهِمْ ، وأَثَرُ ذَلِكَ فِى تكوين الْحَضَارَةِ الإِسْلامِيَّة وَفِى الْأَدَبِ الْعَرَبِىِّ

بعد أن دانت العربُ بالإسلام انتشرت فى مشارق الأرض ومغاربها ، تدعو إلى الله مسالمةً من سالَمَهَا ، ومحاربةً من حارَبها فى نَشْر دَعْوتها ؛ ففتح الله عليها رَحيبَ الأرض ، وأورثها ملكَ كسرى وقيصر ، واتَّسعت فتوحُها فى أقلّ مِن قرن من الهند والصين شرقا إلى المحيط الأطلنطى وجبال البرانس مِن أسبانيا غرباً ، وعاملت أهل هذه البلاد بما اقتضته شريعةُ الإسلام من العدل والرحمة ، فدخل كثيرٌ منهم فى الإسلام وتمازجوا هُمْ والعربُ معاملةً ومزاوجةً وتخلُّقاً واعتياداً ، إذ كان الإسلامُ لا يفرّق بين أحد من شُعوب الأرض ، بجميع الأمم المسلمة فيه سواءٌ ، وكلّ من دخلَ فى طاعتــه ممّن لم يُسلِمْ أصبح ذِمّةً للمسلمين له ما لَهُمْ وعليه ما عليهم . رُوعِىَ ذلك أشدَّ مُراعاةٍ زمنَ الخلفاء الراشدين ؛ غيرَ أن دولة بنى أميَّة التى خلفتْهم تمسّكتْ بالشعائر العربيّة ، وتعصبت للعرب وآثرتْهم بالولايةِ وقيادة الجند ، وقَصَرتْ أكثرَ مناصب الدولة عليهم ؛ مما جعل الأمم المغلوبة تنفِر من العرب ، وتؤلف من شعوبها فِرقَ الشُّعوبيّة التى كانت تعمَل على التخفيض من غُلَواءِ العرب ، وتكيدُ الكيدَ لدولتهم .

فلما قامت الدولةُ العباسيةُ بنشر الدعوة إليها مُراغمةً للأموية كان أهمَّ ما أعلنتْه من خطتها التسويةُ بين الشعوب المسلمة والخاضعة لحكم الإسلام ،

وخاصة الفرس، فبدأتْ دعوتَها فى أقصى ديارهم بخراسان ، فتقبلوا دعوتَها بقبول حَسَن ، وانضمّوا إلى لِواء دُعاتهم هُمْ والعربُ اليمـانيةُ النازلون بخُراسان والناقمون على دولة بنى أمية تعصّبَهم للعرب المضرية دونَهم مع أن دولة بَنى أمية قَامت بسُيوف اليمانية . فاكتسحت العباسيةُ بهم وبالفرس الدولةَ الأموية ، ومنحتهم ما وَعَدتْهم به ، بل غَلَت فى حبهـا للفُرس واختصّتْهم بكثيرٍ من المزايا ؛ فكان لهـا منهم قُوّادُ جيوش ، وولاةٌ وحجّابٌ ووزراءُ وكتّابٌ . ونَقَلَتْ حاضرَتَها إلى جانبِ المدائن عاصمةِ الفرس القديمة اعتزازا بالفرْس وثِقَة بهم . ونَقَلَتْ نِظامَهم الكِسْروىَّ فى تَنْسيق دواوينِ الدولة وأساليب الحرب وحاكتْهم فى الأبنيـةِ والمساكنِ والملابس حتى الاحتفال بالأعيادِ الوطنيّة الفارسية[1] فاصطبَغَتْ الدولة العبّاسية فى جملتها بِصبغة فارسيّة ، إلا أنَّ حَضَارة الفرس لم تكن مؤسَّسةً على ثقافةٍ علميّـةٍ فى الرياضة والطِّبِّ والهَندسة وعُلوم الطبيعة والمنطق والحكمـة ونحو ذلك ممـا اقتضته الحضارةُ اليونانيةُ ، بل إن الفرس أنفُسَهم عند ما أرادوا التوسُّعَ فى العلوم اقتبسوا بعضَهـا من اليونان ، وترجموه إلى الفارسية زمن كسرى أنو شِرْوان ؛ فرأى أبو جعفر المنصورُ محاكاتهم فى ذلك ، فأخذ يقتبس أيضًا لترقية دولته من الحضارة اليونانية ، وتابعَه أحفادُه فى ذلك . وكان بفارس والعراق والجزيرة وشمالىّ الشام بقايا شعوب ساميةٍ وآرية أخذوا بحضارة اليونان زمنا ، ثم دَانَ بعضُهم بالنصرانية ، وبَقُوا على معرفةٍ باللغة اليونانية ، فنقلوا للخلفاء علومَ اليونانِ ، وتعلّمها منهم علمـاءُ العرب وهذّبوها ونبغوا فيهـا ، وامتزجت مسائلُها بعقائد المسلمين فى المباحث الألٰهية واستعملت طرقَ بُرهاناتها وجدلهـا فى إثبات أصول الفقه ، فأصبحت الحضارة الإسلامية فى الدولة العباسية مُتَشكّلةً بشكلٍ فارسىّ فى سياستها وإدارتها ومَعيشتها ، وبشكلٍ يونانىّ فى ثقافتهـا العلمية الكونية وبشكل إسلامى فى اعتقادها وعبادتها .

---

(١) كالنيروز والمهرجان .

ثم أخذ نفوذ العرب السياسى فى الدولة يضمحلّ بالتدريج ، فلم يكن لهم بعد قرنٍ فى المشرق وخراسان شأنٌ سياسىٌّ يذكر ، وزادهم ضَعْفًا قطعُ المعتصم أرزاقهم من جميع دواوين الجند وإحلال مواليه من الترك محلّهم ، فاندمجوا فى غمار العامّة وتكسّبوا بالزراعة والحِرَف وضعُفت فيهم النَّعرةُ العَربيةُ فامتزجوا بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمجاورة . وتكوّنَ من مسلمى هذه الشعوب أُمّةٌ مسلمة ذاتُ حضارةٍ ممتزجةٍ من حَضارات شتّى ، فيها محاسن هذه الحضارات وعيوبها ؛ ولكنّ الحُرِّيَّةَ التى مُنِحَتْها الفرس والشعوب المستعجَمة استغلّها كثير منهم فى الشّرّ ، ففشا فيهم كثير من أمراض هذه الأمم الاجتماعية والخُلقية التى كانوا يخفونها ، بجاهروا بها ، وجاهروا بكثيرٍ من عقائد الزّندقة والإلحاد ، فتنبّه الخلفاءُ لخَطَر العاقبة ، فتَتبّعوا الزنادقةَ والملحدين والفساق قتلًا وحبسًا ، وتجردت طائفةٌ لمقاومتها بالوعظ والقَصص عن الأنبياء والصالحين والترغيب فى صالح الأعمال والتزهيد فى الدنيا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتشدّد الحنابلة (وهم جُلُّ العامة فى بغداد) فى الإنكار عليهم ؛ وكان لهذه الطائفة المقاومة للمتهتكين والفساق وُعّاظ وقُصّاص وخطباءُ وشعراء منهم أبو العتاهية .

فأجدى عملُهم بعضَ الشىء ؛ ولكن عَدْواها كانت قد سَرَتْ فى بغداد بين الكتّاب والشعراء من طَغامة الموالى من الفرس وأهل السّواد ، ومنهم سَرَتْ إلى أمثالهم من بعض السلائل العربية . فأثّر ذلك فى اللغة والأدب تأثيرًا بيّنًا .

تأثر الأدب بالحضارتين الفارسية واليونانية

كان تأثُّر الأدب العربىّ فى الدولة الأموية بحضارات الأمم المغلوبة للعرب قليلًا محدودًا : لأن الأدب فى ذلك العصر كان محصورًا فى الشعر والخطابةِ وبعض الرسائل . وكان كلُّ فحول الشعراءِ والخطباءِ نشئوا : إمّا فى بلاد العرب ، وإما فى البصرةِ والكوفة ، وهما مُعسكَرَان عظيمان بنَتْهما العربُ وأسكنتْهما مُقَاتِلَتَها من الفاتحين وأبنائهم . ولم يكن قد تمّ استعراب العجم ولا انتشرت ثقافتُها بينهم . ولم

يكن كذلك شأنُ الأدب فى العصر الأوّل من الدولة العباسية ؛ فإن من همّ بالاستعراب من أبناء الفرس فى العراق وفارس وخراسان ، ومن غيرهم فى الجزيرة الفراتية والشام ومصر، وأخذ نفسه بالثقافة الإسلامية ، وتعلّم العربية ، لم ينضج استعدادُه لأن يمتزج بالعرب ويمتزجوا به إلّا فى أواخر الدولة الأُموية ؛ فلم يظهر لاستعرابه ثمرةٌ إلا فى صدر الدولة العباسية ، فكان لكل من الحضارتين الفارسية واليونانية المتمثلة فى بقايا السريان والنَّبط والروم أثر فى أدب اللغة منذ ذلك الحين .

تأثير الحضارة الفارسية :

فلما جاءت الدولة العباسية بحُرِّيّة الشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم وتنفيل الفرس مزايا حُرِمَها العربُ أنفسُهم ، كان هؤلاء المتثقّفون منهم بالثقافة الإسلامية العربية أوّل من استجاب للدعوة العباسية واقتدى بهم كلُّ من تطالّ إلى شرف الرياسة أوسَعِة الجاه فى هذه الدولة ، فأسلم الكثيرُ منهم مخلصًا للإسلام أو منافقا ، وهبُّوا يتعلّمون العربيةَ وأدبَها ، ويتفقّهون فى الدين ، حتى كان منهم وممن قَبْلَهُمْ من مخلصيهم أئمةٌ للاسلام فى التفسير والحديث والفقه والعربية، وأخذ عنهم المسلمون عَرَبًا وغَيرَ عرب أصولَ دينهم وأَدَبَ لُغَتهم ، وكان منهم كبارُ الكُتّاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين وكان منهم شعراء أحدثوا أحداثا جديرة فى أغراض الشعر ومعانيه وأُسلوبه وأوزانه وقوافيه ، ونَقَلوا للخلفاء والأمراء كثيرا من آداب الفرس وحكْمتهم وأمثالهم وتاريخهم وسير ملوكهم وأبطالهم وقصصهم وأسمارهم وخرافاتهم المحكية على ألسنة الطيور والبهائم والجن والشياطين .

وكادَ منافقوهم للإسلام والمسلمين كيداعظيما ، فَدَسُّوا على أَهْل الغفلة كثيراً من الأحاديث المكذوبة على رسول الله وعلى أصحابه ، وصنعوا على ألسنة الأعراب شواهدَ من الشعر وقصائدَ طَنّانةً نحلوها فحولَ الشعراء ، ونقلوا إلى العربية فى السِّرِّ كثيرا من كتب زنادقة الفرس وملاحدتهمْ ، فأفسدوا عقول كثير من الناس .

تأثير الحضارة اليونانية :

وكانت الشعوب الداخلة فى طاعة الفرس والروم مِنْ بقايا الأمم السامية واليونانية قد ورِثوا عن قدمائهم حضاراتٍ مختلفةً ، وأخصُّها الحضارة اليونانية من الحِكمة والرياضة وعلوم الطبيعة والمنطق والفلك والجغرافية والموسيقى ، وكانت هذه العلوم قد امتزجت بمباحث النصرانية واليهودية ودرست فى كنائسها وبيعها باللسان اليونانى القديم ، فنَقَلَ خلفاءُ العباسيين كتب هذه العلوم على أيدى العارفين باليونانية ، وبعثوا بالبعوث العلميــة إلى مُدن الروم والقسطنطينية لتعلم اليونانية وترجمة كتبها ، فنَقَلُوا معظمَهَا إلى العربية وتعلَّمها المسلمون وحذَقوها وصححوها ، فكان لها تأثيرٌ كبير نافع فى المباحث الدينية من علم الكلام وأصول الدين وصناعة الجدل والمناظرة ، و إدخال قضايا العلوم ومذاهب الفلاسفة فى الشعر العربى ، وتأثيرٌ سيّءٌ فى عقول المستضعفين ، فأضاف الى فِرَق الملاحدة فرقاً أخرى ، وظهر أثر ذلك فى الشعر والأدب . وأحدثت فى كتب العلم لغةً تأليفيةً تُقاس بمعيار المنطق لا بالبلاغة العربية .

ومن السهل أن نتعرف كيف تأثر الأدب العربى الجاهلى والإسلامى بالأدبين الفارسى واليونانى فى الدولة العباسية بمقايسته بما تأثر به الأدب العربى الذى كان معروفا قبل العصر الحاضر بالأدب الغربى الحديث الذى اقتضى ذيوعَه بيننا أخذُنا بالثقافة الغربية فى جميع مظاهر حياتنا السياسية والاجتماعية والفردية ، وكثرة قراءتنا وترجمتنا للآداب الغربية ، حتى أصبح الأدبُ الغربىُّ متغلغلا فى كتابتنا الصحفية والقصصية ، وفى لغة التمثيل والخطب والتعليم والمرافعة والتقاضى ، كما تعدى بتأثره إلى الشعر العربى الذى بقى محافظا على أكثرِ فنونه وأغراضه ومعانيه وأسلوبه أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، إذ نجد الآن أن أكثر فنونه التى كان ينظم فيها قد هجر أو كاد . فمثــلا هجر النسيب بذكر الديار والأطلال والغزل بالمذكر ووصف النوق والظعائن وسرى الليل والتحدث عن غيرة أهل المحبوبة كما هجر الهجاء المقذع والاستجداء ،

واستعيض عن ذلك بالشعر القصصي والحوار التمثيلي، والشعر السياسي بألوانه التي لم تكن مألوفة في الشعر السياسي القديم : كالتذمر للوطن والوطنية . والحكومة الدستورية وحرية التفكير . وكالوصف للآلات والمخترعات التي نجمت عن تسخير البخار والكهرباء والاحتدام (الاحتراق الداخلي) كوصف القطار والباخرة والسيارة والطيارة والمنطاد والخيالة والبرق والمذياع .

وكذلك شاع الوصف لمشاهد الطبيعة وأحوال النفس في قبضها وبسطها ، وحبها وبغضها ، ووصف الصور المعنوية وتخييل أنها صور حسية وحقائق مشاهدة، وكثيرا ما تنظم فيها المقطعات، بل القصائد والموشحات بل الدواوين بعنوانات غربية : كالدمعة المتحيرة ، وخفقة القلب ، ووحي الضمير ، السقوط في الهوة ، والنظرة البريئة، وسذاجة الطفولة ، وبطش القوة، وإخفاق العلم، وكالتأمل، والطموح، والثروة، ونحو ذلك من الاغراض التي يتوخاها الشعر الافرنجي . و بالطبع تستلزم هذه الفنون والأغراض الحديثة معاني جزئية تخرج عن حد الحصر مستمدة من ثقافتنا العصرية ومن البيئة التي نعيش فيها وكلتاهما مصبوغة في جملتها بالصبغة الغربية، كما تستتبع التعبير عنها بلغة هجر فيها كثير من الألفاظ والأساليب القديمة واستحدثت فيها ألفاظ وأساليب مترجمة عن مثلها الأجنبي، وأظهر ما نرى ذلك في شعر جوالي العرب فيما وراء البحار كأميريكا بعامة والبرازيل والأرجنتين بخاصة .

نماذج من نثر هذا العصر

كتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة :

"أما بعد فان من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلِنفسه عَمِلَ لالهُم . والمعروف إذا وُضِعَ عندَ من لا يشكرُه فهو زرع لابُدَّ لزراعه من حَصاده أو لعَقِبِه من بعده، وكتبتُ اليك ولحالنا التي نحن بها فيانذ كرُلك حاجةٌ أوّلُ مافيها معروفٌ تَسْتَوجِبُ به الشكرَ علينا وتدَّخرُ به الأياديَ قبلنا " .

وكتب فى الأدب الكبير :

"ليكُنْ ما تصرِفُ به الأذى والعذاب عن نفسك ألَّا تكون حسودا فان الحسد خُلق لئيمٌ ومن لؤمه أنه يوكَّلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والخلفاء [1] فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلَمَ أن خير ما تكونُ حين تكونُ مع من هو خير منك وإن غُنْماً لك أن يكون عشيرُك وخليطك أفضلَ منك فى العِلْم فتقتبسَ من عِلمه ، وأفضلَ منك فى القُوَّة فيدفعَ عنك بقوته ، وأفضل منك فى المال فتُفيدَ من ماله ، وأفضلَ منك فى الجاه فتصيب حاجَتَكَ بجاهِه ، وأفضل منك فى الدِّين ، فتزداد صلاحا بصلاحه" .

وعلى هذا النمط كل رسائله فى الأخلاق والسياسية وطاعة السلطان .

ومن رسائل جعفر بن يحيى قوله فى العفو والمساحة لأحد عماله :

" عندنا الاعتقاد لما اقترفتَ وتصديق كل ما قُلت ، واحْتَجَجْتَ بذكره واعتذرت بوصفه ، والإسقاطُ لما جَحَدْتَه ، والإكذابُ للجَـوْر الذى اقترفته والرجوع عما أنكرته ، والزيادةُ فيا اختَرْتَه ، استدعاءً لك وإن انصرفْتَ ، وحياطةً لما قدَّمْتَ وإن ذَمَمْتَ ، وإيثارا للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلَغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج اليه فى مثلك تزنؤ ، ز عليه قريحته ، وترده الى الاستقامة تجربته " .

وكتب أحمد بن يوسف الى ابراهيم بن المهدى فى هدية استقلها .

" بلغنى استقلالك لما ألطفتُك ، والذى نحن عليه من الأُنس سهّل علينا قلةَ الحشد لك فى البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم ، إلى من لا يغتنم" .

---

(1) الوكلاء .

وكتب فى تهنئة بافراق من مرض :

"وقدأذهب الله وصَب العلة ونصبهاووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها . أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها " .

ومن رسائل عمرو بن مسعدة أن المأمون أمره أن يكتب لشخص كتابا الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب له : "كتابى اليك كتاب واثق بمن كتب اليه . معنى بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية " .

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة الى أحد العمال :

"أما بعد فقد انتهى الى أمير المؤمنين كذا فأنكره ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذر يوجبُ حُجّةً ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصيرٌ فى عملك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرةٌ لأهل الفساد ، ومُداهنةٌ لأهل الريَب ، وأيّة هاتين كانت منك ، مُحلةُ النُّكْرَ بك ، وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أقلتَ من عظيم العثرة ، يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة والسلام" .

وكتب إبراهيم الصولى شفاعة الى بعض إخوانه :

" فلان ممّنْ يَزْكو شكرُه ، ويُعْنى بأمره ، والصنيعَة عنده واقعـةٌ موقعَها ، وسالكة طريقَها" .

وأفضل ما يأتيه ذوالدين والحجا   إصابة شـكر لم يضع معه أجر

الكتابة الإنشائية

لا نقصد بها تلك الكتابة التى يرادُ بها مُجرَّدُ التفاهم ؛ بل نقصد الكتابة الفنية التى يُزادُ على أصلِ الغرض منها التأنّقُ فيها ، وإخراجُها فى صُورةٍ كلاميّةٍ بديعةٍ تُحدث فى النفس ارتياحاً لها ، أو إعجابا بها .

وتشملُ الرسائلَ السلطانيةَ التى كانت تصدُرُ من ديوان الرسائل للدولة ، والرسائلَ الإخوانية التى كان يكتُبُ بها بعضُ الأصدقاء الى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شفاعة الخ ، والرسائل الأدبيةَ المطوّلةَ التى كان يكتبها البلغاء فى شأنٍ من شؤون الدولة أو شؤون الرعية : بنصيحةٍ أو إرشادٍ ، أو تأييد مذهب ، أو تفضيل فريق على فريق ، أو فى بعض الترويح على النفس : كالقَصص والمقامات والسِّيَر والأخبارِ والأسمارِ والخرافات ، وذلك كما فى رسائل الخميس التى كان يكتُبُها بلغاءُ الدولة ، وتقرأُ فى خُراسان لتأييد الدعوة العباسية والحثِّ على طاعة الخليفة ، وكرسائل الأدب الصغير والكبير ورسالة الصحابة لابن المقفع ، وكرسائل الجاحظ وكتبه الأدبية الكبيرة من أمثال كتاب البخلاء والحيوان الخ .

وأما الكتابة العلمية فهى الكتابة التى تُكتَب بأسلوب علمى خاص بالعلم الذى يُؤَدّى بها حافلةً باصطلاحات هذا العلم مُراعًى فيها الترتيبُ العقلىُّ والقياسُ المنطقىُّ وتحريرُ العبارة من الحشْوِ والفضول ووضعُها بطريقةٍ تناسب : إمّا المبتدئين وإمّا المنتهين ، وهى المسّماة بالكتابة التأليفية أو كتابة التصنيف والتدوين .

وهَمُّ مؤرخى الأدب البحثُ فى خصائص الكتابة الإنشائية الفنية لا العلمية لأن الأولى هى مَظْهَرٌ من مظاهر الجمال ومُتْعةٌ من مُتَع النفس ، وإنما تُذْكَرُ فى تاريخ الأدب الكتابةُ العلميةُ ونشأةُ العلوم باعتبارها مصدرَ الثّقافة العامّةِ التى تَتَمثّلُ فيها حياة الأمة العقلية فيكونُ الأدبُ مرآةً لهذه الحياة ولساناً مُعبِّراً عن مَبلغ تأثير هذه الحياة فى نفوس الخاصة والأدباء من الأمة .

واليكَ وَصْفاً مجملا لأحوال الكتابة الإنشائية فى العصر العباسى الأولّ نُتْبِعُهُ بوَصْفٍ مُجمَلٍ أيضاً للكتابة العلمية ونشأة العلوم فى هذا العصر .

الكتابة الإنشائية الفنية أو كتابة الترسل — كانت الكتابة الفنية فى أواخر الدولة الأموية قد أوشكت أن تصيرَ فى دواوين الدولة صناعةً عتيدةً وعندَ الأدباء رغيبةً محبوبة ، بما أدخله عليها سالم وعبدالحميد وحلبتُهما التى أدرك كثيرمنها الدولة العباسية : من وسائل التنسيق والتنميق التى هيأتها أن تصيرَ فى صدر الدولة العباسية صناعةً من أشرف الصناعات الأدبية ، وصار لها من ذلك الحين فحول ونوابغ نَهضوا بها إلى مستوًى يُوائِم عَظَمَةَ هذه الدولة فى العلم والأدب والسياسة والحضارة ، وبَذُّوا فحولَ الشعر ونوابغَه فى عُظْمِ الجاه والرياسة وافتراع مناصب الدولة ؛ إذ كانت الكتابة جامعة لكلتا الحسنيين : الأولى قيامُها بحاجة الحضارة والشؤون الديوانية ، والثانية كونها مَظْهَراً من مظاهر الكمال والجمال بلغة العربية . وإنما يقوم الشعر بثانيهما دون أولاهما .

ولبلوغ الكتابة هذه المنزلةَ من القُوَّة فى هذا العصر أسبابٌ :

(١) منها إقبالُ كثير من العرب والمستعربين على استظهار القرآن والاستعانة بحلِّ نظم آياته فى تدبيج كلامهم والاقتباسُ منه والاهتداء بمعانيه وأسلوبه وأمثاله وتشبيهاته .

(٢) ومنها استظهارهم كثيرا من الحديث النبوىّ وخُطَب النبيِّ والخلفاء الراشدين وولاتهم وقوّاد جيوشهم الفاتحين ورسُلهم إلى ملوك العدو أو ولاته أو قوّاد جيوشه ، وخطب خلفاءِ بنى أمية وولاتهم من أمثال زياد والحجاج والمهلب وأولاده ومسلم بن قتيبة وخالد القسرى وخطباء الأمصار والقبائل والخوارج من مثل سحبان وابن القِرِّيَّة وعمرو بن الأهتم وخالد بن صفوان وعقال بن شَبَّة وقَطَرِى ابن الفجاءة وأبى حمزة الخارجى الإباضى وأضرابهم من فحول الخطباء والنبغاء مما مُلِئَتْ به كتبُ الفتوح والمغازى والسير والتاريخ . ويصدِّق ذلك أنه قيل مَرَّةً

لعبد الحميد : ما الذى مَكَّنَكَ من البلاغة ؟ قال (حفظُ كلام الأصلع) يريد به أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

(٣) ومنها استظهارُ كُتُبِ النبي وخلفاء بنى أمية وولاتهـم فى معاهداتهم ومشارطاتهم وعهودِ توليتهم الولاةَ وأمراء الجيوش الجـامعةِ لكثير من الوصايا البليغة والأحكام السياسية والشرعية .

(٤) ومنها رُقِيٌّ الثقافةِ العـامة عند العرب والمستعربين بمدارسـتهم آدابَ الإسلامِ الممثلةَ فى القرآن والسـنة والخطب والكتب الآنفة الذكر ، وبمدارستهم الثقافات الأدبيـة والعلمية المنقولة عن الأمم العريقة فى الحضارة والمدنية كالفرس والهنود والروم وقدماء اليونان والكلدان وَوَضْع العلوم والنظم السياسية والإدارية حتى تكونت فى نفوس الأمة ثقافةٌ ممتزجةٌ مؤلفةٌ من حضارات أمم شتى سُمِّيَتْ بعد بالثقافة الإسلامية ، إذ كانت لا تمثّل أمة دون أخرى ، وكانت مُمتلِئةً بالروح الإسلامى فى كل مظاهرها .

وقد تجلت صورتُها فى الكتابة البليغة التى صدرت عن خلفاء الدولة ووزرائها ورؤساء دواوين رسائلها وعن كبار الأدباء والمؤرخين فى هذا العصر.

ويمكننا أن نعرف مبلغ هذه الكتابة من القوة بمعرفة بعض موضوعاتها المتنوعة وما تميزت به من محاسن الصناعات الكلامية .

موضوعاتها :

خاضت الكتابة الفنية الأدبية فى هذا العصر موضوعاتٍ شتّى منها :

(١) الأعمال الديوانية من مِثل كُتب البيْعات للخلفاء وأولياءِ العهد وعُهودِ الولاة والقضاة والمنشورات السياسية والدينية .

(٢) تأييد بعض المذاهب السياسية والدينية أو تأييد سياسة الدولة .

(٣) الحثُّ على التمسك بالآداب الشريفة والأخلاق الفاضلة .

(٤) تفضيل طائفة من الناس على طائفة .

(٥) القَصَصُ والسمَرُ والحكايةُ على ألسنةِ الحيوان ونحو ذلك مما كتب فيه رسائل بليغة مطوّلة أو كتب حافلة .

(٦) التوصيةُ والنصيحةُ من أستاذٍ صناعة لأربابها أو أصحابِ نِحْلَةٍ لمنتحلها أو من أب لابنه كما فى رسالتى سهل بن هرون والكندى فى البخل ووصية طاهر ابن الحسين لعبد الله ابنه .

ومن مميزات هذه الكتابة فى اللفظ والأسلوب والمعانى :

(١) اختراعُ المقدماتِ فى أوائل الرسائل المطولة وبعض العهود والمنشورات مما لا يزال أثره باقيا إلى الآن .

(٢) تنوُّع عبارات البدءِ للرسائل فمن تحميدات متعددة لله تعالى فى الرسائل السلطانية المطولة ومن محاكاةٍ لكتب النبي صلى الله عليه وسلم فى الرسائل الصغيرة من مثل (من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان ومن قبله من المسلمين، سلام عليك ، أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأن الأمر كذا وكذا .

وزاد الرشيد بعد الحمد الصلاة على النبي وزاد الأمين تكنية الخليفة . ومن الابتداء (بأمّا بعد) فقط أو مع الدعاء للمكتوب إليه أو بلفظ (كتابى إليك) ، وغير ذلك .

(٣) سهولة العبارة وانتقاء ألفاظها وجودةُ رَصفها .

(٤) الغُلُوُّ فى طرَفى الإيجاز والإطناب على حَسَب مقتضى المقامات .

(٥) دقّةُ المعانى واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى استخراج البرهانات والنتائج والأحكام فى سبيل الإقناع .

وجملة القول أن الكتابة الأدبية بلغت فى هـذا العصر غاية لم تُسعدها المقادير بعـدُ أن تتعداها . نسأل الله لها كَرَّةً تُعيد بها مجدها وتبلغ غايتها (راجع أمثلة كل أنواع الكتابة فى المنتخب) .

وإليك تعريفات ببعض كتاب هذا العصر فمنهم :

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد بلغاء الـكتاب الأولين والمترجمين المتأدبين وهو من سلالة فارسية من أهل خوزستان التى سمتها العرب الأهواز وهى ولاية فارسية شرقى البصرة . وكان أبوه المقفع مجوسيا يسمى داذويه وسبب تلقيبه بالمقفع أنه كان يعمل فى جباية الخـراج لولاة العراق زمن بنى أميـة فاختان بعض مال الخراج فضرب به الوالى ضربا تقفعت منه يده (أى تشنجت) .

وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ هـ وسماه روزبه ، فنشأ بالبصرة وهى يومئذ تعج بفصحاء العرب وخطبائها ونحاتها وشعرائها وبالوافدين عليها من فصحاء أعراب البادية ، فأخذ ثقافته عن كل هؤلاء وتعـلم على أبيه صناعة الكتابة واللغة الفارسية وآدابها حتى بذ شبان عصره فاستكتبه داود بن يوسف بن عمر بن هُبَيْرة أحد ولاة بنى أمية على العراق ، ثم اتخذه عصر الدولة العباسية عم الخليفة أبى جعفر المنصور كاتبا له أيام ولايته على كرمان من بلاد فارس وعلى يديه أسلم ، وتسمى عبد الله وتكنى أبا محمد ، ثم ألزمه أخوه إسماعيل بعض أولاده ليؤدبهم .

ثم خدم آخر حياته أخاهما سليمان بن علىّ والى البصرة ، واتصل بأبى جعفر المنصور وهو فى خدمة أعمـامه ، فكلفه ترجمة كثير من كتب الأدب والفلسفة اليونانية المنقولة قديما إلى الفارسية .

واغتاله خفية سفيان بن معـاوية والى البصرة بعد عزل سليمان لضغينة عليـه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام سنة ١٤٢ هـ .

وكان ابن المقفع نادرة فى الذكاء والإحاطة بعلوم اليونان وأدب الفرس، وكان أمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى ، وعبارته فى كليلة ودمنة ليس لها نظير فى السهولة ورشاقة الأسلوب مع بيان غرض وصحة مبنى ، مضى على كتابتها نحو مائتى سنة وألف ، ولايزال صبيان مدارسنا يقرءونها ويفهمونها معجبين بها كأنما كتبت لأطفال هذا العصر خاصة ، ولاتوصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول "البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها" ولكن عبارته فى الحكمة المنقولة من اليونان أو الفرس لا تخلو من تصعب ، ولعل لحرصه على المحافظة على المعنى الأصلى أثرا فى جعل عبارته فيها ليست ناصعة البيان . وطبع له فى مصر غير كليلة ودمنه كتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير وله غيرهما رسائل وكتب وضعها أو ترجمها .

ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال ومنها القصار وفى صفحة ٦ نموذج من قصارها .

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبيح أحد فحول كتاب الرسائل فى دولة بنى العباس . وآل صُبيح هم أهل بيت اشتهر بالكتابة والأدب والعمل الرفيع فى دواوين الخلفاء أكثر من قرن ، وكان جدهم صبيح مولى قبطيا لبنى عجل أقام بالكوفة ونشأ بها ابنه القاسم عربى اللسان بليغ الكتابة وخدم فى دواوين بنى أمية وخلفه فى صناعته ابنـه يوسف حتى جاءت الدولة العباسية فخدم بها ونشأ له ابنه احمد أبلغ آل بيته إذتخرج على أيدى الرؤساء من البرامكة وتقلبت به الأحوال حتى صار كاتبا للفضل بن سهل وزير المـأمون، ثم اتخذه المـأمون رئيس ديوان رسائله فصـدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات حتى غضب عليه المـأمون غضبة مات فى أثرها سنة ١١٣ وكان أحمد بن يوسف أحدَ الذين يُضربَ بهم المثل

فى البلاغة ، وأحدَ الذين ملكوا ناصيةَ الكتابة فى الإيجاز والإطناب فى جزاله لفظ وسلاسة أسلوب وجودة معنى . ومن أشهر رسائله الرسالة التى كانت سبب رقيه فى دولة المأمون وقد كتبها على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهى :

أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه فى الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه عن إجماع المسلمين. قال الله عز وجل لنوح عليه السلام فى ابنه: "يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح" . ولا صلة لأحد فى معصية الله ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله .

وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل اللهُ المخلوعَ وأحصدَ لأمير المؤمنين أمرَه وأنجز له وعدَه ، فالأرض بأكنافها أوطأُ مهاد لطاعته ، وأتبعُ شىء لمشيئته .

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مَسْعَدَةَ بن سعيد بن صُول أبلغُ كُتّاب الإيجاز. وهو ابنُ عمِّ إبراهيمَ بن العباس الصولى . وجَدُّهما صولٌ تركىٌّ من أشراف جُرجان أسلمَ على يَدِ يزيد بن المهلب بن أبى صُفرة فى أثناء فتوحه بخراسان ، وخدم أحفاده فى دواوين الدولة العباسية ، فكان عَمرو هذا كاتبَ التوقيعات بين يدى الوزير جعفر البرمكىِّ وزير الرشيد، وظهرت له نجابته وهو صغير ، قال عن نفسه : كنتُ أوقِّعُ بين يَدَىْ جعفر ، فَرَفَع اليه غلمانه وَرَقَةً يستزيدونه فى رواتبهم فرَمَى بها الىَّ وقال: أجبْ عنها فكتبت « قليل دائمٌ خيرٌ من كثير منقطع » فضَرب بيده على ظهرى وقال : أىُّ وزير فى جلدك .

وصدّقت الأيام فيه ظَنَّ جعفر فصار بعدُ أحد وُزراء المأمون الثقات عنده ، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه .

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غَزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة أَذَنَة (هى التى سماها سكانها الآن — أطنه) سنة ٢١٥ .

ومن رسائله الموجزة ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص : " كتابى اليك كتابُ واثق بمن كتب اليه مَعْنِيّ بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية " .

وكتب مرّة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمدُّه بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره .

" كتابى الى أمير المؤمنين ومن قِبَلى من قوّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعةُ جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم " فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر .

التأليف والمؤلفون

التأليف فى العلوم الدينية :

لم يُدَوَّن فى عصر بنى أمية من العلوم على وجه الصحة واليقين إلا النحوُ فى رسائل صغيرة ، و إلاّ الحديثُ فى الكتاب الذى أَذِنَ عُمَرُ بن عبد العزيز لبعض مُحَدِّثى زمانه فى جمعه ، و إلا ترجمه كُنَّاش أهرون فى الطب . وما يُنسب إلى الصحابة والتابعين من الكتب فى التفسير وعلوم القرآن فليس إلا مجموعَ روايات منقولة عنهم صحيحة أو ضعيفة جَمَعها ودوَّنها بعضُ علماء الدولة العباسية وسَمَّوْا كتبها باسم الصحابى أو التابعى الذى رُوِيَتْ عنه هذه الروايات كتفسير ابن عباس المطبوع بمصر المروىّ عنه من طُرُق ضعيفة . وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى عصر بنى أمية علماءُ وأئمةٌ فى الدين فى مَكنتهم تأليف الكتب الجامعة ، ولكنهم كانوا يُحجمون عن التأليف لأنه لم يُؤْثَر عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أمرٌ صريحٌ صحيحٌ بتدوين كتب فى الدين غير القرآن ، فكانوا يرون التأليفَ بدعةً فى الإسلام ، فاكتفوا بالرواية والحفظ فى الصدور تحرّجاً وتأثماً من أن ينشروا شيئا لا يعلمون علمَ اليقين مبلغَ صحّته .

التأليف فى الفقه :

وجاءت الدولةُ العباسيةُ وقد فَنِيَ كلُّ الصحابة وجمهور التابعين ، وفيهم حملةُ الدين ورواتُه ، فمات معهم علمُهم ورواياتهم . وَخَلَفَ من بعدهم خَلَفٌ مؤلَّفٌ من عُلَمَاءَ أخلصوا دينَهم لله ، ومنافقين استغلُّوا تسامحَ العباسيين معَ الأمم الأعجمية فأخذوا يَكيدون للإسلام سرًّا وجهراً بوضع كثير من الأحاديث المكذوبة فى التفسير وأصول الدين ، فخشىَ أئمةُ الأمة وعلى رأسهم الخليفةُ أبو جعفر المنصورُ أن يَغلبَ كذبُ المنافقين على صدْق المخلصين ، فحجّ المنصورُ سنة ١٤٣ هـ

وكلّف الإمام مالكَ بن أَنَس إمامَ أهل المدينة جَمْعَ كتاب جامع للأحاديث التى صحّت عنـده فى الفقه وأصول الدين ، فألّف كتابَه الموطّأ ، فكان ثانى كتاب أُلّف فى الحديث الصحيح والفقه بعد الكتاب الذى أمر عمر بن عبـد العزيز بنشره ، ولكنّ الموطّأ شاعَ وذاعَ ورضيتْه الأُمّةُ ، فكان أساسا لكتب الفقه التى أُلّفت بَعده . وبَقِىَ إلى وقتنا هـذا . وطُبع مرارا . فهو أقدمُ كتاب فى الدين معروف للمسلمين .

ومالك هذا هو إمام دار الهجرة مالكُ بنُ أنس الحميرىّ الأَصبحى نسبا . وُلِدَ سنة ٩٥ هـ بالمدينة ونشأ بها وأدركَ خيارَ التابعين فأَخذ عنهم حتى صار حجة من حجج الله فى أرضه ، وانتشر مذهبه فى بقاع الأرض وخاصّةً المغربَ والأندلسَ وصعيد مصر وتُوفى سنة ١٧٩ هـ بالمدينة .

واشتهر قبلَه بقليل من أئمة الفقه الإمامُ الأعظمُ أبو حنيفه النُّعمانُ بن ثابت ، ولم يُؤْثَر عنـه على الصحيح كتابٌ فى الفقْه ، وإنمـا رَوَى عنه مَذْهَبَه أصحابُه ، وأَخَصُّهم أبو يوسف يعقوبُ الأنصارى نسباً قاضى القضاة ببغداد . وأَوَّلُ من لُقّب بهـذا اللقب ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ولاء وقد أَلَّفا بعده . ويروى عن محمد الحسن كتابُ المبسوط أصل كتب الحنفية ، وانتشر مذهبُ أبى حنيفة فى العراق وفارس وخراسان وبلاد الترك والهند والصين وبعض بلاد الشام ومصر وتوفى سنة ١٥٠ هـ .

ومن تلاميذ مالك فى الفقه عالمُ قريش أبو عبد الله محمدُ بن إدريس الشافعى القرشى نسبا ولد بمدينة غَزّة من أرض فلسطين سنة ١٥٠هـ وحُمِلَ إلى مكة صغيرا ونشأ بها ، وأقبلَ على تعلُّم العربية والشعر والأدب ، ثم انصرف إلى الفقه فرَحَل إلى مالك بالمدينة ودرَسَ عليه كتابَه الموطأ ثم رَحَل إلى اليمن وتولى بعض أعمال للدولة ، فاتُّهِمَ بممالأته للعلويين ، فحُـمِلَ إلى العراق زَمنَ الرشيد فشُفعَ فيه . ونقل كثيرا من علم أهل العراق وطريقتهم فى القياس ، وكوّنَ مذهبَه فى الفقه ، ودخل

الشام ومصر وبها مات سنة ٢٠٤ هـ وانتشر مذهبه فى بعض مُدُن العراق والشام والحجاز واليمن وجزائر المحيط الهندى ومصر وغيرها .

وأخذ عنه أحمدُ بن حنبل الشيبانى من أكبر أئمة الحديث ببغداد . وولد بها سنة ١٦٤ هـ وطلب الحديث فى أكثر البلاد الإسلاميـة حتى جمع فى كتابه المسند الذى يُعتَبَرُ أصلاً من أصول الإسلام أكثَر من أربعين ألفَ حديث ثم كوّن له مذهبا فى الفقه استمدّه من فقه الشافعى وغيره ومن نصوص الحديث ، وشـابَهُ شىءٌ قليلٌ من الرأى والقياس . وكان عامّةُ أصحابه هم جمهور المحدثين والمقتفين أثرَ السلف والمناهضين لأهل البـدع والإلحاد والمتفلسفة ببغداد ، ودخل فى مذهبهـم عامّةُ أهل بغداد فتشـدّدوا على المجّان والفُسّاق وآذوهم إيذاءً كبيرا ، وتنطّع كثيرٌ من عامتهم فى ذلك ، حتى ضُربَ المثل بالحنابلة فى التشدد فى الدين .

وتُوُفّىَ أحمدُ سنة ٢٤١ هـ ببغداد وانتشر مذهبه ببغداد والعراق والبصرة ونجد.

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم الذين دخل فى مذهبهم أكثر أهل الأرض من المسلمين وثمة مذاهب أخرى لبعض الأئمة المجتهدين من أهل السنة والشيعة والخوارج يتبعها كثير من المسلمين فى بقاع الأرض .

ولم يُعْنَ المسلمون بعلم عنايتهم بالفقه والحديث ولم تَقِلَّ العنايةُ بهما فى أى عصر حتى عصرنا هذا الذى كادت تنقرض فيه روايةُ الحديث من بعض الأمصار .

الحـــديث :

واقتدى بالأئمة الذين كلّفَهم المنصور التأليف فى علوم الدين غيرهم من أهل الحديث فألّفوا فيـه عدّة كتب ميّزوا فيها الصحيح من المصنوع . وأشهرهم إمام المحدثين إسحق بن رَاهَوَيْهِ أوّلُ من جرّد كتب الحديث من مسائل الفقه والتفسير وكانت قبل ممتزجة وتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

واشتهر بعده تلميذُه شيخُ الحديث وإمامُ السنة محمد بن إسماعيل البخارى فوضع بإشارة منه كتابه الجامعَ جمع فيه الأحاديثَ الصحاحَ فقط، وكانت الأحاديثُ قبلُ مُجمَّعَ مختلطاً صحيحُها بضعيفها، منبِّهاً على مَرْتبة كلٍّ منها . وهو من أصل فارسي وُلِدَ ببخارى سنة ١٩٤ . ونشأ بها يتيما لحفظَ القرءان . وشدا العربيةَ وهو صبيٌّ وحُبِّبَ إليه سماعُ الحديث وهو فى المكتب . وكان نادرةً فى الحفظ والنَّقْد ؛ فطلبَ الحديثَ من آفاق الأرض ؛ وحجَّ وزار المدينةَ وصنَّف كتابَه فى تاريخ رجال الحديث بها . ثم لمَّا نَضجَ علمُهُ ألَّفَ كتابَه الجامعَ جمع فيه تسعة آلاف حديث مُكرَّر بعضُها بتكرُّر وجوهها ؛ فأجمع علماء السنة أنه لم يكن فيها أصح منه . ثمَّ رَجَع إلى بلاده فمات بقَرْية يقال لها (خَرْتَنْك) على ثلاثة فراسخ من سَمَرْقَند سنة ٢٥٦ هـ .

ومن تلاميذه الإمامُ مسلمْ بن الحجاج النَّيْسابورى أحدُ الشيخين وصاحبُ ثانى الصحيحين، وُلد سنة ٢٠٦هـ . بها وأخذ عن البخارى وغيره من علماء الافاق وجمعَ صحيحة المشهور الذى يُعتَبر ثانىَ كتب السنة فى الصحة. وتُوفى بنَيْسابور سنة ٢٦١هـ.

وأشتهر بعد الشيخين : البُخاريِّ ومسلم، أربعةٌ من الأئمة ألَّفوا كتباً فى الحديث تلى الصحيحين فى الصحة والاشتهار وهم :

الإمامُ الترمذىُّ صاحبُ الجامع فى الحديث .

والإمام أبو داود صاحب السُّنن المنسوبة إليه .

« النَّسائى « « « .

« ابن ماجَة صاحب السنن . وكُلُّهم من أهل القرن الثالث .

وهذه الكتب الستة هى التى اشتهرت فى الملة والإسلام بالصحة و يأتى بعدها الموطأ ومسند أحمد على خلاف فى ذلك .

وجاء بعد هؤلاء من لا يُحصى عددُهم من المحدثين . ولكثير منهم عشرات المؤلفات .

التفسير :

أما التفسيرُ وعلومُ القرءان فروُيتْ أقوالٌ فيه ورسائلُ منه كثيرةٌ آخرَ عصر بنى أمية ، ثم ألّف علماءُ الدولة العباسية فى غريب القرءان ومتشابهه وقراءاته ورسْمه وإعجازه كُتُباً مختلفةَ القيمة والحجْم ، حتى جاء فحَلْ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطّبَرىّ المتوفى سنة ٣١٠ هـ . فى أواخر القرن الثالث ، بجمع كلّ ما صحّتْ روايته عن رسول الله وأصحابه والتابعين فى تفسيره الكبير ؛ فكان أوّل كتاب عظيم صحيح وُضع فى التفسير بالأثر على مَذْهب السّلف ، وتابعه فى خطته الثعلبىُّ والواحدى ، ومنهم استمدّ كلُّ ذى تفسير أثرىّ بعدَهم .

علم الكلام :

ومن علوم الملّة الإسلامية علمُ الكلام ، وهو يبحث عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية والنقلية من نحو إثبات وجود الخالق وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والثواب بدخول الجنة والعقاب بدخول النار والإيمان بكل ما جاء به القرءان .

وكان الصحابةُ والتابعون لا يخوضون بعقولهم فى هذه العقائد إلى أن فُتحت بلادُ الأُمم التى لم تكن تدين بالإسلام ، فأسلم كثيرٌ منهم رياءً ونفاقاً ؛ فخاضوا فى العقائد ، وابتدعوا كثيرا من الضلالات والشُّبَه ، ولم يجْرءوا على إظهار خبائثهم إلا فى أواخر دولة بنى أمية عند ضعفها ، وفى أوائل الدولة العباسية لتسامحها مع الأعاجم . ولمـّا استفْحَل أمرهم فى آخر حياة أبى جعفر المنصور أوصى ابنه المهدىّ ألّا تأخذه هوادةٌ فى تتبّع أهل الزّندقة والإلحاد وقتلهم بعد مناظرتهم ، إن ثَبَت عليهم كفرٌ وكيْد للإسلام ، فكان المهدىُّ بعده يجمعُهم مع علماء الدين للمناظرة فكانوا لا يَقبلون منهم الأدلة النقلية عن القرءان والسنة فاضطروا إلى مناظرتهم بالأدلة العقلية ، واستخدموا المنطق آلةً فى الجدَل ، وسُمّىَ علم إثبات العقائد بطريق كلام الناس لا بنقل كلام الله ورسوله (علم الكلام) .

وكان المتكلمون يذهبون إلى عدة مذاهب ، منهم الصفاتية الذين يُثبتون لله صفات غير ذاته الكريمة ، والمعتزلةُ الذين ينفون هـذه الصفات باعتبارها حقائق غير حقيقة البارى ، ويقولون إنه وصفاته حقيقة واحدة ، وكان هذا هو مذهب الدولة زمناً ، وأولهم واصلُ بن عطاء أول من اعتزل حلقة الحسن البصرى مخالفاً له فى بعض تقريراته ، ومنهم النَّظَّام والجاحظ وأحمد بن أبى دواد .

وكان بجانب هذين المذهبين مذاهب كثيرة لأصحاب الحديث والشيعة إلى أن ظهر إمام المتكلمين أبو الحسن على الأشعرى من سلالة أبى موسى الأشـعرى ، ووضَعَ مذهبا تَوَسَّطَ فيه بين مذهب الصفاتية والمعتزلة وسَمَّاه مذهبَ أهل السنة ، فَنَسَخَ هـذا المذهبُ أكثر المذاهب فى الاعتقاد ، وعليــه الآن جمهورُ المسلمين فى أنحاء الأرض .

وقد وُلِدَ أبو الحسن بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ . وبها نشأ وتعلم ونشر مذهَبه على منبر مسجدها الجامع وتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

التأليف فى العلوم اللسانية والنحو :

جاءت الدولة العباسية ، وقد اشتغل بالنحو من البصريين طبقتان : طبقــةُ أبى الأسود الدُّؤَلى ومعاصريه ، والطبقةُ الثانية مِمَّن أخذوا عنهم . ومن أشهرهم عيسى بن عمر الثَّقفى وأبو عمرو بن العلاء ، وقد أدرك هذا عصر الدولة العباسية ، وألَّف عيسى كتابَيْن مُطَوَّلَيْنِ فى النحو هما كتاب الجامع والإكمال ، واشتغل أبو عمرو بكلِّ علوم اللغة مِنْ نحو ولغة وأدب وإقراء للقرءان على رواية خاصة به ، وعليه تخرَّج الخليلُ بن أحمد مخترِعُ علم العروض وعَمَـل المُعْجَمات اللُّغَوية وسَيِّدُ أهل الأدب على الاطلاق وشيخُ سيبويهِ ، والأصْمَعِىّ ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى .

وُلِد الخليل سنة ١٠٠ بالبصرة ، وأخذ عن أبى عمرو بن العَلاء ، وعيسى بن عُمَر ، وكان غاية فى تصحيح القياس النحوىّ وتفريع مسائله ، ولَقَّنَ سيبويه تلميذَه عِلمَ ما صنَّف من كتابه العظيم أصل كل كتاب فى النحو . وبقى الخليل بالبصرة طولَ حياته متزهِّداً متعففا حتى مات سنة ١٧٤ ه

وأما سيبويه فهو فارسىُّ الأصل لزِمَ الخليل أكثرَ أوقاته وجمعَ من علمه أعظَمَ مصنِّفٍ فى النحو سُمِّىَ (بالكتاب) وأكثر ما فيه معقودٌ بلفظ الخليل . ولما مات الخليل تصدر للتدريس فكان إمامَ البَصريين ، وذهب إلى بغداد وافداً على البرامكة ، فأخفقَ فى رحلته ، فرجع الى بلدِه البيضاء بفارس ومات سنة ١٨٠ه وسنه نيِّف وأربعون سنة وروى عنه تلميذُه الأخفش كتابَه وشرحه وبه انتشر فى الدنيا .

وأمَّا الأصمعى فلم يقتصر على النحو وكان أكثر اشتغاله بالأدب والأخبار والمُلَحِ والطرائف ؛ فأصبح بهـا مؤدبا ومُسامِراً فى دار الخلافة زمنَ الرشيد ، وحاز ثَروة عريضةً ، وكان يُبخَّلُ . ومات عن سِنٍّ عالية سنة ٢١٦ ه وله من العمر ١٠٧ سنة .

وتلت طبقةَ سيبويه والأصمعىِّ عدة طبقاتٍ من النحاة البصريين .

أما النحاةُ الكوفيُّون فأولُّ طبقة منهم طبقة مُعَاذ الهَرَّاء واضع علم الصرف . وتقابلُ الطبقة الثانيـة من البصريين ، ومن أشهر أئمتهم الكِسائِىُّ مُؤَدِّبُ الأمين فى النحو وتلميذه الفَرَّاء . وطبقاتهم متعددة كالبصريين . وبين نحاة البصريين ونحاة الكوفيين فُروقٌ فى وجوه القياس النحوى أهمُّها أنَّ البصريين يقدِّمون السماعَ على القياس ، ولا يروُون إلا عن فُصَحاء الأعراب الذين يثقون بفصاحتهم .

ولما زخرت بحورُ العلم ببغداد سكنَها كثيرٌ من نحاة البصرة والكوفة واشتركوا فى تأديب أولاد الخلفاء والوزراء والقواد ، ودارت بين الفريقين مناظرات ومناقضات فى مجالسهم وفى المساجد فتولَّد من المذهبين مذهب ثالث فى النحو سُمِّىَ مذهب البغداديين .

اللغـــة :

ولم يكن لمريد تعلّم اللغة العربية الفصيحة من المُولّدين والأعاجم طريقٌ لمعرفة ألفاظها إلا حفظ القرءان والحديث وشعر العرب ومشافهة الأعراب ؛ فوضع بعض العلماء فى كلٍّ منها كُتُبًا تُفَسِّرُ غريبها ، ثم خَطَرتْ لعلماء اللغة فكرةٌ أخرى لضبطِ مُفردات اللغة بشكل مُفَصَّلٍ مُبَوَّبٍ ، فوضعوا فى كل موضوع من الموضوعات التى تناولهَا الشعراءُ والكتّاب رسائل تجمع الألفاظ الخاصة بهـا ، وسَمَّوْها باسم موضوعها ، فقالوا كتابُ خَلْق الإنسان — كتاب الخَيْـل — كتاب الإبل — كتاب النخل والكرم — كتاب السرج واللجام . إلى أنْ ظهر ببغداد كتابُ نُسِبَ الى الخليل بن أحمد بعد موته بنحو أربعين سـنة بشكل معجم رتبت الكلمات فيـه على حسب مخارج الحروف من الفم فيبتدئ بحروف الحلق ويختم بحروف الشفتين ، وبدىء فيه بحرف العين ، فسمى كتابَ العين . إلا أن ما وقع فيه من الخلط والخطأ الصرفى جعل كثيرا من العلمـاء ينكرون نسبته إلى الخليل . والظاهر أن الخليل وضعه لأحد تلاميذه فى آخر حياته ، ولم يتمه ، فسافر به إلى خراسان وأتمه من عنده ثم نُقِل بعد حينٍ إلى بغداد . ولكنه على أى حال وَلّدَ عندالعلماء فكرةَ عمل المعجمات المرتبة بترتيب الحروف ، فألّف ابن دُرَيْدٍ فى أواخر هذا العصر كتابَ جمهرة اللغة ورتّبَه على ترتيب حروف المعجم ، فابتـدأ بالألف ثم البـاء ثم التـاء الخ . وأدرك عصره الأزهرىُّ فألّفَ كتابَ التهذيب على ترتيب الخليل ، ثم وُضع بعد ذلك فى العصر الثانى الصحاحُ للجوهرى والمحكمُ لابن سيده من العلماء الأندلسيين والجامع للقزار القيروانى ، وهذه هى أصول معجمات اللغة . وما سواها لجمعٌ لها أو اختصار منهـا . والعرب هم واضعو فن المعجمات الأبجدية وعنهم أخذ الغربيون .

العروض والقافية :

وللخليل جزيلُ الفَضْل على العرب والعربية بضبطه أوزانَ الشعرِ العربى لحفظَه بذلك من الاختلال والضياع . وقد اخترعَ هذا العلم اختراعاً جُملةً واحدة ، وحصَرَ فيه أوزانَ الشعر فى خمسةَ عشرَ بحرًا ، وزاد عليه الأخفش بحرا واحدا .

أما القافية فقد سَبَقَه بعض العلمـاء بالتكلم فيها إلا أنه هو أوَّلُ من فَصَّـل الكلام فيها .

فن الأدب :

هو مدارسة الكلام العربى من قرءان وحديث وشعر ونثر لتهذيب النفس بمـا فيه وإشعارها بجمال اللغة . وكانت كتبهُ فى أوَّلِ هـذا العصر تبحثُ فى بعض الأغراض الخاصة كرسائل ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة وكتابُ الأراجيز للأصمعى ، وأول كتابٍ جامعٍ لفنون كثيرة منه هو كتابُ البيان والتبيين للجاحظ المتوفَّى سنة ٢٥٥ هـ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب المنظوم والمنثور لتلميذه أحمد بن أبى طيفور فى أربعة عشر مجلدا ، ثم كتاب الكامل والروضة للمبرد ، ثم تتالت كتبُ الأدب كبيرةً وصغيرةً .

وها هى ذى نُبذة يسيرة تتعرف بهاشيئا من سيرة شيخ الأدب عمرو الجاحظ .

الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى ، صـاحب التصانيف الممتعة ، وأحد فحول المتكلمين من المعتزلة .

وسمى بالجاحظ لجحوظ عينيه ، ولذلك يسمى بالحَدَقى أيضا .

ولد حوالى ١٦٠ هـ بالبصرة ونشأ بهـا ، وأدرك طبقة الأصمعى وأبى عبيدة

وأبى زيد الأنصارى وغيرهم من تلاميذ الخليل ، وأخذ عنهم العربيةَ والأدبَ . ولازم النظّامَ وغيرَه من النظّار فى علم الكلام من المعتزلة ، فحذق أدلّتهم ، وأحاط بمذهبهم ، وانفرد فيه بمقالة تابعه فيها كثيرون سُمّوا بالجاحظية .

والجاحظ أحد نبغاء الأمة الإسلامية الذين أحاطوا بأكثر العلوم المعروفة فى زمانهم ، وتجلت صورُها فى كتبهم ورسائلهم . ويمتاز الجاحظ من بينهم بدقة الملاحظة لما يَقَعُ ويُشاهد فى بيئته الى دُعابةٍ فيه مقبولةٍ وفُكاهةٍ وتطرّب . وأنه أول من ألّف فى الأمة كتبَ المحاضرات الجامعةَ كالبيان والتبين وكتابَ الحيوان، وأول من أسهب القولَ فى اللطائف والفُكاهة من العلماء ؛ فكان إماما لبعض الفرق فى الدين وسامرا من السمار . وألف الجاحظ أكثر من مائتى كتاب على طريقة تحبّبُ القراءَ فى المطالعة ، وذلك بتسهيل العبارة مع المحافظة على جزالة اللفظ وبالإطناب الذى يوضح المقام بإيراد كثير من الجمل والألفاظ المترادفة ، وبالاستطراد الى إيراد ظريف الأخبار والنوادر ، ومزج الجد بالهزل لتجديد نشاط القارئ ، واستقصائه فى وصف ما يعنى بوصفه ولو كان حقيرا ، وعاش الجاحظ أكثر من تسعين سنة محبوبا من الملوك والرؤساء بالبصرة و بغداد الى أن مات سنة ٢٥٥ هـ

التأليف فى فنى التاريخ والجغرافيا :

أخذ العلماءُ منذُ صدر الدولة العباسية يبحثُون فى التاريخ من نواحٍ شتى لارتباطه بروايةِ السنة وجباية الخراج وسياسة الملك كفن السِّيَرِ والمغازى . وأوّلُ من ألَّف فيها محمد بن إسحق ،وفن فتوح البلدان ، وأشهر من ألّف فيه الواقدى والمدائنى وأبو مِخْنَف ، وفَنُّ طبقاتِ الرجال ، وأشهر علمائه القدماء ابنُ سعد كاتب الواقدى والبخارى ، وفنّ النسب ، وأشهر علمائه الكلبى وابنه ، وفنّ أخبار العرب وأيامها ، وأشهرُ علمائه أبو عبيدة والأصمعى ، وفنّ قِصص الأنبياء وكتبَ فيه كثيرون ، وفنّ التاريخ العام السياسى الخاص بأعمال الدولة ، ومن أقدم كتبه المطبوعة تاريخ ابن واضح اليعقوبى ، ومن أكبرها تاريخ محمد بن جرير الطبرى رَتب حوادثَه على السنين الهجرية .

أما الجغرافيةُ المُفَسَّرةُ بلفظ (وَصْفِ الأرض) فإن العرب فى الجاهلية كانوا يَعرِفون من وصف بلادهم ومواطنهـم مالا تَعرِفُه أى أمة من وصف بلادها، يعرف ذلك من اطَّلع على وصفهم المنازلَ والقفار فى شـعرهم . ولمـا جاء الإسـلامُ وامتدت فتوحُهم من حدود الصين والهند إلى المحيط الأطلنطى وترددت جيوشهم وقوافلهم فى هـذا الملك العَريض تعرَّفوا طرقه ومسالكه الصريحه وأنشئوا طرقا جديدة أصيلة ، وكانوا يُسَمُّون هذا الفنَّ بعلم المسالك والممـالك . وهو الجغرافية الوصفية التخطيطية . ولكن الجغرافية الرياضية الباحثة فى شـكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب فقد نَقَلوه فى صـدر الدولة أولا عن الهنود فى كتاب السـند هند الذى نقله عن الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى زمن المنصور وثانيا عن اليونان القدماء فى عدة كتب أخصها كتاب المجسطى لبطليموس وهو الذى نقـله الحجاج ابن مَطَر للمأمون ، وصَحَّح العربُ كثيرا من أغلاطه زمن المأمون وبعده . وحقَّقوا من ذلك الحين كُرَوِيَّةَ الأرض ومحيطها ودرجاتها ومقدار الدرجة الأرضية .

ونبغ فى الجغرافية بعد عصر المأمون أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خرداذبه ، وكان واليـا على البريد والخبَرَ بنواحى جبال طبَرستان ، ثم نادمَ الخليفةَ المعتمد ، وأختصَّ به ، وله فى الجغرافية كتاب المسالك والممـالك وهو مشهور .

وغَبَرَ العلماء بقية هذا العصر الأوَّل يُحققون ويصححون هذا الكتاب ، ثم تبحروا فى الجغرافية الرياضية فى العصر العباسى الثانى ، ولكن معارفهم كانت قد اتسعت كثيرا فى الجغرافية التخطيطية فى العصر الأول .

لمحة فى الترجمة والمترجمين :

لم يصح عن العرب زمن الدولة الأموية أنهم ترجمـوا من كتب الأوائل إلا كناش أهرون فى الطب ترجمها ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاعهـا عمر بن عبد العزيز فى الناس . ولكن العرب والمستعربين والمسلمين كافة أصبحوا فى زمن الدولة العباسية بحاجة إلى الانتفاع بحضارات الأمم الغابرة وصناعاتهم ؛

فَرَغِبَ الخلفاءُ والعباسيّون الأولون فى ترجمة السياسة والطب والرياضيات والفلك والتنجيم . فترجم ابن المقفع للمنصور كثيرا من كتب الفرس فى السياسة وتدبير الملك والآداب وسير الملوك وترجم كتبا يونانية كانت نُقِلَتْ زمن كسرى أنو شروان إلى الفارسية فى المنطق والفلسفة . واستقدم المنصور بُخْتَيْشُوعَ الكبيرَ رئيسَ أطباء جُنْدَيسابور وابنه ، ونوبُخت وابنَه أبا سَهْل ، والبطريقَ ، فترجَموا له كثيرا من كتب الطب والحكمة والفلك والسياسة ، ثم فترت الترجَمة بعد المنصور إلى أن أحياها البرامكةُ والرشيدُ فحثوا العلماء على ترجمة كتب كثيرة ، وصَحَّحُوا بعض ما ترجم زمن المنصور.

ثم نهضَت الترجمة فى عصر المأمون نهضة أتتْ على أكثر ما عُثِر عليه من كتب اليونان ، وما بَقِى من كتب النبط وما وصل إليهم من كتب الهند والفرس وأكملوا تصحيحَ ما تُرجم من قبل ، وبَعثَ المأمون إلى القسطنطينية بَعْثًا يحذقون اليونانية ويختارون ما يَروْنه صالحا للنقل إلى العربية ، وكان منهم الحجاجُ بن مَطر وسَلْمٌ صاحبُ بيتِ الحكمة وابن البطريق ، وحُنَيْن بن إسحق . فاختاروا كتبا كثيرة حَمَلوها إلى بغداد وترجموهَا ، وتعلَّمها الناس منهم . ونشأت طائفة من الأطباء والفلكيين والرياضيين استقلُّوا ببحوثهم ، فوصلوا إلى مرتبة النبوغ فى هذه العلوم ، ومنهم بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضى هذا العصر ، وأوَّلُ من أَلَّفَ فى علم الحيل والآلات من المسلمين (الميكانيكا) . ومحمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر ومذيع الحساب الهندىّ وأرقامه بين العرب ، وفيلسوفُ العرب والإسلام أبو يوسف يعقوب الكِندىّ وتلميذُه أحمد بن الطيِّب السَّرْخَسِىّ وغيرهم ولم ينته هذا العصر حتى أصبحت هذه العلومُ ملكةً راسخةً فى أهل الملة الإسلامية وامترجت بحياتهم وأدبهم وبحثهم ونبغ فيهم الطبيب الكيميائى الأكبر أبو بكر محمد ابن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ هـ والمعلم الثانى أبو نصر الفارابى وأدركَ العصرَ العباسىَّ الثانى ، وعاش فيه دهرًا .

ومن أشهر المترجمين بعد عصر المأمون أبو بشر متا بن يونس وثابت بن قرةّ الصابئ وأبو عثمان الدمشقى .

ومن أشهر الكتب التى تُرجِمَتْ أو وضعت فى الفلك كتاب السند هند (أى الدهر الداهر) ترجمه من الهندية ، كما تقدم، محمد بن إبراهيم الفزارى العربى الصميم ، وبقى هذا الكتاب معمولا به إلى زمن المأمون .

وكتاب زيج الخوارزمى وضعه أبوجعفر بن موسى الخوارزمى مؤلفا من السند هند ومن أرصاد فارسية ومن أعماله هو ، وجرى عليه العمل إلى أواخر الدولة العباسية .

وكتاب المجسطى لبطليموس ترجمه كثير ، وصحّح المأمونُ كثيرًا من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجة الأرضية فكان أرصادُ علمائه أوّلَ أرصاد فى الإسلام وسَمّوْا مجموع أرصادهم الرصد المأمونى ، وبقى كتابهم معمولا به فى الفلك والجغرافية الرياضية والمصورات الأرضية زمنًا طويلا .

وزيج البتّانى وهو من أشهر كتب الأرصاد .

ومن أشهر كتب الطب التى ترجمت كتبُ بقراط وجالينوس وكتاب التذكرة لبختيشوع عمله لابنه جبريل .

وكتاب الحاوى من أكبر كتب الطب بأنواعه لأبى بكر الرازى .

ومن أشهر كتب الرياضة :

كتاب الجبر للخوارزمى وهو واضعه .

كتاب حيل بنى موسى (الميكانيكا) .

كتاب هندسة أقليدس ترجم مرارا .

نماذج من شعر العصر العباسى الأوّل

لبشار بن برد من قصيدة :

عِيٌّ الشريف يَشينُ منصِبَه ... وترى الوضيعَ يَزينُه أدبُهْ
والصدقُ أفضلُ ما حضَرت به ... ولربما ضرَّ الفتى كَذِبُهْ
يرد الحريصُ على متالِفه ... والليث يبعثُ حتفَه كَلَبُهْ (١)

وقال أبو تمام :

ينالُ الفتى من دهره وهو جاهلٌ ... ويُكدِى الفتى فى دهره وهو عالِمُ (٢)
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحِجا ... هلكن إذًا من جهلهن البهائم (٣)
جزى اللهُ كفًّا مِلأَها مِن سعادة ... سعت فى هلاك المال والمال نائم (٤)
فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصد ... ولا المجدُ فى كف امرئ والدراهمُ (٥)
ولم أر كالمعروف تدعى حُقوقُه ... مَغارِمَ فى الأقوام وهى مغانم (٦)
ولا كالعلا مالم يُرَ الشعرُ بينها ... فكالأرضِ غُفْلا ليس فيها معالمُ (٧)
فما هو إلا القولُ يسرى فيغتدى ... له غُرَرٌ فى أوجه ومواسمُ (٨)
يرى حكمةً ما فيه وهو فُكاهةٌ ... ويُرضَى بما يُقضَى به وهو ظالم (٩)

---

(١) يريد بالكلب شدة الحرص والنهم . (٢) أى ينال الفتى الغنى وهو جاهل ويكدى أى يفتقر مع أنه عالم . (٣) الحجا : العقل . (٤) ملاها : أى سعة ملئها من السعادة وملأها : نائب عن المفعول المطلق . (٥) كما لا يكون الشرق والغرب معا وجهة لقاصد كذلك لا يجتمع المجد وكنز المال فى شخص بخيل . (٦) ليس عمل المعروف مغرما بل مغنما . (٧) إن الشرف الذى ينوه به الشعر ويذيعه فى الناس يكون كمجاهل الأرض الغفل التى ليس بها معالم يهتدى بها . (٨) أى فما الشعر إلا قول يسرى فى الناس فيصبح معروفا بغرر وجيهة وعلامات يشتهر بها . (٩) والشعر غريب فى القياس ففكاهته حكمة ويرضى بحكمه ولو كان ظالما .

ولصالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يُسقى الماءَ فى غَرْسه
حتى تراه مُورِقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يُبسه
والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه حتى يُوارَىٰ فى ثَرَى رَمْسه
إذا ارعَوى عاد إلى جهله كذى الضَّنا عاد إلى نكسه
وألق أخا الضغن بإيناسه لتدرك الفرصة فى أنسه
كالليث لا يَعدو على قِرْنِه إلا على الإمكان من فَرْسه

وقال أيضا :

إذا كنت لا تُرجَى لدفع مُلِمَّة ولم يك للمعروف عندك موضعُ
ولا أنت ذوجاه يُعاش بجاهه ولا أنت يوم البعث للناس تشفعُ
فعيشُك فى الدنيا وموتُك واحدٌ وعُودُ خلال من حياتك أنفعُ

وقال حمادُ عَجْرَد فى صحبة الإخوان :

كَمْ من أخ لك لستَ تُنْكِرُهُ مادُمتَ من دنياك فى يُسْر
متصنِّع لك فى مَوَدَّته يلقاك بالتَّرحيب والبِشْر
يُطْرِى الوفاءَ وذا الوفاء ويَلْـ ـحَى الغَدْر مجتهدًا وذَا الغَدْر (١)
فإذا عَدَا (والدهرُ ذو غِيَرِ) دهرٌ عليك عَدَا مع الدهر
فارفُضْ بإجمال مودَّةَ مَنْ يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَق المُثْرى
وعليك مَنْ حالاهُ واحدةٌ فى العُسر إمَّا كنتَ واليُسر
لا تَخْلِطَنَّهُمُ بغيرهِمُ مَنْ يخلطُ العقيانَ بالصُّفر ! (٢)

---

(١) يطرى : يمدح . و يلحى : يلوم و يعيب .

(٢) العقيان : الذهب . والصفر : النحاس الأصفر .

وقال العتّابى يشكُرُ :

فلو كان للشكر شخصٌ يَبِـينُ إذا ما تأمّـلَهُ النـاظرُ
لمثلتـه لك حتى تراهُ لِتعـلمَ أنى امرؤ شـاكرُ

وقال فى وجوب الاستعانة بالإخوان :

هيبةُ الإخوان قاطِعـةٌ لأخى الحاجات عن طَلَبهْ
فإذا ما هِبْتَ ذا أَمَلٍ ماتَ ما أمّلْتَ من سَبَبِهْ

وقال بشار يهجو عبيد الله بن قَزَعة :

خليلىَّ من كَعْب أَعينا أخاكما على دهره إن الكريم مُعينُ
ولا تبخلا بُخل ابن قَزَعة إنه مَخافةَ أن يرجى نداه حزينُ
كأن عبيد الله لم يَلْقَ ماجِدًا ولم يَدْرِ أن المَكْرُماتِ تكونُ
فقل لأبى يحيىٰ متى تُدرِكُ العُلا وفى كلّ معروفٍ عليك يَمينُ
إذا جئتَه فى حاجة سَـدَّ بابَه فلم تلقَـه إلا وأنت كمين

وقال العتابى يهجو :

لئن تكن الدنيا أنالتْك ثروةً فأصبحتَ ذا يُسر وقد كنت ذا عُسْرِ
لقد كشف الإثراءُ منـك مخازيًا من اللؤم كانت تحتَ سَترٍ من الفَقرِ

وقال دِعْبِل يشكو طول السفر والغربة :

ألم يَأْن للسَّفْر الذين تحمَّـلوا إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أَملِك سوابقَ عَبْرةٍ نَطقْنَ بمـا ضُمَّت عليه ضلوعُ
تبيَّنْ فكم دارٍ تفرق شملُها وشَملٍ شـتيتٍ عادَ وهو جَميعُ
كذاك الليالى صَرفُهن كما ترى لكلِّ أُناسٍ جَدْبةٌ وربيعُ

ولعلىّ بن الجهم فى الاستعطاف :

عفا الله عنك ! ألا حرمةٌ تجـودُ بعفوك أن أبْعَدَا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أعتمدْ لأنت أجل وأعلى يدا
ألم تر عَبْدًا عَـدَا طَوْرَه ومولًى عفا ورشـيدًا هدى
ومُفسـدَ أمْرٍ تَلَافيْتَـه فعـاد فأصـلح ما أفسدا
أَقِلْنى أقالك من لم يَزَلْ يَقيكَ ويَصْرِفُ عنكَ الرَّدَى

وللعباس بن الأحنف :

لا جَزَى الله دَمعَ عينىَّ خيراً وجزى الله كُلَّ خيرٍ لسانى
نمَّ دَمعى فليس يكتُمُ شـيئا ورأيت اللسانَ ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طىٌّ فاستدلوا عليه بالعنوان

وله :

قفا خبرانى أيهـا الرجلان عن النوم إن الهجرَ عنه نَهانى
وكيف يكونُ النومُ أم كيف طعمهُ صِفَا النومَ لى ! إن كنتُما تَصفان

وله :

أساتُ إذ أحسنتُ ظنِّى بكم والحزمُ سوءُ الظنّ بالناس
يُقْلِقُنى الشـوقُ فآتيكُمُ والقلب مملوءٌ من الياس

وقال ابن الرومى يصف روضة :

حيتك عنا شمال طاف طائفها بجنة بجرت رَوْحًا ورَيحانا
هبت سحيرا فنادى الغصنُ صاحبَه مُوشوشًا وتنادى الطيرُ إعلانا
وُرْقٌ تغنّى على خُضرٍ مُهَدَّلة تسمو بها وتَشَمّ الأرض أحيانا
تخالُ طائرها نشوانَ من طَرَبٍ والغصن من هَزّهِ عطفيه نشوانا

وقال ابن المعتز يصف الهلال :

انظر إلى حسن هلال بدا ... يهتك من أنواره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضَّةٍ ... يحصد من زهر الربا نرجسا

وقال بشار فى تبرئه من ولاء العرب وافتخاره بالعجم :

أصبحتُ مولى ذى الجلال وبعضهم ... مولى العُرَيْب فخذ بذلك وافخر

مولاك أكرمُ من تميم كلها ... أَهْل الفعال ومن قُرَيْش المَشْعَر

فارجع إلى مولاك غير مُدَافَع ... سبحان مولاك الأَجلِّ الأكبر

وهجا أعرابيا فضّل العربَ على العجم فقال :

أحينَ كُسيتَ بعد العُرى خَزًّا ... ونادمتَ الكرامَ على العُقارِ

تفاخر يابنَ راعيـةٍ وراعٍ ... بنى الأحرارِ حَسْبُك مِن خَسارِ

تريد بخطبـة إكسَر الموالى ... وينسيك المكارمَ صَيْدُ فار

وتعدو للقنافذ تدّريهـا ... ولم تعقل بدرّاج الديار

وتتّشِحُ الشّمال للابسيهـا ... وترعى الضأن بالبلد القِفار

وقال أبو محمد اليزيدى النحوى البصرى مؤدب المأمون يعيب على الكوفيين أنهم أفسدوا النحو بقياسهم :

أفسده قومٌ وأزروا به ... ما بين أغتامٍ وأوغادِ

ذوى مراءٍ وذوى لُكْنةٍ ... لئامِ آبـاءٍ وأجدادِ

لهمْ قياسٌ أحدثوه لهمْ ... قياسُ سُوءٍ غيرِ منقادِ

فهـم من النحو ولو عُمِّـروا ... أعمـارَ عاد فى أبى جادِ

وقال أيضا فى ذلك :

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسانِ العرب الأولِ

فجاء أقوامٌ يقيسونه ... على لُغَا أشياخ قُطْرَبُّل

فكلهمْ يعمَلُ فى نقض مَا ... به يُصاب الحقُّ لا يأتلى

إن الكسائىَّ وأصحابَه ... يرْقَوْنَ فى النحو إلى أسفل

وسمع مساورٌ الورّاقُ (وهو شاعر كوفىّ من أهل الحديث) لغط أصحاب أبى حنيفة وصياحَهم فقال :

كُنَّا من الدِّينِ قبلَ اليوم فى سَعةٍ ... حتى بُلينا بأصحاب المقاييسِ

قومٌ إذا اجتمعوا صاحوا كأنَّهم ... ثعالبٌ صَيَّحتْ بين النواويس

قامُوا من السوق إذ قلّتْ مكاسبُهم ... فاستعملوا الرأىَ عند الفقر والبُوسِ

أما العُرَيْبُ فأمْسَوْا لا عطاءَ لهم ... وفى الموالى علاماتُ المفاليس

وقال مروان بن أبى حفصة ينكر على العلويين مطالبَتهم بالخلافة ويؤيد استحقاق العباسيين لها من قصيدة طويلة :

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تجحدون مقالةً عن ربكم ... جبريلُ بلغها النبىَّ فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتمُ إبطالها

يريد قوله تعالى "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله" .

وقال أبان اللاحق يؤيد دعوى العباسيين استحقاقهم الخلافة دون العلويين :

نشدتُ بحق الله مَن كان مسلماً ... أعمٌّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعَرَبْ

أعمُّ رسول الله أقرب زُلفةً ... لديه أم ابنُ العم فى رتبة النسَبْ

وأيُّهما أولى به وبعهده ... ومَن ذا له حَقُّ التُّراث بما وَجَبْ

فان كان عبّاسٌ أحق بتلكمُ ... وكان علىٌّ بعد ذاك على سبب

فأبناء عباس هُمُ يرثونه ... كما العمّ لابن العم فى الإرث قد حجبْ

وقال يزيدُ المهلبى من قصيدة يرثى بها المتوكل ويبكت بنى العباس فى نبذهم العربَ واستعانتهم بمماليك الترك :

لما اعتقدتُمْ أناسا لا حلوم لهم ... ضعتمْ وضيعتمُ من كان يعتقد

ولو جعلتمْ على الأحرارِ نعمتكم ... حمتكمُ السادةُ المذكورةُ الحُشُد

قوم هم الجِذْمُ والأنسابُ تجمَعُهمْ ... والمجدُ والدينُ والأرحامُ والبلدُ

إذا قريشٌ أرادوا شدَّ ملكهم ... بغير قحطانَ لم يبرحْ به أَوَد

ولأبى نواس فى الزهد :

ألا رب وجهٍ فى التُّراب عتيقِ ... ويارُبَّ حُسْنٍ فى التراب رقيقِ

ويارب حزمٍ فى التراب ونجدةٍ ... ويارب رأيٍ فى التراب وثيقِ

ألا كُل حىٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ ... وذو حَسَبٍ فى الهالكين عريقِ

فقل لمقيم الدار إنك ظاعن ... إلى سفر نائى المحل سحيقِ

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وقال أبو العتاهية فى الزهد .

نحن فى دار يخبّرنا ... بيلاها ناطقٌ لَسِنُ
دارُ سوء لم يُدُمْ فرحٌ ... لآمرىء فيها ولا حَزَن
فى سبيل الله أنفُسُنا ... كلُّنا بالموت مُرْتَهَن
كلّ نفسٍ عند مَيْتَتها ... حظُّها من مالها الكفَنُ
إن مالَ المرء ليس له ... منه إلا ذكرُه الحسنُ

وقد نظم أبان اللاحق كتابَ كليلةَ ودمنة فبدأه بقوله :

هذا كتاب أدبٍ ومحْنة ... وهو الذى يدعى كليلَ ودمنة
فيه دلالاتٌ وفيه رُشْدُ ... وهو كتاب وضعته الهند

ومنه فى باب الأسد والثور :

وباذل النصح لمن لا يشكره ... كطارح فى سَبَخ ما يبذره
وليس فى الصديق ذى الصفاءِ ... خيرٌ إذا لم يك ذا وفاءِ
الرجلُ العاقل من لا تُسكِرُهْ ... كأسُ سمو وآقتدارٍ يبطِرُهْ
فالجبل الثابتُ فى أصولِه ... لا تقدِرُ الريحُ على تحويلِهِ
والناقصُ العقل الذى لا رأىَ لَهْ ... يَطغَىٰ إذا ما نال أدنى منزلَهْ
مثل الحشيش أيُّما ريحٌ جرتْ ... مالت به فأقبلت وأدبَرتْ

ونظم أيضا قصيدة فى أحكام الصوم والزكاة منها :

فرمضانُ شهرهُ معروفُ ... وصومُه مفترَض موصوف
والصوم فى الظِّهار إن لم يُقدَرِ ... مظاهرٌ يوما على محرر
والقتل إن لم يك عمدا قتلُه ... فإن ذاك فى الصيام مثله
شهران فى العدة كاملان ... متّصلان لا مفرّقان
والحنْث فى رواية مقبولهْ ... ثلاثةٌ أيّامها موصولهْ

الشعر

فى العصر العباسى الأوّل

الشعر فنٌّ جميل تُبهِجُ النفسَ محاسنُه كما تَسترعى البَصرَ محاسنُ الجمال، وتُشنِّف الأذُنَ محاسنُ الموسيقى والغناءِ ، فهو كبقيّةِ الفنون الجميـلة مُتْعةٌ تُطلب مِنْ أربابها لِتكميلِ الحياة المهذَّبة ، فلا جَرَم أن كانت صِناعة الشعر العربى رائجةَ السوقِ عند ما بلغتْ العرب مرتَبة طلاّبِ الكمال، أى فى أواخر جاهليتها ، وفى صدر إسلامها وعند امتداد سُلطانها الى أكبر مدًى فى حكم بنى أمية ، غير أنّ نَظمَه وطَلَبه للاستمتاع به كانا مَقصورَينِ على العرب ، إذْ لم تكنْ العجم بَلَغَت بعدُ مِنْ التعرُّب والتفصُّح درجةً تَقول فيه الشعرَ الجيِّـدَ الذى يُزَحِمُ الشعر الفصيحَ المتخرِّجَ شعراؤه فى بوادى العَرَبِ . وإنما تَهيَّأ لهم ذلك أو كاد عنْد ما شارَفَتْ دولة بنى أمّية الزَّوال ، فوجَدوا من عطف الدولة العباسية على الأعاجم وبخاصة الفرسُ القائمون بَدعوتها ، مَعْرِضا يَعْرِضون فيه نفائسَ شعرهم ، ويفوزون فيه بأكبرِ الجوائز ، إذ كانوا قد جمعوا فى شعرهم بين فصاحةِ البداوةِ وبَدَاعةِ الحضارة . وبِمِثلِ ذلك حَظِىَ مُتَحضِّرة العــرب من أهل الكوفة والبصرة وقُرى الجـزيرة الفُراتية وشرقى الشام الذين تعلّموا العربيةَ بالصناعة كالعجم وسُمّوا معهم لذلك بالمحَدَثين والمولَّدين. فزاحمَ شعراءُ الحضر شعراءَ البادية عنـدَ عظماءِ الدولة ، وحلُّوا عندهم محَلّ السُّمار والمحـاضِرين والندماء ، بل رَقِىَ بعضهم الى رتبةِ الوزارةِ والولايةِ كمحمد بن عبد الملك الزَّيات ومسلم بن الوليد وأبى تمّام ، الى أنْ خَفَتَ صوتُ شعراءِ البادية فى أواسط هذا العصر .

وقد حَفَلَ الخلفاءُ العشرة الأوّلون من خلفاء بنى العبّاس بالشعر والشعراء فَعَقَدوا لهم مَواسمَ سنويّةً يَقْعُدون فيها للشعراء ، ويَستمعون لقصائدهم ، ويَمْنَحونَهم الجوائزَ على حسب إجادتهم أو موافقة شعرهم لسياستِهم ، إبقاءً على مَنْقَبةٍ جميلةٍ من

مناقبِ العربيـةِ وترفيهاً على أهلها . وشاركهم فى ذلك وزراؤهم وعمـالهم ورؤساء دواوينهم من الفرس وغيرهم حتى كان منهم شعراء وأدباء لا يقلون عن المتكسبين بالشعر .

فبلغ الشعر فى هذا العصر غاية لم يبلغها بعده إلا عند المتنبي ، وهو ممن أدرك هذا العصر ، وإن لم تكن هذه الغاية كلَّ ما كان يُرجى للشعر العربى من الكمال ؛ وذلك لانكفافِ خلفاء العرب وأمرائهم عن شد أزره بغلبـة عبيدهم من الترك والديلم على أمرهم ، واستحياء كثير منهم لآداب لغتهم .

ومع تفننِ شعراء المولَّدين فى أغراض الشعر وإبداعهم فى معانيـه ، وترقيقهم لأساليبه ، لم يزالوا فى الجملة محافظين فى إنشاء القصيدة على الأوضاع الموروثةِ عن العرب منـذ جاهليتها فى بنائها على قافيةٍ واحدةٍ ووزنٍ واحد ، وفى ابتدائها بالغزل والنسيب بذكر الديار والأطلال والظعائن ، ووصف الناقة ، والرحلة فى الفلاة ووصف ما فيها من الوحش والصيد ، والتمهيـد بذلك للغرض المطلوب من مديح أو تهنئة أو هجاء ، وإن لم يكن الشاعر سلكَ باديةً أو ركبَ ناقة . وعلتهم فى ذلك إبقاؤهم لذكرى وطنهم وتظرفهم بالتشبه بالأعراب فى أخص خصالهم فى شعرهم ؛ على أن بعض الشعراءِ من سلائل العجم كأبى نواس لم يلتزم ذلك فى شعره ، وطالمـا نعى فى مطالع قصائده على شعراء الحضر المحدثين الذين يسلكون مسلك الأعراب ، واستبدل به الابتداء بخمرياته ومجونياته ، أو وصف القصور والبساتين وركوب السفن بدل النوق ، وجاراه كثير من أمثاله .

ويمكن إجمالُ التغيُّرات التى طـرأت على الشعر مدةَ القرنين الأولين فى خلافة بنى العباس فى أغراضه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه فيما يأتى :

أغراضه — نُظِم الشعر هذا العصرَ فى أغراضٍ نَظَمَتْ فيها العرب من قبلُ ، ولكنها تشكَّلت بشكلٍ خاص فى الدولة العباسية أو بِكثرة استعمالها فيها وفى أغراضٍ ابتُدِعَت ابتداعا .

فمن الأغراض التى تشكلت بشكل خاص أو كثر استعماله فيها :

(١) استعماله فى العصبية : فقد كانت مقصورة قبل على المفاخرة بين بعض قبائل العرب و بعض فزادت عليها العصبية بين العرب والعجم كما فى شعر الشُّعوبية، ولم يكونوا يحسرون على قوله فى دولة بنى أمية ، و بين أرباب العلوم والصناعات كنحاة البصرة ونحاة الكوفة ، و بين مختلفى المذاهب من الفقهاء والمتكلمين .

(٢) استعماله فى السياسة بين شيعة العلويين وشيعة العباسيين : ولم يكن قبل خلاف بين الشِّيعتَين بل كانوا جميعا يُسمَّوْن شيعة بنى هاشم المعارضة لشيعة بنى أمية، وفى مظاهرة خليفة أو وَلِىّ عهد على مُنافس له من العباسيين، وفى نقد سياسة الدولة العباسية فى إيثارها العجم على العرب ، وفى تَوْليَتهم إياهم مَقاليد أمور الدولة .

(٣) تنوع الوصف : فقد تنوّع وتشكّل بأشكال شتّى : من وصف القصور والبساتين ومجالس الأنس والمصانع والآثار القديمة ومصايد الطير والسمك ووصف أنواع السفن المختلفة : من سفن السفر والانتقال وسفن القتال ووصف أحوال الطبيعة وأحوال النفس وغير ذلك من الأمور الدقيقة .

(٤) زيادة استعماله فى المجون والخلاعة والتهتك وحكاية المخازى والفسوق : وبعضُ ذلك قد كان فى عصر الأموية بحال لم تبلغ حد البشاعة التى كان عليها فى الدولة العباسية ،ومن شعراء هذا الصنف المَقيت أبو نواس وكثير من أمثاله .

(٥) نظمه فى الحكمة وضرب المثل ، وكان يقال منه القليل فى الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية فى خلال بعض القصائد ؛ ثم لمّا تُرْجِمَتْ حكمة اليونان والفرس والهند أدخل الشعراءُ كثيرا منها فى شعرهم وزادوا عليها كثيرا من اختراعهم ، ومن أشهرهم صالح بن عبد القدوس وأبو تمام ..

ومن الأمور التي ابتدعت في أغراض الشعر :

(١) الغزل بالمذكر : ولم تكن تعرفه العرب قطُّ ، وإنما صدر عن المستهترين بالفسوق والمجون من أبناء الموالي ، وسَرَت عدواه إلى من يخالطهم من سلائل العرب ، ثم استطار شرُّه وعمَّت بلواه ، وكان أشدَّ من أشاد به وأذاع سِرَّه أبو نواس والحسين بن الضحاك وأشباهٌ لهما .

(٢) إغراق شعراء المسلمين في وصف الخمر : وكان بعض شعراء الجاهلية يصفها ثم نَهى الإسلام عن ذلك فلم يَصِفْها إلا بعض النصارى كالأخطل . ولما ساءت الحال في البضع عشرةَ سنةً الأخيرة من حكم بني أمية نَظَمَ فيها بعضُ المجّان والمستهترين بالمجون من الأمراء مقطّعاتٍ فيها ، ونسب إلى الوليد بن يزيد بعض ذلك صحيحا أو منحولا بقصد التشنيع عليه من منافسيه من أهل بيته خاصة ، ومن الناقمين على بني أمية عامة .

وكانت نتيجة الحرية التي نالها الأعاجم في صَدْر الدولة العباسية أن جَهَرَ كثيرٌ من شعرائهم بالإغراق في وصفها ، واستقصاء كلِّ ما يتعلق بها مما لم يكن له نظير في جاهلية ولا إسلام .

وحاول الخلفاء والولاة رَدْعَهُمْ عنها بالحبْس والضرب فلم يجْدِ شيئا ، وذاع القول فيها حتى بين من لم يشربْها ، وعدُّوا ذلك تظرُّفاً وتملُّحاً . وأكثر من أغرق في ذلك أبو نواس ثم جاراه غيره .

(٣) التزهيد في الدنيا ونعيمها والتذكير بالموت والنهي عن الاسترسال في الشهوات واللذات : وكان ظهور هذا النوع ضروريًّا ليكونَ لسانَ حال أهل الجدِّ من المسلمين كالفقهاء والعلماء والمتكلمين والمحدثين وأهل الورع والزهادة يضادون به الفساق من الشعراءِ والكتّابِ ومُجّان الموالي ومن جاراهم من سلائل العرب .

و بطلُ هذه الغارة أبو العتاهية، وربما كايدَه بعض الشعراءِ والمُجّان كأبى نواس، فنظموا فى الزهديات قصائد لا تقل فى الصناعة عن شعر أبى العتاهية ، ولكنهم لم يكونوا مخلصين فى شعرهم ، وإنما كانوا يقولونها إظهاراً لمقدرتهم فى صناعة الشعر.

(٤) تأديب النفس وتهذيب الناشئين بنَظْم القصص والحكايات عَلى ألسنة الحيوان والإنسان : وأوّلُ من فعل ذلك أبانُ اللاحقىُّ من صنائع البرامكة ، نظم لهم كتاب كليلة ودمنة فأجازوه بجائزة جليلة ، وتابعه فى ذلك غيره .

(٥) ضبط مسائل الفقه والعبادات وقواعد العلوم : وظهرت فائدة هذا النوع فى استذكار العلوم واستخدمه المشارقة والمغاربة الى وقتنا هذا .

لفظه وأسلوبه ومعانيه — ظهر أثر الحضارة والتأنق وسلامة الذوق فى تخيُّر ألفاظ الشعر وأساليبه وفى تأدية معانيه أكثر مما ظهر فى أغراضه : لاستعمال الرويّة ، وقلة الارتجال ، والإنحاء عليه بالتنقيح والتهذيب ، والميل به إلى جانب الرقة والسهولة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته (فى غير الهزل والمجون) مِنْ مثل مدائح الخلفاء والوزراء والولاة ورثائهم والفخر والطّرد .

غيرَ أن الشعراء المتحدِّرين من سلائلَ أعجميةٍ أدخلت فيه كثيرًا من الألفاظ الفارسية والسّواديّة من أسماء المآكل والملابس وأنية المائدة والشراب وأدوات الزينة والصناعات ؛ فما كان منه فى أوّل الدولة قبل أن تفسد ملكة اللغة فى الأمصار اعتُبر مُعرّبا يصح استعماله فى الفصيح وإلا فلا . وأكثر من فعلَ ذلك أبو نواس لشيوعيته وعصبيته للفرس .

وكذلك تعمَّدَ فيه هؤلاء الشعراءُ استعمال بعضِ الألفاظ والتعبيرات والأساليب الكلامية وبعض التشبيهات المستملَحة فى القرآن والحديث وشعر العرب مما سمّوه

بديعا . وأول من تعمّده بشار بن برد ثم أكثر منه مسلم بن الوليد حتى عدّوه أوّل من أفسد الشعر بتكلف البديع . وأعجبَ البديعُ أبا تمام فأفرط فيه . ثم تابعهم شعراءُ العصور التالية ، فاستكثروا من أنواعه واخترعوا منها مالم تنطق به العرب كما دخل فيه كثير من تعبيرات العلوم والفنون والصناعات التى حدثت فى صدر الدولة العباسية وشاع استعمالها حتى خالطت لغة الأدب .

أما معانى الشعر فقد روعى فيها دقة التصوُّر والتخيلات البديعة وتركُّب التشبيهات والاستعارات ، وامتزجت بالروح الفلسفى والقياس المنطقى فى القرن الذين نشئوا فى عَصر المأمون وما بَعده من أمثال أبى تمام وابن الرومى وغيرهما . ولِقلّة تملُّؤ كثير من الشعراء بالروح الدينى أغرق الشعراء فى تملُّق الممدوحين بأوصاف الإله والأنبياء ، وتَبِعَ ذلك كثرةُ المبالغات فى كلّ أوصاف الشعر وأحكامه .

أوزانه وقوافيه :

وراج فى هذا العصر استعمال الأبحُرِ القصيرةِ التى لم ينظِمْ منها العرب إلا قليلا فى أغراض المجون والهَزْل والتغنّى بالشعر ومقطّعات الهجاء .

ونظم المولّدون من أوزان غير أوزان العرب اخترعوها [1] كالشعر المزدوج ، فهو يتألف من مَشْطورين على قافية ثم من مَشْطورين آخرين ، وهكذا . وأكثر ما كان يستعمل فى نظم الأمثال وحكايات الحيوان ونظم القصص وقواعد الفقه

---

(١) وهذه الأوزان كثيرة جدا منها أوزان اخترعها الخليل بن أحمد من عكس بحور العرب ومنها أوزان اخترعها أبو نواس وابن المعتز وغيرهما .

والعلوم (راجع المنتخب) . وأشهر ما اخترع فى هذا العصر من الشعر العامى المواليا وأول من نظمه مولاة للبرامكة فى رثائهم[١] .

بَشار بن بُرْد

هو رأس المحدثين بشار المُرَعَّث بن بُرْد بن يرجوخ العقيلى ولاء البصرى منشأ .

وأصل آبائه من فرس طخارستان من سَبْى المُهَلَّب بن أبى صُفْرة . ووقع مِلْكُ أبويه لبنِى عُقَيْل بن كَعْب ، فنشأ بشارُ عَتيقا لهم . وكان بشار أكمه (مولودا أعمى) جاحظ الحَدَقتين قد تغشّاهما لحمٌ أحمر . وكان مجْدورَ الوجه قبيحَ المنظَر مُفرِطَ الطول ضخْم الجُثَة .

وقد لَقِنَ اللغةَ والفصاحةَ من مُعاشرة مواليه الذين نشأ فيهم ومن أئمة البصرة فى اللغة والأدب والكلام ، ومن اختلافه كثيرا الى الأعراب الذين كانوا ينزلون باديةَ البصرة ، حتى خرج نابغةَ زمانه فى الفصاحة والشعر ، قِيلَ له (ليس لأحد من شعراء العرب شعر ، إلّا وقد قال فيه شيئا استنكرتْه العربُ من ألفاظهم وشُكَّ فيه ، وليس فى شعرك ما يُشَكُّ فيه قال : (ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت هاهنا ،

---

(١) وذلك أن هرون الرشيد لما فتك بالبرامكة أمر ألا يرثوا بشعر فرثتهم مولاة لهم بمقطعات مقفيات الشطور أربعة أربعة ووزنها من بحر البسيط إلا أنه بعبارة عامية ملحونة ولذلك لا يحسب من الشعر ، ومن هذه المقطعات قولها فيهم .

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس	أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس	سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وكانت تصيح عقب كل مربعة : واموالياه فاقتصر فى تسميته على لفظ " المواليا " ويظهر أن الذى كان ينظمه يسميه بالعلمية (المواال) كما يسمى أهل الصعيد الذى ينظم (الواو) المواوى ثم أطلق (الموال) على نفس النظم .

ونشأتُ فى حجُور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرِف كلمة من الخطأ ، وإن دخلتُ إلى نسائهم فنساؤهم أفصحُ منهم ، وأيفعتُ فأَبديتُ إلى أن أدركتُ ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟) .

وكان فوق ذلك متوقد الذكاء صادقَ الحس لطيفَ الهداية ، وكان فى صباه وشبابه معتدلَ الأخلاق مُكِبًّا على تحصيل العلم مُصادِقاً لواصل بنِ عطاء رأس المعتزلة وعمرو بن عُبَيد ، إلا أن ذلك لم يَدُم طويلا ؛ فصرَّحَ بعقائدَ فاسدةٍ فى حديثه وشعره ، ورأى المجونَ والخروجَ على العلماء والمتوقّرين يُحَبِّبانِه الى طبقة الخُلَعاء والمغنّين والقِيان فاستُهتِرَ بهما . ورأى أن أكثرَ الناس لا يستدرّ خيرهم إلا بتهديدهم بالهجاء والتشهير بهم ، فسلك معهم هذه الطريقَ ، وتمادى فى ذلك ، فأصبح وَلِعًا بالمجُون والعبث بالناس ، قليلَ المبالاةِ بشعائرِ الدين و بالوقيعة فيه ، مُتهما بالزندقة ، وأنه يدين بالرَّجْعةِ ويفضل النار على الأرض ، فيصوب رأى إبليس فى امتناعه من السجود لآدم ، ويرى أن الناسَ كلَّهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار شُعُوبيًّا متعصبا . على العرب يُغرِى الموالىَ بنَبْذ وَلائهم والانتماء الى الفُرس ، شديدَ التبرُّم بالناس ، ثلاّباً لهم ، نهّاشًا لأعراضهم ، لم يسلَم مِن عُقْرةٍ مِنْ لسانِه خليفةٌ ولا سُوقة ، حتى أهل بيته . وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألاّ يعرف بشاراً ولا يعرِفه بشار ، فإنه إن لم يُمتَحن بلسانه امتحِن به فى ماله .

فمقَتَه العلماءُ والمتكلمون وهمُّوا بالوقيعة به ، وإراحة الناس منه وخاصةً واصل ابن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، ففرّ من البصرة الى أرض الجزيرة الفراتية واتصل ببعض أمراء بنى أمية وولاتهم فمدحهم وعاش فى معروفهم وجاءت الدولةُ العباسيَّة فاضطرب عيشُه فيها بادئَ الأمر حتى عِلم بموت عدوّيه واصل وعمرو بن عُبيد ، فعاد اليها مُحَمَّلًا بعقائد جديدة ومنكرات من الأخلاق ؛ غير أن نبوغَه فى الشعر ، و براعة دُعابته شفعت له عند كثير من رؤساء الموالى والمشتهرين بالمجون ، فعاش بقية عمره بالبصرة على تلك الحال التى أتت بعدُ على نفسه وكانت فيها منيّته .

منزلته فى الشعر :

وقال بشارٌ الشعر ولم يبلغ عشرَ سنين ، ثم بلغ الحُـلُمَ وهو مخشىٌّ معرّة لسانه وكان يقول : (هجوتُ جريرا فأعرض عنى واستصغرنى ، ولو أجابنى لكنتُ أشعرَ الناس) وكان وهو صغير إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه ، وكان طيّانا (يعمل اللَّبِنَ من الطين) فشكَوْه اليه ، فيضرب به ضربًا مبرّحا ، فكانت أمّه تقول له : كم تضرب هذا الصبىّ الصغير الضرير ، أما ترحمُه ، فيقول بَلىٰ والله إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للنـاس فيشكونه الىّ فيسمعه بشارٌ فيطمعُ فيه ، فقال يا أبت إن هـذا الذى يشكونَه اليك منْ هو قولى الشعر ، وإنّى إن تممتُ عليه أغنيتُك وسائرَ أهلى ، فاذا شكَوْنى فقل لهم . أليس الله عز وجل يقول (ليس على الأعمى حرج) . فلما أعادوا شكواهم قال لهم ذلك ، فانصرفوا ، وهم يقولون (فِقْهُ بُرْد أغيَظُ لنا من شعر بشّار) .

ويقول أكثرُ رُواة الشعر ونَقَدتُه والباحثون فى طبقات الشعراء ، إن بشارا رأسُ المحدثين ومقدَّمُهم ، وأسبقهم الى مُعاطاة محسنات البديع وطَرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع فى الإسلام وأنه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتق عن المعانى الدقيقة والأخيلة اللطيفة .

والحق أن له الجيِّد والردىءَ قال عن نفسه (لى اثنـا عشر ألفَ بيتٍ عيْنٍ ، فقيل له : هذا ما لم يكن أحدٌ يدعيه سواك ، فقال : لى اثنتا عشرة الف قصيدة لعنَها اللهُ ولعن قائلَها إن لم يكن فى كلّ واحدة منها بيتُ عيْنٍ) .

وقُصارَىٰ القول أن شِعرَ بشار هو الحدُّ الوَسَط بين الشعر القديم والحديث ، وقد طرق فيه كلّ باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله ، وأربى عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيبُ بالنساء والغزل بهن والخروج بذلك عن الحدّ المألوف عند أهل

زمانه ، حتى أنكره عليه العلماءُ والمتألّهون لمّا رأوْا من تولُّع جوارى البصرة وشُبّانها بشعره وحتى قال سَوّارُ بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار (ما شيء أدعى لأَهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى) . وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول ، إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلماتٍ لهذا الأعمى المُلحد ، فلما كَثُ ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى وقدم عليه مادحا له استنشده قوله :

قاسِ الهُمومَ تَنَلْ بها نُجُحا   والليلَ إنَّ وراءَه صُبُحا
لَا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَدَّرة   قولٌ تُغَلِّظُه وإن جَرَحا
عُسْرُ النِّساء إلى مُياسَرَة   والصعْب يمكِنُ بعد ما جَمَحَا

فأنشده إياه ، وكان المهدى غيورا ، فغضب وزجره ، وقال : أتحُضُّ الناس على الفجور ، وتقذِف المحصنات المخبآت : والله لئن قلتَ بعد هذا بيتا واحدا فى تشبيبٍ لآتين على رُوحك ، فكان بشارٌ اذا تاقتْ نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفةَ مَنَعه كذا وكذا ، ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يُريد ، ويقول إنه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت ، وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزِدْ على أن حَرَمه الجائزة عليها ، وشجّعه على ذلك وزيرُه يعقوب بن داود ، وكان متورعا فهجاهما ، فكان ذلك إلى زندقته سبب قتله :

فمن قوله يتبرأ من التشبيب ويمدح الخليفة :

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رأيْتُــهْ   من وجه جارية فَدَيْتُهْ
بَعَثَتْ إلىَّ تَسُومُني   بُرْدَ الشباب وقد طَوَيْتُهْ
واللهِ رَبِّ محمــدٍ   ما إنْ غدرتُ ولا نَوَيْتُهْ
أمسكتُ عنك وَربمـا   عَرَضَ البلاءُ وما ابتغيْتُهْ

إن الخليفةَ قد أبَى ... وإذا أبى شيئًا أبيتُه

ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البنـــان بكى علىّ ومَا بكَيتُهْ

ويشوقنى بيتُ الحبيـــبِ إذا ادّكرتُ وأين بَيتُهْ

قام الخليفـةُ دونَه ... فصبرتُ عنه وما قليتُهْ

ونهـانى الملكُ الهما ... م عن النساء وما عصيتُهْ

لا بَل وَفَيْتُ فلم أضِعْ ... عَهْدًا ولا رأيًا رأيتُـه

وأنا المطِلُّ على العـدا ... وإذا غلا الحمدُ اشتريتُهْ

وأميل فى أنس النديـــم من الحياء وما اشتهيتُهْ

أُصفى الخليل إذا دنا ... وإذا نأَى عنى نأيتـه

ثم أنشده ما مدحه به بلاتشبيب لحرمه .

و بهذا الشعر الرقيق تعرف كيف كان ولوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها بشعره وتغنيهم به، وكيف كان إغراؤه لهم بالمجون . وكانت متأدباتُ القيان لذهاب بصره يحضرنَ مجلسه ويسمعن شعره ويتناشـدنه ويغنين ويتعاتبن به ، فهوى بشار منهن جارية تسمى عَبْدة ، فشهّرها فى شعره، حتى صار له معها أخبارٌ طائرة وأشعارٌ سائرة : فمن قوله فيها :

يزهّـدُنى فى حب عَبْـدَةَ معشرٌ ... قلوبُهـم فيهـا مخالفـةٌ قلـبى

فقلتُ دعوا قلبى وما اختارَ وارتضَى ... فبالقلب لا بالعين يُبصرُ ذو الحب

فما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وما الحسنُ الا كلُّ حُسن دعا الصبا ... وألّف بين العشق والعاشق الصب

وقوله :

لم يَطُلْ ليـلى ولكن لم أَنَمْ ونفى عنى الكرى طيف ألم

وإذا قلتُ لها جودى لنا خرجتْ بالصمت عن لا ونعم

رَفِّهى يا عَبْدَ عنّى واعلمى أننى يا عبدَ من لحم ودم

إن فى بُرْدَىَّ جسما ناحلا لو توكأْتِ عليه لانهدم

وكان يولع به فى هذا المعنى وشبهه اذ كان ضخما كأنه فيل ومن قوله فى ذلك :

يا قوم أذنى لبعض الحىّ عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

هل من دواءٍ لمشغوفٍ بجارية يلقى بلقيانها رَوْحا ورَيْحانا

وهاجى بشار الشعراءَ المفلقين فى زمانه ، ونَصبَ له منهم حمادُ عَجْرَدٍ ، واحتدم بينهما اللّجاجُ والتقاذفُ بالأقوال المقذعة ، وظهر حماد عليه فى بعض أهاجيه مع أن الجيّد من هجاء بشار فيه أكثرُ من جيّد هجاءِ حَماد ، فهجاء بشار هتك حماداً ، وبعضُ هجاء حماد آلم بشارا ، وإن لم يُسقطْ منزلتَه ، قيل إنه لما هاجاه حماد بقوله :

ويا أقبحَ من قردٍ اذا ما عَمِىَ القردُ

قال : لا إله إلا الله ، قد والله كنت أخشى أن يأتى به ، والله لقد وقع لى هذا البيت من أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع .

فاهجى به حتى وقع عليه النَّبَطى ، وقيل إنه لما سمعه بكى ، فقال له قائل : أتبكى من هجاء حماد . فقال والله ما أبكى من هجائه ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه، فيصفنى ولا أصفه :

معانيه وتصوراته :

ولبشار من المعانى المبتكرة والأخيلة البديعة فى فنون الشعر المختلفة ما جعل منهجَه برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبُر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وفى ذلك يقول الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين :

كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفننين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه .

ومن غُرَر كلامه فى الحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعنْ ... برأى نصيح أو نصيحةِ حازم

ولا تجعل الشُّورى عليك غَضاضةً ... فإن الخوافى قوةٌ للقوادم

وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختَها ... وما خيرُ سيف لم يؤيَّد بقائم

وخلِّ الهُوَيْنى للضعيف ولا تكن ... نَؤوما فإن الحرَّ ليس بنائم

وقوله :

إذا كنتَ فى كلِّ الأمور مُعاتبا ... صديقَك لم تلق الذى لا تُعاتبُهْ

فعش واحدًا أو صِلْ أخاك فإنه ... مُقارِفُ ذنب مَرّةً ومجانبُهْ

إذا أنت لم تشرَبْ مرارا على القَذَى ... ظمئتَ وأىُّ الناسِ تصفو مشاربه

وقوله :

خليليّ إن المالَ ليس بنافع إذا لم يَنَل منه أخٌ وصديقُ
وكنتُ إذا ضاقت على مَحِلّةٌ تيمّمتُ أخرى ما علىَّ مَضيقُ
وما خاب بين الله والناسِ عاملٌ له فى التقى أو فى المحامد سوق
وما ضاق فضلُ الله عن متعفف ولكن أخلاقَ الرجال تضيق

وقوله :

طبعت على ما فىّ غيرَ مخيّر هوایَ ولو خيّرتُ كنتُ المُهذّبا
اريدُ فلا أعطى وأعطى ولم أرِدْ وقصّرَ عِلْمِى أن أنالَ المُغيّبا
فأُصْرَفُ عن قصدى وعلمى مُقَصّرٌ وأمسى وما أعقبتُ إلا التعجبا

ومن قوله فى الوصف والحماسة :

وجيشٍ بجنح الليل يزحفُ بالحصى وبالشوك والخطىّ حُمْرٌ ثعالبُهْ
غَدَوْنا له والشمسُ فى خِدْر أمّها تُطالِعُنا والطّلُّ لم يجرِ ذائبه
بضربٍ يذوق الموتَ مَن ذاقَ طعمَه وتُدرِكُ من نجّى الفرارُ مثالبُهْ
كأن مُثارَ النقع فوق رءوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه
بعثنا لهم مَوْتَ الفُجاءةِ إننا بنو الموت خفاقٌ علينا سَبائبه
فراحوا : فريقٌ فى الإسار ومثلُه قتيلٌ ومثلٌ لاذَ بالبحر هاربُه
إذا الملك الجبارُ صَعّر خدّه مَشينا اليه بالسيوف نعاتبه

ومن قوله فى المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس :

أخالد لم أخبِطْ اليك بذِمة سوى أننى عافٍ وأنت جَوادُ
أخالدُ بين الأجر والحمد حاجتى فأيّهما تأتى فأنت عِمادُ
فان تُعطنى أفرغْ عليك مدائحى وإن تأبَ لم يُضرَبْ علىّ سَدادُ
رِكابى على حَرْفٍ وقلبى مُشيَّعٌ ومَالِى بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتنى بلدةٌ أو نَكِرْتُها خرجتُ مع البازى على سوادُ

وقوله :

لمستُ بكفى كفَّه أبتغى الغنى ولم أدرِ أن الجودَ من كفه يُعْدى
فلا أنا منه ما أفادَ ذوو الغنى أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ما عندى

وقوله يمدح عقبة بن سلم قتيبة :

إنما لذة الجواد ابن سَلمٍ فى عطاءٍ ومَرْكَبٍ للقاء
ليس يُعطيكَ للرجاءِ وللخو ف ولكن يَلَذّ طعمَ العَطاء
تسقُطُ الطيرُ حيث يَنتَثِر الحَبُّ وتُغْشَى منازلُ الكُرَمَا

ومن قوله فى الحماسة يفتخر بولائه لمضر :

اذا ماغضِبْنا غضبةً مُضَريةً هتكنا حجابَ الشمسِ أو تمطرَ الدَّمَا
اذا ما أعرنا سَيّدًا مِن قبيلة ذُرَى مِنْبرٍ صلّى علينا وسلما

ومن ابتداءاته البديعة قوله :

أبى طَلَلٌ بالجِزْع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجزع آثارٌ بَقِينَ وباللوى مَلاعبُ لايُعرَفْنَ إلا توهما

ومن أبياته السائرة قوله :

هل تعلمين وراء الحب منزلة　　تُدنِي إليك فإن الحب أقصانى

وقوله (وهو أغزل بيت للولدين) :

أنا والله أشتهى سِحرَ عينيْـــك وأخشى مصارعَ العشاق

ومع مالبشار من هذا الشعر الرائع قد يأتى بالمرذول الساقط . فمن ذلك قوله :

رَبابةُ رَبَّةُ البيْت　　تَصُبّ الخلَّ فى الزيت
لها عشرُ دَجاجات　　وديكٌ حَسَنُ الصوت

وقوله :

إن سلمى خلقت من قَصَبٍ　　قَصبِ السُّكَّرِ لا عَظْمِ الجَمَلْ
وإذا أدنيت منها بَصَلاً　　غلَبَ المسكُ على ريح البصل

وإن كان يعتذر عن مثل ذلك بأنه قاله فى صباه أو للزاح .

قتله : ولما اشتهر بشار بالزندقة أمَرَ المهدىُّ وهو بالبصرة بجلده بالسياط فى حَرَّاقة بدجلة ، فضرب سبعين سوطامات منها ، وأُلقِيَ فى بطيحة البصرة فدفنه أهلُه بجانب قبر حماد عجرد :

وقيل إن سبب قتله أنه هجا المهدىَّ ويعقوب بن داود وزيره بقوله :

بنى أمية هبوّا طال نومكمو　　إن الخليفةَ يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتُكمْ ياقومُ فالتمسوا　　خليفةَ الله بين الزقِّ والعُود

ويقول آخر مقذع .

ويجوز أن يكون ذلك مما أحفظه عليه مضافا الى زندقته ، وكان قتله سنة ١٦٨ هـ وقد نيّف على تسعين وقيل سبعين سنة وهو عندى أظهر .

أبو نواس

هو أبو على الحسن بن هانىء بن عبد الأوّل بن الصّبّاح الحَكَمى الشاعرُ المشهورُ الجادّ الماجنُ .

نسبه ونشأته :

اضطربت أقوال أبى نُوَاس فى نسبه . فكان فى أوّل أمره ينتسِبُ فارسيا من أبناء الأكاسرة ، ثم انتسبَ مُضَريا ، ثم هجا مُضَر ، وانتسبُ يمانيا من قبيلة حَكَم من سَعد العشيرة ، وافتخر باليمن ، ثم اعترفَ أنه من مواليهم . وهذا الزعْمُ الأخيرُ هو ما اشتهر بينَ الناسِ ، فقال بعضهم : إن جَدّه كان من موالى عبد الله ابن الجرّاح الحَكَمىّ والى خُراسان زمنَ بنى أمية ، وأنّ أباه كان من أهل دِمَشْق من جُنْد مروان بن محمد ، انتقَلَ إلى الأهواز فى حامية رابطت بها ، فتزوّج بها امرأةً فارسية تُسمىّ جُلّبَانَ فأتَتْ بأبى نُوَاس وغيره . ثم انتقلوا به إلى البصرة ، وهو صَبيٌّ صغير ، فحفِظَ بها الأدب والشعر . واتّفقَ أن قَدِمَ البصرة والبةُ ابن الحُبَاب الأسدىّ الشاعر الكوفىُّ الماجنُ الخليعُ ، فرأى أبا نواس عند العطار ، وحادثه في الأدب ، وكان أبو نواس يبلُغُه شعرُه فى الغَزَل والمجون فيُعجِبُهُ ويحبُّ أن يراه ، فلما تعارفا أغراه وَالبة بالخروج إلى الكوفة لتخريجه فى الشّعر فرحَلَ معه إلى الكوفة ، وعرّفَه بأدبائها وخُلعَائها ، وأقام معهم زَمَناً يعيشُ بخدمتهم ، ويتعلم اللُّغة والنحوَ والأدبَ من علماء الكوفة . وأجاد الشعر على طريقتهم فى الغَزَل والمجون وتاقَتْ نفسه إلى الاستزادة من غريب اللغة ، فأخرجه والبةُ مع قوم من بنى أسَد إلى البادية ، فأقام بها سنة ، ثم انحدر منها إلى البصرة وطنِه الأول ، وأقام بها .

ومِنْ هنا يبتدئُ طَوْرُ تكسّبه بالشّعر واشتهاره بَيْنَ المُتَأَدّبين ؛ فأخذ يُتِمُّ ماعَرَف من اللغة والحديث على علماء البصرة ، وأَخَصُّهم أبو عبيدةَ وخَلَفٌ الأحمرُ . ويقال إن خَلَفًا هو الذى كَنَّاه بأبى نُوَاس تَعَصُّباً مَعَه لليمانية لأن (ذا نواس) من أَلْقاب ملوك حمير فحول إلى أبى نُوَاس . وقيل كُنِّىَ بذلك لذُؤَابَتَيْن كانتا له فى صغره تَنُوسان على عاتقيه .

وحَفظَ ألوفَ القصائد والمقطَّعَات والأَرَاجيز ؛ حتى صار حُجَّةً فى اللُّغة وَرِوايةِ الشعر . ونَظَر فى علم الكلام ونحل الأمَمِ وأرباب المذاهب فى عقائدهم ، ولكنَّ كَثْرةَ علمه لَمْ تُغَيِّرْ من خُبْث تَنْشِئَتِهِ بالكُوفَة على يد شَيْطانه وَالِبَةَ ؛ فأخذ يتكسَّبُ بمدح بعض الرؤساء والحكام وأشرافِ الناس تارة ، ويهجوهم تارة ، ويُشَبِّبُ بجواريهم وغلمانهم تارة أخرى . ويُشِيد فى شعره جَهْرةً بوصف الخمر ومجالس شرابها وندمائها وسقاتها ، ولم يكن ذلك مألوفاً عند المسلمين بعامّة وعندَ أهل البصرة بخاصة . فاشتدَّ النكيرُ عليه واشتهر بينهم بالمجانة والاستهتار بالفسوق ورُمِىَ بكُلِّ آبدة .

وفى مدة إقامته هذه بالبصرة تظاهرَ بتَعَشق جاريةٍ أديبةٍ لأحد الثَّقَفيِّين تدعى جنان مع شدَّة صُدودها عنه وكراهيتها له ، وأكثرَ منَ التشبيب بها فى شعره فى قصائد ومقطَّعاتٍ خاصةٍ بها عَبَثًا وتماجُناً شأنه مع كل جاريةٍ شَبَّبَ بها ؛ إذ كان استهتاره بَغَزَل المذكَّر أشهر ، وهو إليه أَمْيل . فثَقُلَ على أهل البصرة تماجُنُه ولولا أنه كان خفيفَ الرُّوح طَيِّبَ الحديث حَسَنَ الفُكاهة مليحَ النادرة غزيرَ الأدب والعلم لفتكوا به . ثم رأى هو أن البصرة على رَحْبِها تَضيق برغبة نفسه من الاستمتاع باللذائذ وطيب العيش وسعة النفقة ، ورأى أن دار السلام أَنْفق سُوق لشعره الجيِّدِ من البصرة ، وأنه أهل لأن يَعرِضَه على ملوكها وخلفائها ، فانتقل إليها وسنُّه قد أَربَتْ على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء من أهل بيت الخلافة وبعض الرؤساء ، وبلغ خبرُه الرشيدَ فأذنَ له فى مدحه فمدحَه بقصائد طنانه ولم يُرج شعره كثيرا عند البرامكة ، فكان يمدحهم تارة ويهجوهم أخرى حتى انتهت دولتهم .

وسَمِعَ بكَرَم الخصيب عامل مِصْرَ للرشيد ، فقَصَده ومَدَحه بعدّةِ قصائدَ من أبلغ شعره ، وحصَّل مِنْ جوائزه ومن جوائزِ أعيان أهلِ مصر أكثرَ من ثلاثة آلاف دينارٍ أنفق أكثرها فى عام قضاه فى الفسطاط يَتَنعّم بهـا ويطرَبُ . ثم رَجَع إلى بغداد وأقام بها بقية عَصْرِ الرشيد . ولمـا وَلِىَ الأمينُ الخلافةَ عَكَفَ على مَدحه وكادَ يَبلُغُ فى عصره أُمنيَّتَه لولا ما كان يشاع عنه من سوء القالة فى تهتكه ومُجُونه . ولم يَعِش أبو نواس بعد موت الأمين إلا قليلا ؛ فاعتلَّ مدة وساءت حالُهُ . ومات فى بيت أحد أصدقائه من آل نَوبخت سنة ١٩٦هـ والمشهور أنه تاب قبلَ أن يموت.

شعره وأثره فى الأدب :

كان شعر بَشّارٍ برزخا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواسٍ فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا محدثا جامعًا لكلِّ ما تصوَّرهُ المحدثون فى الشعر من جد وهزلٍ وجزالة وسهولة ، فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهر من تسمت طريقته فى الجد والهزل والهجاء ، غير أن بشارا كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقر ، فلم يهتِف بالخمر فى شعره إلا لِمـاما ، ولم يعجبه الغزل بالمذكر ، ولم يسلك مسالك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق و سهل .

وأبو نواس سلك طريقته فى المجون والهزل ، وركب رأســه فى الاستهتـار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر و وصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بِصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العِذار فى هذا الغزل والخمريات حتى أصبح مثل سوء لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاءِ والمجان حتى رسخ هذا الصنف من الغزل والخمريات بعــد حين فى أغراض الشعر وتعمده من لم يقع فى محظوره حتى الصوفية .

ولا يؤخذ من قولنا : إن شعر أبى نواس كان أسوأ قدوةٍ بكثيرٍ من نابتة عصره والعصور التى تليه أن الصورة المتكونة من أخباث شعره وأرفاثه تمثل حالة

المجتَمع الإســلامى فى خلقه ومقدارِ تمَسُّكه بشعائر الدين على اختلاف مواطنه ، وخاصةً العراقَ و بغدادَ فى عصر النهضة الإسلاميــة فى التفسير والفقه والتوحيد واللغة والأدب والتاريخ والمغازى والفلسفة .

وإنمــا هو يمثِّلُ بيئةَ الفساد فى العراق التى انغمس فيها طبقة المترَفين والفُتَّاك ، والتى لاتخلو منها حاضرة مملكة عظيمة تملكُ ألوف الألوف من مختلف الأمم، مهما تصعَّبَتْ قوانينُها فى مُطاردتها كما نرى فى عصرنا هذا ، فكيف ببغداد وقد كان فيها مئات من الألوف من سلائل سَبْيِ الأمم التى غلبهــا العرب على أوطانهــا لِفساد أخلاقها ، وانحطاط نفوسها ، وقِلَّة شعورها بالشرف ، وكان فيها أسواق نافقة للرقيق من الجوارى والقِيان والغِلمان يباع بتفاوُت الأثمان ، و يسهل اقتناؤه على السوقة والوضعاء الذين يستغلونه فى وجوه شتى من المكاسب .

وإذا جاز لنا أن نجعلَ شعر شاعرٍ واحدٍ مِرءاةً لحــال طبقةٍ من الأمة فشعر أبى العتاهيــة يمثل طبقة أهل الزهادة فى الأمة وصالح بن عبد القدوس يمثل أهل الجد والتَّزمُّت .

ولا يَضرُّ الرشيدَ والأمينَ فى شَرَفهما وخُلقِهما إعجابُهُمــا بشعر أبى نواس وفُكاهته ، فكما عطفا عليه بإثابته على جَيِّد مَدحِه لهما شَدَّدا عليه النكيرَ ، وعاقباه على تَهَتُّكه فى قوله وعلى شرب الخمر عقابا شديدا ، فقد روى المؤرِّخون أن الرَّشيد سَجنه فى هجائه مُضَرَ وأطــال سجنه ، ثم سجنه مرة أخرى لتصريحه فى شعره بشربه الخمر والحَثِّ على شُربها . وسجنه الأمين مرة فى شرب الخمر أيضــا . حتى تاب عنها وعن ذكر شُربها فى شعره وهدَّده بالقتل إن شربها . ثم سجنه مرة أخرى فى هجائه سليمان بنَ جعفر عم أبيه مدة طويلة حتى استشفع بوزيره الفضل بن الربيع فأطلقه .

ولم يطل حكم الأمين بعدُ كما لم تطل حياة أبى نواس بعده .

الصحيح والمنحول من شعره:

إذا اشتهر عظيم بأمر من الأمور نُسب اليه كلُّ ما جُهلَ مصدرُه من هـذا الأمر ، فمثلا نُسبَ إلى حسان كلُّ شعر قيلَ فى النبوة ومناقضة قريش والأنصار وجُهِلَ قائله ، ونسب إلى أبى نواس كل شعر جهل قائله فى أمور اشتهر بها كالمجُون والتهتك والمغالاة فى وصف الخمر وغزل الذكور والطرد (أى صيد الوحش والطير) بل نُسب إليه كثير من شعر خليع ماجن مثله وهو الحُسين بن الضحاك وبعض شعر والبة بن الحباب ، وكلاهما دون أبى نواس فى الإجادة . وبالعكس أُهملَ تدوين كثير من شعره الحقيقى وخاصةً ما كان منه فى الجديات ، إمَّا لأنَّ قاله فى اغترابه فى الشام ومصر ، وإما لموت رواته قبل تدوينه أو ضياع الرقاع التى كُتب فيها . لأنه لم يُدَوِّنْ ديوانه بنفســه بل دوَّنه غيرهُ بعد ثلاثين أو أربعين ســنة من وفاته فى مجموعات تختلف قلةً وكثرةً وصحةً وفساداً ، وروَى له جامعُ ديوانه المطبوع فى مصر بقايا قصائد له جُهِلَتْ وقصصًا عن شِعرٍ كثير قاله فى مدح البرامكة وغيرهم وباد مع ما باد من آثارهم .

وعلى ذلك يظن أن أكثر الضعيف المنسوب إليــه من نوع المنحول ، وأن باقيَه يكون قد قاله ارتجالا بين قيانٍ وسقاةٍ وخلعاء يسكرون معه لمــا يشاهد فيه من التأنث والتهالك وحديث النساء .

ومن العجيب أن الخلعاء وتجارَ الهزل لايزالون يحملون على أبى نُواس كلَّ آبدة من الهزل والمجون حتى فى عصرنا الذى نعيش فيه .

وصف شعره من حيث أغراضه ومعانيه وألفاظه :

وقد قال ابو نُواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلَبَ عليه :

(١) الغزلُ الماجنُ بالمذكر والمؤنث والتفنُّنُ فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوة بها وذكر سقاتها وندمائها وصَبوحِها وغبوقِها ،وتغلغل فى ذلك ماشاء .

(٢) ثم الهجاءُ وكان منه المقبولُ الذى سلك فيه مسلكَ التهكم والتنادر على المهجو،ومنه المقذعُ الفاحشُ الذى سلك فيه مسلكَ العامة فى تسابِّها ومهاترتها؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمَم : هجا مُضَرَ وقبائلَها ، وفى هجائها حبَسهُ الرشيدُ ، ثم هجا العربَ وأهلَ باديتها منتسبا الى كسرى. واستتبع هجوه لمُضَرَ خاصّةً أن افتخَرَ باليمن، وهجْوه للعرب عامّةً أن افتخر بالعجم .وانتسب إلى كسرى،وظهر بمظهر الشُّعُوبيةً وهجا نيلَ مِصْرَ لأنه رأى فيه تمساحا التقم رَجُلًا .

(٣) ثم الطَّرَدُ ووصفُ الصيد من الوحش والطير وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل . وله فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة .

ولم يكن المدحُ والرثاءُ أهَمَّ مقاصده من شعره وانْ تكسَّبَ بهما ، ولكن مدحَه على قلّته بالإضافة الى بقية شعره أبلغُ شعره وأجودُه وأرصنُه ، وله فيه قصائدُ جاراه فيها فحولُ الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها الى اليوم .

ومن العجيب أنَّ مثْلَ أبى نُوَاس فى عَبَثه وتَماجُنه يُفْسِحُ للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطّعات منها ما هو غايةٌ فى الباب وكانت جديرة أن تصدُرَ عن أبى العتاهية . والحقُّ أنَّه لم ينظمْ هذا النوع إلا مُكايدةً لأبى العتاهية.وتَفوُّقا عليه وإظهارًا لقدرته على النظم فى أى غرض .

ألفاظه وأسلوبه :

كان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقُّر من الوزراء والولاة والقواد يفخِّم الالفاظَ ويَتَخَيَّرُها ويُجيدُ رَصْفَها، ويكثر من الغريب فيها ؛ ويسلك غالباً مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح.
وكان فى طردياته أعرابياً فى شَمْلَة لا يُصَدِّقُ من يَقرؤُها أنها صادرة من حضَرىٍّ خليع .

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم يُنْحى عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عُيوناً ، فهو من أمثال زُهير والحطيئة والأخطل ولذلك كانت قصائدُه الجيدةُ قصيرةً .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دَالَّةٌ راعى أسلوبَ الحضريين فى دَماثته ولينه ورقة نسجه. ومهَّدَ للديح بذمِّ الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أوكاد .

وكذلك كان يرقِّقُ القَوْلَ فى المقطعات والخمريات ، ويُسِفُّ إلى أن يقارِبَ العامَّة فى المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولَّدة أو الدخيلة .

معانيه :

جمع أبو نواس فى شعره خلاصةً من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضافَ إليها صُوَرًا جديدةً من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المُثَقَّفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر مَن حاكاه منهم وصبَّ على قوالِب معانيه بشارُ بن بُرْد .

ومن المأسوف عليه أن أكثر معانيه المبتكرة وتشبيهاته البديعة كانت :

أولا — فى الخمريات ، فقد فاق فيها كلَّ من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات صدقا وكذبا .

ثانيا — فى الغزل بالمذكر ، ولا غرابة فى ذلك فعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع ، ومن معانيه فيه استمدَّ شعراءُ المولَّدين بعدَه . على أن له فى الأغراض الجِدِّية معانىَ لم يَحُمْ حَوْلَها شاعرٌ كما أن له فيها وفى غيرها معانىَ منكَرَةً : إما لغُلُوّه غُلُوّا لا يقبله العقلُ ولا الدينُ ، وإمَّا لتَسَفُّله فيها إلى درجة الكفر والإباحة والتهتك .

ونذكر هنا أمثلة من جِدِّه ومن هزله القليل الشُّنعة .

فمن جِدِّياته ما قال يمدح الفضل بن الربيع وزيرَ الرشيد والأمين .

لقد نزلتَ أبا العباس منزِلةً ما إنْ ترى خَلْفَها الأبصارُ مُطَّرَحا

وكِلْتَ بالدهر عَيْناً غيرَ غافلةٍ من جُودِ كَفِّك تأسو كلَّ ما جَرحا

وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرون إمامِ الهدى عند احتفالِ المجلس الحاشدِ

أنْتَ على مابك مِن قُدرةٍ فلستَ مثلَ الفضلِ بالواجدِ

ليسَ على اللهِ بمُستَنْكَرٍ أن يجمعَ العالَمَ فى واحد

وقال فى الموعظة :

ألا كُلُّ حىٍّ هالكٌ وابن هالكٍ وذو حَسَبٍ فى الهالكين عَرِيقِ

فقُلْ لمقيمِ الدار إنك ظَاعنٌ إلى سَفَرٍ نائى المحلّ سحيق

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفَتْ له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وقال فى معنى الكبير ينشأ عن الصغير ، وعن الجد يتولد من الهزل ، ومن نافع ينجم عنه ضار :

أيَّة نارٍ قدَحَ القادحُ — وأىّ جِدٍّ بلغَ المازحُ

لله درُّ الشيْب من واعظٍ — وناصحٍ لو قُبِلَ الناصحُ

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى — ومَنْهَجُ الحقِّ له واضحُ

وقوله فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى .

ومستَعْبِدٍ إخوانَه بثَرائه — لَبِسْتُ له كِبْراً أبَرَّ على الكِبْرِ

إذا ضمّنى يَوْماً وإياه مَحْفِلٌ — يرى جانبى وَعْراً يزيد على الوَعْرِ

أخالفُهُ فى شَكْلِه وأجُرُّه — على المَنْطِقِ المَنْزُور والنَّظَر الشَّزْر

وقد زادنى تيهاً على الناس أنّنى — أَرانى أَغناهُمْ وإن كنت ذا فَقْرِ

فو الله لا يُبْدِى لسانىَ حاجةً — إلى أحدٍ حتى أُغَيَّبَ فى القَبْرِ

فلا يطْمعنْ فى ذاكَ منّىَ طامعٌ — ولا صاحبُ التّاجِ المحجَّب فى القَصْرِ

فلو لم أَرِثْ فَخْرًا لكانت صيانتى — عَنِ الناس حَسْبِى مِنْ سُؤَالٍ مِنَ الْفَخْرِ

وكان قوله : (فلا يطمعن — البيت) سببا فى غضب الأمين عليه .

ومن هزلياته قوله فى الخمريات :

دَعْ عنك لومى فإنَّ اللّومَ إغراءُ — وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لاتنزلُ الأحزانُ ساحتَها — إنْ مَسَّها حَجَرٌ مسَّتْه سَرَّاءُ

وقوله :

فتمشَّتْ في مَفاصلهم كتمشِّى البرء في السَّقَم
فعلَتْ في اللُّبِّ إذ مُزِجَتْ مثلَ فعلِ النارِ في الظُّلَمِ

وقوله في وصف سِكّير :

ومُستطيل على الصهباء باكرها في فِتيَةٍ باصطباح الراح حُذَّاقِ
فكُلُّ كَفٍّ رَآه ظَنَّهَ قَدحًا وكُلُّ شَخص رآه قالَ ذا ساقِ

أبو تمام

هو أبو تمام حبيبُ بن أَوْسٍ الطائي ، أسبقُ ثلاثةِ الشعراء الذين سارت بذكرهم الرُّكبان ، وخلَّد شعرَهم الزمان ، ثانيهم البُحتُرِيُّ وثالثُهم المتنبي .

مولده ومنشؤه :

والمعروف في نسبه أنه عربيٌّ طائي ، والمرجح في مولده أنه ولد سنة ١٩٠ هـ بقرية جاسم من كورة جَيْدور شماليَّ حَوْران من أعمال دمشق ، وعلى بعد ثمانية أميال منها [١] من أبوين فقيرين . ونُقِلَ صَغيراً إلى مصر فلبث بها مدة يشتغل بمهنٍ حقيرة . ثم كان يسقى الماءَ بالجرّة في جامع عمرو بالفسطاط . والظاهر أن طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث حبَّبَ إليه العلمَ والأدبَ ؟ فتعلَّم العربيةَ وحفظَ ما لا يُحصى من شعر العرب قيل إنه كان يحفظ أربعةَ عشرَ ألفَ أرجوزةٍ للعرب غير المقطعات والقصائد .

---

(١) ووقع سهوا من النساخ ومن المؤلف في نسخة الأغاني المطبوعة بمصر ان جاسم احدى قرى منبج وهو خلط بين نسب البحترى الطائى وأبى تمام الطائى لان الذى ولد بقرية من قرى منبج هو البحترى لا أبو تمام والقرية التى ولد بها البحترى تسمى حردفنه وبينها وبين جاسم بعد شاسع .

ولما أينعت ثمارُ أدبه واستحصف شعرُه عرف أن مصر لا تنهض بإذاعة فضله وتحقيق أمله ، فعاد إلى الشام ، ولبث فيها مدة يمدح رؤساءها وولاة الدولة ، فذاع شعره بالجزيرة والعراق ودعاه رؤساء الدولة أن يقدَم إلى العراق ، فقدمها ومدحهم ، واتصل بالخليفة المعتصم فمدحه ، وحظى عنده . وعند وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وعند الحسن بن وهب أحد رؤساء الكتّاب ومحمد ابن حُمَيد الطوسى الطائى أحد قوّاد العرب فى جيش المعتصم .

ثم كان يرحل الى كبار عُمّال الدولة بممالكهم كعبد الله بن طاهر بخراسان وأبى دُلَف العِجْلىّ ببلاد الكَرَج وإرمينية ، ومدحهم بالقصائد الخالدة وقرّبوه منهم إلى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر . فولّاه الحسنُ ابن وهب صاحبُ ديوان الرسائل فى زمن المعتصم ولايةَ بَريدِ الموصل فأقام بها أقلّ من سنتين وتوفى بها سنة ٢٣١ ﻫ ودفن بها ورثاه الوزراء ورؤساء الدواوين كابن الزيات والحسن بن وهب وغيرهم .

صفاته :

كان أبو تمام أسمرَ اللون طويلا ، فصيح الكلام فيه تمتمة يسيرة وكان حاضر الذهن سريع الجواب ، قلما عرف من أهل زمانه مثله فى حدة الخاطر ولطافة الحس . حكى أنه لما مدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السِّينيّة وانتهى فيها الى قوله فى المدح :

إقدامُ عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنفَ فى ذكاء إياس

قال له فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندى ، وكان حاضرا (الأمير فوق ما وصفت) فأطرق مليا وقال :

لا تُنكروا ضربى له مَنْ دونَه مثلا شَرودًا فى النّدىٰ والباسِ

فاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لنُورِه مثلًا مِن المِشْكاةِ والنِّبراس

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعة خاطره وحدّة فطنته .

وكان أبو تمام حاضرَ الجواب قويّ البديهه ، ومن نوادره فى ذلك أنه لما قصد الأمير عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، وامتدحه بالقصيدة التى أولها (أهُنّ عوادى يوسف وصواحبُهْ) أنكر عليه أبو العَمَيْثل أحد شعراء عبد الله ابن طاهر وخُلْصانه ، وقال له " لما لا تقولُ ما يُفْهَم " فقال له على البديهة " لما لا تَفْهَمُ ما يُقال " فاستحسنَ منه هذا الجواب السريع .

منزلته فى الشعر :

يُعدّ أبو تمام رأسَ الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين وظهر والدنيا قد مُلِئَتْ بترجمة علوم الأوائل وحكمتها من اليونان والفرس والهند ، فحصف عقله ولطف خياله بالإطلاع عليها واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أولَ من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا .

ولما رأى أن قد فاته سلامةُ اللفظ وحسنُ ديباجته أراد أن يجبُرَ الكسر باتحاء طريقة بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها واعتلّ عليه بعضُها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعرُه ، وصار كالكَلَف فى صفحة البدر . ومع هذا سلم له من كلامه جملة لم يحُمْ حولَها شاعرٌ سابق ، وعجز عن محاكاتها كلُّ لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، وصيغت فيه من الألفاظ الرائقة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلَفَه طرقا لم تكن لولاه مُعبَّدَة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى وغيرهما الى حكمهم .

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحترى ، ولم يرزق أحد السعادة فى شعره وتناول الناسُ لهم نقدا أو شرحا واستشهادا به مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تنيف سنه على الأربعين ، فكيف به لو عُمِّر

وأجاد أبو تمـام القول فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر . وأشهرها القصيدةُ المشهورة التى رثى بها محمدَ بن حُميد الطوسى الطائى ومنها هذه الأبيات :

كذا فليجِلَّ الخطبُ وليفدَح الأمرُ	فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ
توفيت الآمالُ بعـد محمـد	وأصبح فى شُغْلٍ عن السَّفَر السَّفْرُ
وما كان إلا مالَ مَنْ قـلَّ مالُه	وذُخراً لمن أمسىَ وليس له ذُخرُ
وما كان يَدرى مجتدى جود كفِّه	اذا ما استهلتْ أنه خُلِقَ العُسْرُ
ألاَ فى سـبيل الله من عُطِّلَتْ له	فِجـاجُ سـبيلِ الله وانثغرَ الثَّغـرُ
فتى كلمـا فاضت عيونُ قبيـلةٍ	دماً ضحكت عنه الأحاديثُ والذكرُ
فتى دهرُه شَـطْرانِ فيما ينـوبه	ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطرُ
فتى مات بين الطعن والضرب ميتةً	تقوم مُقَـامَ النصر إن فاتَه النصرُ
وما مات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلتْ عليه القنا السُّمرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه	إليه الحفـاظ المرّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافُ العـارَ حتى كأنما	هو الكفرُ يوم الروع أو دونَه الكفرُ
فأثبتَ فى مستنقَع المـوتِ رِجلَه	وقال لها من تحت أخمَصِك الحشرُ
غدا غُدوةً والحمـدُ نسجُ رِدائه	فلم ينصرفْ إلا وأكفانُه الأجرُ

ومنها :

فتى كان عذب الروح لا من غَضاضة ... ولكن كِبرا أن يُقالَ به كِبرُ

فتى سلبتْهُ الخيلُ وهو حِمىً لها ... وبزَّتْه نارُ الحرب وهو لها جَمْرُ

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عَطَلَ الكريم من الغنى ... فالسيلُ حَرْبٌ للمكان العالى

وتنظَّرِى خببَ الركاب ينصُّها ... مُحيي القريض إلى مُميت المال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيها الملكَ النائى بغُرّته ... وجودُهُ لمرجّى جوده كثبُ

ليس الحجابُ بمقْصٍ عنك لى أملاً ... إن السماءَ تُرجّى حين تحتجبُ

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صَوّرت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمورية ويسخر فيها بالمنجمين وأولها :

السيف أصدق إنباء مِن الكتُب ... فى حدّه الحدّ بيْنَ الجدّ واللّعِبِ

بيضُ الصفائح لا سُودُ الصحائِف فى ... مُتُونِهنّ جِلاءُ الشكّ والريب

البحترى

هو أبو عُبادة الوليدُ بن عُبَيْد البُحْتُرِىّ الطائىُّ الشاعر المطبوع أشهرُ من استحق لَقَبَ شاعرٍ على الاطلاق بعد نواس .

منشؤه

ولد سنة ٢٠٦ هـ بناحية مَنْبِج (بين حلب والفُرات) فى قبائل طى وتنوخ وغيرهما من أهل البدو الضاربين فى شواطئ الفرات. ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحتهم وحسن بيانهم .

أقام البحترى فى مَنْبِج وشمالىّ الشام مدةَ صباه بينَ أبوين فقيرين مُعجَبَيْن به حدِبَيْن عليه ، ونشأ لَهِجاً بالشعر يقوله وينشده أينما جلس أو سار . قال بعض علماء مَنْبِج رأيت البحترىّ هاهنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق يجتاز بنا فى الجامع من هذا الباب (وأومأ إلى إحدى جنبتى المسجد) يمدح أصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر فى ذهابه ومجيئه ثم مدح بشعره رؤساء الشام والجزيرة . والظاهر أنَّ تعرُّفَه بأبى تمام كان بالشام وبعد رجوع أبى تمام من مصر ، والبحترى بَعْدُ فتىً صغيرٌ لم يشتهر أمرُه ؛ فحدَّث البحترىُّ عن نفسه قال : "أول ما رأيتُ أبا تمام وما كنتُ رأيته قبلها إنى دخلتُ الى أبى سعيد محمدِ بن يوسف فامتدحته بقصيدتى التى أولها .

أأفاق صَبٌّ مِنْ هَوًى فأُفيقا ‏ ‏ ‏ ‏ أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فأنشدته إياها فلما أتممتها سُرَّ بها وقال لى أحسن الله اليك يا فتى . فقال له رجلٌ فى المجلس هذا أعزك الله شعرى علقه هذا الفتى وسبقنى به اليك ؛ فتغيّر أبو سعيد ، وقال لى يافتى قد كان فى نسبك وقرابتك ما يكفيك أن تَمُتَّ به الينا ، ولا تحمل نفسك على هذا ، فقلت : هذا شعرى أعزك الله . فقال الرجل سبحان الله يا فتى

لا تقل هذا . ثم ابتدأ فأنشد من القصيدة أبياتا . فقال لى أبو سعيد نحن نبلغك ما تريد ولا تحمل نفسك على هذا . فخرجت متحيِّرا لا أدرى ما أقول . ونويت أن أسأل عن الرجل مَن هو ، فما أبعدتُ حتى ردّنى أبو سعيد ، ثم قال لى جنيتُ عليك ، فاحتمل . أتدرى من هذا ، فقلت : لا ! قال هذا ابن عمك حبيبُ بن أوس الطائى أبو تمام فقُمْ اليه . فقمت اليــه فعانقته . ثم أقبل علىّ يقرظنى ، ويصف شعرى ، وقال إنما مزحت معك . فلزمته بعــد ذلك ، وكثر عجبى من سرعة حفظه . وحكى عن البحترى أنه كان يقول أول أمرى فى الشعر ونباهتى فيه أنى صرتُ إلى أبى تمام ، وهو بحمص فعرضت عليه شعرى ، وكان يجلس ولا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره فلما سمع شعرى أقبل علىّ وترك سائر الناس فلما تفرقوا قال لى أنت أَشْعَرُ مَنْ أنشــدنى . فكيف حالُك فشكوتُ خَلّةً (أى فقرا) فكتب إلى أهل معَرّة النعمان وشهدَ لى بالحذق ، وشفع لى اليهم ، وقال لى : امتدحهم . فصرت اليهم ، فأكرمونى بكتابه ووظفوا لى أربعة آلاف درهم .

ومن هنا نعلم صدق قول البحترى وقد سئل فى المفاضلة بينه وبين أبى تمــام فى مجلس ابن المعتز " أبو تمــام هو الرئيس والأستاذ ، والله ما أكلتُ الخبز إلا به ولا ينفعنى أن يقدّمنى الناس عليه ، ولا يضيره ذلك ، فقال له أبو العباس المُبرِّد وكان حاضرا هذا المجلس " أبى الله يا أبا عبادة إلا أن تكون شريفا من جميع جوانبك " .

ثم خرج إلى العراق واتصل بالخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، فمدحهما بأسنى القصائد ، وحظى عنــدهما الى حدّ الصداقة والمنادمة حتى أنه كان معهما فى مجلس الأنس الذى قتلا فيه ، واختبأ تحت ستارة ونجا من القتل ورجع إلى بلدته مَنبج مدة ، ثم عاد إلى العراق ، ومدح بعض الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد المتوكل وكثيرا من وزرائهــم وقوادهم وعمِّر عُمْراً طويلا كان يتردد فيه بين الشام والعراق إلى أن خرج منها إلى منبج ولم يعد بعدها ومات بمنبج سنة ٢٨٤ هـ .

صفاته وأخلاقه :

كان البحترى على فضله وفصاحته ورقة كلامه وبديع خياله أوسخ خلق الله ثوبا وأداة وأبخلهم على كل شيء .

وكان من أبغض الشعراء انشاداً يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ، ويقول أحسنتُ والله ، ثم يُقبلُ على السامعين ، ويقول : مالكم لا تقولون أحسنت ، هذا والله ما لا يحسن أحدٌ أن يقولَ مثله ، فعل ذلك مرة امام المتوكل (وكان فى المتوكل عبثٌ ودُعابة) فأغرى به أبا العَنْبَس ، وهو صاحب هَزْل فهجاه على البديهة بقصيدة هزلية عارض بها قصيدته فى وزنها ورويها وأفحش ما شاء فى لفظها فخرج البحترى غضبا من المجلس ، والمتوكل يضحك عليه .

منزلته فى الشعر :

نشأ البحترى فى بلاد أشبه بالبدو منها بالحضر ينزلها كثير من بطون طى وقضاعة وتغلب ، ولم تكن ألسنتهم فسدت بعد فتخرج عليهم مطبوعا على فصاحتهم وسهولة أساليبهم ، ولم يؤثر عنه أنه جلس إلى درس العلماء ولازم المتفلسفة، فابتعد ذلك عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم فكان شعره كله حسن الديباجة، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب ، ينحدر إلى الاسماع انحدار السيل إلى القاع . وقلّتْ فيه المعانى المُعَقدة العويصة التى تنشأ عن تزاحم العلوم العقلية فى ذهن المعبر عنها . كما كان يقع من أبى تمام والمتنبى والمعرّى فسهُل فهمُ شعره على جميع طبقات الناس من الخاصّة والعامة ، وتغنّى به الغلمان والجوارى والقيان .

وبذلك الشعر كان البحترى محبوبا للناس قليل الخصوم منهم عامة حياته. واتفق أن خالف طريقته السمحة فى قصيدة بقوله يصف الدنيا :

أخىَّ متى خاصمتَ نفسَك فاحتشدْ لها ومتى حدّثْتَ نفسَك فاصدُقِ
أرى علَل الأشياءِ شتّى ولا أرى الت جمُّعَ إلا علّةً للتفرّق
أرى العيش ظلّاً توشك الشمسُ نقلَه فكِس فى ابتغاءِ الرزق كيسَكَ أومِق
أرى الدهَر غُولا للنفوس وإنّما يقى اللهُ فى بعض المواطن من يَقِى
فلا تُتبع الماضى سؤالَك لِمَ مضى وعَرِّجْ على الباقى فسائلْه لمْ بَقِى
ولم أر كالدنيا حليلةَ صاحبٍ مُحبٍّ متى تحسنْ بعينيه تطلُقِ
تراها عيانا وهى صنعةُ واحد فتحسبُها صُنْعَىْ لطيفٍ وأخْرقِ

فأوهم بيتُه الأخير المناقضة فى أفعال الخالق الحكيم المنزه عن الحكمة حتى ليحسب الناظر فى أحوال الدنيا أنها من خلق اثنين أحدهما حكيم يؤثر الخير والأصلح فى صنعه والآخر أخرق يؤثر الفساد والشر. وهذا ما يشبه عقيدة المجوس القائلين بإلهين للعالم إله خير وإله شر.

فأوّل حُسّادُه البيتَ بهذا المعنى ، فأشاعوه فى العامة من الحنابلة وكانت غالبة على بغداد نخاف على نفسه وقال لابنه أبى الغَوْث : قم يا بُنَىَّ حتى نُطفىء هذه النّائرةَ بخَرجَة نَلُمّ فيها ببلدنا ، ونعود. نخرج ولم يعد.

ويكاد يكون من المجمع عليه انه لم يأت بعد البحترى من هو أطبعُ منه على الشعر ولا أبدع للخيال الشعرى. قال له يوما أبو تمام أنت والله يابنى أمير الشعراء غدا بعدى. وسئل هو عن أبى تمام فقال : جيّدُه خير من جيّدى وردئى خير من رديئه. وسئل المعرى عن أبى تمام وأبى الطيب فقال المتنبي وأبو تمام حكيمان، وأنما الشاعر البحترى.

وللبحترى تصرّف حسن فاضل نقى فى صنوف الشعر سوى الهجاء فان بضاعته فيه نزرة وجيّده فيه قليل .

وأهمُّ ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيبُ والمدحُ والوصفُ .

ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبى حبيبٌ يكتُم النـاسَ أنّه ... لنـا ــ حين تلقانا العيونُ ــ حبيبُ
يُبـاعدنى فى الملتقى وفؤادُه ... ــ وإن هو أبدى لى البعادَ ــ قريبُ
ويعرِضُ عنى ، والهوى منهُ مقْبِلٌ ... اذا خاف عَيْناً أو أشارَ رقيب
فتنطِقُ مِنّا أعْيُنٌ حين نلتقِى ... وتخرَسُ منـا ألْسُنٌ وقلوبُ

وقال فى المدح :

دَنَوتَ تواضُعاً وَعلوتَ مَجْداً ... فَشَأْناك انحــدارٌ وارتفـاعُ
كذاك الشمس تبعُدُ أن تُسـامى ... ويدنُو الضوءُ منهـا والشُّعـاعُ

وقوله فى الحكمة :

اذا ما نَبتَ الحادثاتِ وجدتَها ... بناتِ زمانٍ أرصـدتْ لبنيـه
متى أرتِ الدنيا نباهةَ خاملٍ ... فلا ترتقبْ الاّ خُمُولَ نبيـهِ

(راجع المنتخب) .

ابن الرومى

هو أبو الحسن علىّ بن العباس بن جُرَيج الرومّى مولَى بنى العبـاس كان جدُّه جريجُ مولًى لعُبَيد الله بن عيسى بن جعفر بن الخليفة المنصور .

ووُلِدَ حفيدُه الشاعرُ المتحدَّثُ عنه ببغداد سنة ٢٢١ هـ وبهـا نشأ وتعلم ، فخرجَ شاعراً كثيرَ القولِ طويلَ القصائد بديعَ المعانى كثيرَ الاختراع والتوليد

فيها حسنَ الأوصاف والتشبيه لذّاعَ الهجاء قَلَّ مَنْ سَلِمَ مِن أهل زمانه مِن عَقْرِ لِسانه ، ولولا أنهُ أغفَلَ تهذيبَ شعره بجمع بَين الغث والسمين ، ولم يسقط رديئة ، وأنه كان مضطربَ الرأى فى الحكم على الناس والزمان مفرطا فى التشاؤم من كل شيء أكثرَ حياته — لكان منقطعَ النظير فى شعراء العربية . وكفاه فخراً أنّ المتنبي أحدُ رواةِ شعره وجامعيه .

ومات ببغداد سنة ٢٨٣ هـ قيل ماتَ مسموماً سَمّه وزير المعتضد القاسم بن عُبَيْد الله فى خُشْكَنانة (بسكويت) .

ومن شعره قوله فى المدح :

المنعمون وما منوا على أحدٍ يومَ العطاء ولو منُّوا لما مانوا

كم ضَنّ بالمال أقوامٌ وعندهمُ وفْرٌ . وأعطى العطايا وهو يدّانُ

وقوله فى بغداد ، وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلدٌ صحِبْتُ به الشبيبةَ والصِّبا ولبِستُ ثوْبَ العيش وهو جديد

فاذا تمثّل فى الضمير رأيتُه وعليه أغصانُ الشبابِ تَميد

وقوله يصفُ صانعَ رُقاقٍ :

ما أنسَ لا أنسَ خبّازاً مررتُ به يَدْحُو الرقاقةَ مثلَ اللمحِ بالبصرِ

ما بَينَ رُؤْيتها فى كفِّهِ كُرَةً وبَينَ رُؤْيَتها قوراءَ كالقمرِ

إلا بمقدار ما تنداحُ دائرةٌ فى لُجّةِ الماءِ يُلْقَى فيه بالحجرِ

وقوله فى هجاء بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يتوقع منه خيرا :

سألتُكَ فى أمرٍ ، بجدتَ ببذلِه ... على أنّنِي ما خِلتُ أنك تفعَلُ

وألزمْتَنى بالبذل شُكراً ، وإنّه ... علىّ مِن الحِرمانِ أدهى وأعضَلُ

وما خلتُ أن الدهرَ يَثنِى بصَرْفِه ... الى أن أرَى فى الناس مثلَكَ يُسأَلُ

لئن سرَّنِى ما نِلتُ منك فانه ... لقد ساءنى أنْ كُنْتَ مِمَّن يُؤَمَّلُ

وقوله :

وإذا امرؤٌ مدَحَ امرأً لنَوالِه ... وأطالَ فيــه فقد أطال هجاءَه

لولم يقَدِّرْ فيــه بُعدَ المستقى ... عند الُورود لمــا أطالَ رشاءَه

ابن المعتز

هو أبو العباس عبدُ الله ابن أميرالمؤمنين المعتزِّ بالله .

ولِدَ سنة ٢٤٧ ﻫ ونشأ بِسُرَّ مَن رأَى وبغداد ، وقرأَ النحوَ على المبرّد من البصريين وثعلَب من الكوفيين ، وقرأَ الأدبَ وعلومَ الأوائل على مُؤَدّبه أحمد بنِ سعيد الدِّمشقى فخرَجَ أديباً شاعراً بليغاً مُؤَلِّفا معدوداً من كِبار علماء اللغة والأدب والتاريخ ، ولذلك خافَ أصحاب السلطة فى الدولة من الترك والكتّاب والوزراء أن يُولُّوه الخلافةَ فيكُفَّ أيديهمَ عن الخيانة والفساد ، وولَّوْا المقتدر صبيّاً خاضعا لأمرِ نساء القصر ، فاضطربَت أمورُ الدولة ، وثارت الفِتَن ؛ فألَّفَ محمدُ بن داود بن الجرّاح حِزْبا من العلماء والفضلاء وخلَعُوا المقتدرَ، وولَّوْا ابنَ المعتز الخلافة وبعدَ يَوْمٍ وليلة ثارَ غِلمانُ قَصْرِ المقتدر ومشايعوه وصدقوا حَمْلَتَهم على أشياعِ ابن المعتز ، فانهزموا ، وقبضوا على ابن المعتز فخنقوه ودفن فى خربة بازاء داره سنة ٢٩٦ ﻫ .

ويمتاز شعر ابن المعتز بالرقة والسهولة وجودة استعمال المحسنات البديعية وحسن التشبيه والاستعارة وغلبة الأوصاف عليه ، وبخاصة وصف القصور والبساتين ومجالس الأنس والصيد والوحش والطير والهلال وكواكب السماء .

ومن ذلك قوله فى وصف الهلال :

وانظر اليه كزورق من فضةٍ   قد أثقلتْه حُمولةٌ من عَنْبَر

ومن حسن ابتداءاته قوله :

أخذت من شبابىَ الأيامُ   وتَوَلَّى الصِّبا عليه السلام

وارعوى باطلى فبانَ حديث النـ   ـفس مِنّى ، وعفَّت الأَحلامُ .

وقوله فى الغزل :

مَن لى بقَلْبٍ صِيغَ من صَخْرَةٍ   فى جَسدٍ من لولوءٍ رَطْبِ

جَرحتُ خدّيْه بِلَحظى فما   بَرِحْتُ حتى اقتصّ من قلبى

(راجع المنتخب) .

ولابن المعتز كثير من المؤلفات البارعة فى الشعر والأدب والأخبار والصيد والغنـاء .

اللغة والأدب فى الأندلس

فتح العرب بلاد الأندلس سنة ٩٢ هجرية ، واستولوا عليها فنزح اليهـا كثير من القبائل والعشائر العربية التى كانت ببلاد مصر والشام وبلاد إفريقية وغيرها. وقد حكم هذه البلاد ولاةٌ من قِبَل بنى أمية ، وكانت مدة حكمهم زُهَاء ست وأربعين سنة (٩٢ — ١٣٨) وكانت أيامهم أيام فتح ثم فتن واضطراب ، فلم يكن للحياة العقلية مجال واسع ، ولم يكن لحال اللغة شأن فى غير الخطب التى كان يلقيها الولاة لبثِّ الرُّوح الحماسية فى الجند ؛ ليؤيدوا سلطانهم، ويثبتوا أقدامهم فى إدارة شؤون هذه البلاد ، ثم بعض الرسائل التى كان يكتبها هؤلاء الأمراء إلى القواد وغيرهم، ثم أحاديثهم فى المجالس والمحافل ، وأكثرها باللغة الفصحى التى كان يحاكى العرب فيها من أقبل عليهم وتعلم لغتهم من سكان البلاد وغيرهم .

ولمـا انتزع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى "الملقب بالداخل" الأمر من يوسف بن عبـد الرحمن الفهرى آخر المتغلبين على الأندلس (١٣٨هـ) أسس هناك دولة بنى أمية الثانية وأخذ يعمل على نشر آداب العرب ، وفنون اللغة وعلوم الشريعة. وجاء بعده أحفاده فاتبعوا سنته فى إحياء العلوم والمعارف فنهضت البلاد نهضة علميـة بلغت أَوْجَ عزها زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) فكثر فى الأندلس الشعراء والأدباء والكتاب والمؤلفون[١] .

وكان خلفاء بنى أميـة يساعدون أهل العلم والأدب فى الرحلة الى بغداد وغيرها من بلاد الشرق ، لاقتباس علوم المشارقة ، ونشرها فى بلاد الأندلس ، كما كانوا

---

(١) وفى هذا العصر ظهر محمد بن هانئ (٣٢٦ — ٣٦٢) وابن دراج القسطلى (٣٤٧ — ٤٢١) والوزير أحمد بن شهيد (٣٨٢ — ٤٢٦) من الشعراء . وأبو على القالى (٢٨٨ — ٣٥٦) ، وأديب الأندلس أحمد بن محمد بن عبـد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨) من الأدباء . ومن الفقهاء عبد الملك بن حبيب السلمى (١٧٤ — ٢٣٨) ، وابن مخلد القرطبى (٢٣١ — ٢٧٦) وغيرهم .

يكافئون العلماء والمؤلفين تنشيطا لهم على الاشتغال بالعلم ، فكثر الإقبال على فنون اللغة والأدب وعلوم الدين . وكان عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر أشد الخلفاء عناية وأشبه بالرشيد وابنه المأمون فى ذلك ، وأخذت قرطبة تنافس بغداد فى جمع الكتب وانشاء المكاتب[1] .

ولما أفل نجم الدولة الأموية اقتسم حكم البلاد جماعة من الأمراء سموا بملوك الطوائف[2] كانت مدة حكمهم من (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) وكان فيهم الشعراء والأدباء فساعدوا على نمو النهضة الأدبية . وكانت العقول قد نضجت وثمار اللغة والأدب قد أينعت . وفسح هؤلاء الملوك صدورهم ومجالسهم للشعراء والأدباء واتخذوا منهم الوزراء والأمراء ، فأخصبت فنون الأدب ، وظهر فى هذا العصر جماعة من الكتاب والشعراء والأدباء صاروا من أئمة الشعر والأدب كالوزير ابن زيدون (٣٩٤ — ٤٤١) ، وابن خفاجة الأندلسى ، والوزير ابن عمار ، والمعتمد بن عباد ملك قرطبة وأشبيليه وغيرهم .

الشعر

كان الشعر مرآة لحياة العربى النفسية والاجتماعية يتغنى به حيثما نزل ، ويذكر فيه ما يمر بخاطره من حب وبغض ، ويرسم فيه صور ما يحيط به من جمال الطبيعة وجلالها وما تلهمه نفسه من معنى وخيال .

---

(١) فكان للحكم دار كتب عظيمة تضارع بيت الحكمة فى بغداد التى أنشأها المأمون ، جمع فيها كثيرا من شتات الكتب وكان يجتمع فيها العلماء والنساخ والوراقون ، فكانت أشبه بمجمع علمى يحتوى على مئات الآلاف من الكتب النادرة فى جميع العلوم والفنون : فى الأدب والتاريخ وعلوم اللغة والعلوم الرياضية والطبيعية وغيرها .

(٢) فقام بأشبيليه محمد بن عباد وأولاده بعده ، وبيطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالأفطس وأولاده بعده وبطليطله اسماعيل بن ذى النون ، وبسرقسطة ابن هود ، وببلنسيه المنصور المفافرى الخ .

ولما نزل بلاد الأندلس نمت هذه الملكة فى نفسه ، لما رآه من جمال تلك البلاد. فكان عقله وخياله يمثلان حياتين : حياة البدو وحياة الحضر. وكان شعره منبعثا من هذين الأثرين، فظهر فيه جمال الفطرة ، ونضارة الحضارة ، وجزالة البداوة ، ورقة الخيال ، والافتنان فى الجد والهزل والمجون ، ووصف النفوس والأهواء . وكان لحضارة تلك البلاد وجمال الطبيعة أعظم أثر فى نفوس الشعراء فوصفوا كل شىء وقع عليه نظرهم وجال بخاطرهم حتى كان ذلك من مميزات الشعر فى الأندلس ومن أظهر خصائصه. فمن أوصافهم الجميلة قول ابن سهيل الاسرائيلى يصف الأصيل :

أنظر إلى لون الأصيل كأنه ... لا شك لون مُوَدِّع لِفراقِ
والشمس تنظر نحوه مُصْفَرَّةً ... قد نُمِّشَتْ خدا من الإشْفَاق
لاقت بحمرتها الخليج فألَّفَا ... خجل الصِّبَا ومدامع العشاق
سقطت أوان غُروبها مُحْمَرَّةً ... كالخمر نَخَّرَتْ من أنامل ساقى

وقال بعض شعرائهم يصف نهراً :

كأنما النهر صَفْحَةٌ كتبت ... أسطرها والنسيم يُنْشِئُها
لما أبانت عن حُسن منظرِها ... مالت عليها الغصون تقرؤها

ووصف بعضهم دائرتين من ورد و ياسمين فقال :

ياحُسْنَها ... دائرةً ... من ياسمين ... كالحُلى
فالورد ... قد ... قابلها ... فى حُلَّةٍ من خَجل
كعاشق ... وحِبِّه ... تغامزا ... بالمُقَل
فأحمر ذا من خَجَل ... وأصفر ذا من وَجَل

ومما ذكره فى وصف انبلاج الصبح مع غريب التشبيه المبتكر قول أبى حفص ابن بُرْد :

وكأنَ الليلَ حين لَوَى ذاهباً والصبحُ قد لاحا
كِلّةٌ سوداءُ أحرقها عامدٌ أسرج مصباحا

ومن ظريف تشبيهاتهم تشبيه الثغر بالأقاح والزهر بالنجوم والخدود بالشقائق كما قال أحد الشعراء فى ساق .

وأغْيَدٍ طَافَ بالكؤوس ضُحًى وحثّها والصَّباحُ قد وضَحَا
والروضُ أهْدَى لنا شقائقَه وآسُه العنبرى قد نَفَحا
قلنا وأين الأقاحُ قال لنا أَودعتُه ثغْرَ من سَقَى القدحا
فظل ساقى المدام يجحد ما قال ، فلما تبسم افتضحا

وقد ذَاع الشعر فى كل طبقات الناس ؛ فكان من الشعراء الخلفاءُ والأمراءُ والوزراءُ والنساءُ والفقهاء والحكماء الذين كانوا ينظمونه فى جميع المعانى والأغراض .

ولَمّا قام مُلْك بنى أمية هناك فَسَحَ الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء فى مجالس الأدب والغناء وأفاضوا عليهم بالأموال ، فاتّخذ الشعراءُ ذلك وسيلةً للتقرب إلى الحكام وكبارِ القوم بمدحهم والتملّق إليهم ، ووَصْفِ مجالسهم وقصورهم ، ومعالِمِ الحضارة حتى كان الشعر صناعة ووسيلةً إلى كسب المال ، وبالغوا فى مدح هؤلاء الخلفاء والأمراء استدرارًا لعطاياهم . فمّا جاء فى المدح قول ابن زيدون يمدح ابن جهور :

كريم عريقٌ فى الكرام وقلّمَا يُرى الفرع إلا مستمَدا من الأصل
يرِفّ على التأميل لألاءُ بشْره كما رَفّ لألاءُ الحُسَام على الصقل
ويَغْنَى عن المدح اكتفاء بسَرْوه غِنَى المُقلة الكَحْلاء عن زينة الكحل

وقال ابن درّاج القُسْطَلى يمدح بعض الأمراء :

فلئن تركتُ الليلَ فوقَ داجيا ... فلقد لَقِيتُ الصبحَ بعدك زاهرا

وحَلَلْت أرضا بُدِّلت حَصْباؤها ... ذهبا يرف لناظِرىَّ وجوهرا

ولِتَعْلم الأملاك أنى بعدها ... ألفَيْتُ كل الصيد فى جوف الفرا

ورمى علىَّ رداءه من دونهم ... ملك تخَيَّرَ للعلا فتخيرا

وحَطَطْتُ رَحلى بين نادَىْ حاتم ... أيام يقرى مُوسرا أو مُعْسرا

ومن المدح الجميل قول ابن هانىء يمدح المعتز :

قد طيَّبَ الأفواهَ طيبُ ثنائه ... من أجل ذا تجدُ الثغورَ عذابا

لبسَ الصباحُ به صباحا مُسْفرا ... وسقت شمائلُه السحابَ سَحابا

قد بات صوبُ المُزْن يسْتَرِقُ الندى ... من كفه فرأيت منه عُجابا

وقال يمدحه بالشجاعة وسداد الرأى :

فإذا بعثت الجيش فهو منيَّةٌ ... وإذا رأيت الرأى فهو قضاء

ومن قول الأعمى التُّطَيلى يمدح بعض الأمراء :

وهل أنا الا عبدُ أنعمُكَ التى ... هى الشّهد إذ كلُّ الموارد صَابُ

وهل شَهِدوا المجدّ الذى أنت سِرّه ... فانك بحر والكرام عُباب

ولمّا ذاع التّرف وانغمس النـاس فى الملاهى والمجون صار الشعر إلى نوع من التسلية وضروب الفنون فى الكلام ووصف العواطف والأهواء والعشق والغرام . وقد أبدعوا فى ذلك أيما ابداع وأتوا بالمعانى الغريبة والأخيلة البديعة فى الغزل والمجون كما قال ابن سَهْل يتغزل :

كأنّنى حين أبغى ... رضاك أبغى الشّبابا

واشتهى منك ذنباً ... أبنى عليه العتابا

حتى إذا كان ذنب   فتحت للعــذر بابا

ظَمِئتُ منك بوعد   فكان وِرْدِى السَّرابا

لا خَاب سُؤْلك أما   سُـؤلى لَديكَ نخابا

ومن الغزل الرقيق قول ابن زَيْدون :

أَنَّى تُضَيّعُ عهــدَك   أم كيفَ تُخْلِف وَعْدَك

وَقــدْ رأتك الأمانى   رِضاً فــلم تتَــعدَّك

يا ليتَ شِعرِى وعندى   ما ليس فى الحب عِندَك

هل طالَ ليلُكَ بَعْدِى   كطول ليلِىَ بعْــدَك

سَلْنِى حيــاتى أَهَبْهَا   فلستُ أملك رَدَّك

الدهر عبــدِىَ لمــا   أصبحتُ فى الحب عبدكَ

وقال أيضا فى هــذا المعنى وهو يئن من غرامه ويبث آلامه ويتمثل أمامه جمال محبوبته فيهيج ما هو كامن فى نفسه :

متى أُنَبِّيك مَا بِى   يا رَاحَتِى وَعَذابى

متى ينوبُ لِسانى   فى شرحِهِ عن كِتّابى

اللهُ يعــلمُ أَنّى   أصبحتُ فيك كَمَا بى

فمــا يَلَذُّ منامى   ولا يسُــوغُ شرابى

يا فِتنــةَ المتعَزِّى   وحُجــةَ المتُصَــابى

الشمسُ أنتِ توارت   عن ناظرى بالحجــاب

ما النُورُ شَفَّ سَنَاه   على رقيق السحابِ

إلا كوجهِك لمــاّ   أضاء تحْتَ النِّقَاب

وكان شعر الأندلسيين زيادة عما فيه من الكلام فى هذه الموضوعات النفسية من حب وغرام ، يشتمل على كثير من بث الشكوى والآلام والموعظة والعبرة، بنفس هـذا الأسلوب الرقيق والعبارات الشائقة والتفنن فى التعبير . فمما جاء فى الشكوى وبث الحزن قول المعتمد بن عباد وهو سجين :

لمّا تماسكت الدموعُ … وتنهنه القلبُ الصديعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ … فليبدُ منكَ لهم خضوعُ
وألذُّ من طعم الخضو … ع على فمى السمُّ النقيعُ
إن تستلب عنى الدنا . ملكى وتسلمنى الجموعُ
فالقلبُ بين ضلوعه … لم تُسلِم القلبَ الضلوعُ
لم أستلبْ شرفَ الطبا … ع أيُسلَبُ الشرف الرفيعُ
قد رُمتُ يوم نزالهم … ألا تحصّنَنى الدروعُ
وبذلتُ نفسى كى تسيـ … ـل إذا يسيلَ بها النجيع
أجَلِى تأخر لم يكن … بهواى ذُلّى والخشوع
شِيَمُ الأُلَى أنَا منهـمُ … والأصلُ تتبعه الفروع

ومما جاء فى العظة قول ابن هانئ :

إنّا وفى آمال أنفسنا … طُولٌ وفى أعمارنا قِصَرُ
لنَرَى بأعيننا مَصارِعَنَا … لو كانتِ الألبابُ تعتبرُ
أىُّ الحياةِ ألذُّ عيشتَها … من بعد عِلمى أننى بَشَرُ
خرِسَتْ لعَمرُ الله ألسُنُنا … لمّا تكلم فوقنا القدرُ

وقال عيسى بن عبد الملك بن قزمان يشكو الإخوان وتقلبهم مع الأزمان :

كم من حبيب كان لى قرة ... مقرَّب الوُد لطيف المكان

يُرَى على الأعداء فيما يُرى ... كالصّارِم الهِندى أو كالسِّنَان

حتى اذا الدهر نبا نَبْوةً ... حال فحلّنا بانقلاب الزمان

وقال أبو العباس التُّطيْلى فى هذا المعنى :

والناس كالناس إلا أنْ تُجرِّبهم ... وللبصيرة حكم ليس للبَصر

فالأَيْكُ مُشْتَبِهَات فى منابتها ... وإنما يقع التفضيل فى الثّمرِ

ومما قيل فى العظة والعبرة قول أحمد بن عبد ربه :

ألا إنما الدنيا غَضَارَةُ أَيْكَةٍ ... إذا آخضر منها جانبٌ جفّ جانبُ

هى الدار، ما الامال إلا فجائعٌ ... عليها ولا اللذاتُ إلا مَصَائبُ

فكم سَخِنَتْ بالأمس عينٌ قَرِيرَةٌ ... وقرتْ عيونٌ دمعُها اليوم سَاكِبُ

فلا تَكْتَحِل عيناك منها بِعَبْرَةٍ ... على ذاهِبٍ منها فانك ذاهبُ

وهكذا كان لشعراء الأنداس مجال واسع فى جميع أغراض الشعر التى كانت شائعة فى بلاد المشرق، حتى برعوا فى كل تلك الأغراض المعروفة هناك وتفننوا فى إبراز معانيها فى قالب فنى جميل وعبارة بليغة، وعمَد الشعراء أيضا فى صناعاتهم إلى محاكاة أهل المشرق، كما رجعوا اليهم فى اقتباس موضوعاتهم ومعانيهم .

فكانت أساليبهم مرصّعة بأنواع المحسّنات البديعيةَ وضروب الاستعارة والمجاز حتى لاتكاد تخلو عبارة من عباراتهم من ذلك . كما برعوا فى الوصف وابتكروا كثيرا من الأخيلة . وكانت عباراتهم خيالية ، بعضها متكاف . ومما أحدثوه

من جديد فى الشعر، ذلك النوع الذى يسمى بالموشحات؛ وهو قصائد لا يُلْتَزَم فيها قافية واحدة ولا وزن واحد ، وقد تكون أحيانا جارية على غير أساليب العرب فى الوزن لا فى التزام القافية؛ كموشحة لسان الدين بن الخطيب الشهيرة التى أولها .

جَادَكَ الغيثُ إذ الغيث هَمَى يازمانَ الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُمَا فى الكَرَى أو خُلْسَةَ المختلِس

وكموشحة ابن سهل الشهيرة . ومثال مايلتزم فيه وزن عربى ، موشحة ابن زَمْرك التى مطلعها :

فى كئوس الثغر من ذاك اللَّعس راحةُ الأرواح
وتَفَشّىً الروضُ مِسكىّ النَّفَس عَاطِرَ الأرْواح
وكسا الأرواحَ وَشْياً مُذْهباً يَبْهَرُ الشمسا
عَسْجَد قد حلّ من فوقَ الرُّبا يُبْهِج النفسا

وجملة القول أن الأندلسيين طرقوا جميع موضوعات الشعر التى كانت معروفة فى بلاد المشرق ، وحاكوا شعراء المشارقة فى أساليبهم وطرق الخيال والتفكير ، واتخذوهم أئمة لهم فى ذلك، ولم يزيدوا عنهم شيئا سوى ما ابتكروه من الأوصاف الجميلة ، والعبارات الرشيقة والإمعان فى ذلك ، والمغالاة فى الصناعة اللفظية ، ولكنهم لم يبلغوا شأوهم فى طرق المعانى الاجتماعية والفلسفية وأساليب التفكير العميقة؛ فلم يكن بينهم من يضارع المتنبى أو المعرى فى هذا ، ولم يبتكروا شيئا من أنواع الشعر سوى ماحدث فى الموشحات والأوزان التى لم تكن معروفة .

ابن خفاجة

مولده ونشأته :

ولد أبو إسحق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هجرية ببلدة شُقْر وتوفى بها سنة ٥٣٣ هـ فعاش فى أواخر عصر بنى أمية وزمن ملوك الطوائف ، وإبان دولة المرابطين .

وهذه العصور أزهى عصور الأندلس ، وكانت الحياة حياة ترف ورخاء ، وتبع هذا الترف الميل إلى اللهو والمجون وأنواع السرور ، وتغلبت هـذه الحال على عقول الأدباء والشعراء ؛ فكان الشعر ضربا من التفكه ، وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان فى النفس حب الجمال ، وسعة الخيال ، وقد كان لابن خفاجة حظ وافر فى مناجاة الطبيعة وجمالها ؛ لأن بلدته التى عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنها بهاء .

شعره وأثر الطبيعة فى نفسه وصفاته العـامة :

انقطع ابن خفاجة للنظر فى جمال الطبيعـة فكان كثير التأمل فى المشاهدات ، وكانت نظراته تقود عقـله ، وترسم له طرق التفـكير وأنواع الخيال ، فكانت كل معلوماته وأخيلته من طريق النظر والتأمل فى جمال الألوان وتناسق الأشياء . وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير ؛ فلم يميز من الأشياء التى يراها الا ما يتفق مع صفاته النفسية ؛ فكان دائما فرحاً مسروراً ، لا تكاد تجده يصف منظرا محزنا أو شيئا قبيحا ؛ أو نفسا منقبضة أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها إلا فى آخر حياته ، فكان شعره صورة لنفسه المملوءة بالسرور والإعجاب بالجمال ؛ وكانت نفسه مطمئنة هادئة ميالة الى اللهو والمجون . فكان شعره أيضا به هذا الاطمئنان النفسى ، والهدوء الفكرى ، والمجانة الخلقية ؛ لأنه كان يريد أن يعيش فى نوع من الأحلام اللذيذة . لذلك كان أثر هذه الحياة عظيما فى نفسه ، فولدت فيها كثيرا من

المعانى الشعرية ، واندفع إلى تصويرها ، و إلى التعبير عنها بما فطر عليه من دقة الإدراك . فكان الجمال مثار شعره ، ومبعث خياله وافتنانه ، يتتبع روائعه ويخرج الى البساتين ليسمع خرير الماء ، ولينعم بمشاهدة جريانه و يصف ذلك فى شعره ، ويجارى الشعراء أحيانا فى أوصافهم .

أنواع شعره — معانيه — صناعته

يشتمل شعر ابن خفاجة على المدح، والعتاب، والرثاء ، والشكوى ، والوصف والمداعبات . ولكن أجود شعره فى الوصف ، فان الخيال هو كل شىء فى شعره ، لكنه خيال يدعو إلى حب الجمال، ورقة الشعور ، ويهذب الذوق ، ويملأ القلب بهجة وسرورا ، لأن ابن خفاجة مصوّر ماهر ، ووصاف مبدع للمشاهدات ، وقد امتلأت نفسه بذلك حتى فى المدح والرثاء ، فتجده إذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب ، وأن الصباح ضحك فكشف عن ثناياه البيض ، وأن ممدوحه وضّاح المحيا وأنك :

تَشيمُ بصفحتيه بروقَ بِشر تُعيد بشاشة الروض الجديد

ويقول :

وقد ضحك الصباحُ بمُجْتَلاه وراء الليل عن ثغر شَنيب
أشيمُ به سنا برق يمان يُحفّزُنى إلى المرعى الخصيب

فاذا رثى لا يغيب عنه الوصف حتى فى موقف البكاء ، لأنه يمزج بكاءه بوصفه الجميل وبما فى نفسه من المعانى التى ملكت منه كل شىء فيقول :

فى كل نَادٍ منكَ روضُ ثَناء وبكل خدٍّ فيكَ جَدولُ ماء
وَلكل شخص هِزّةُ الغصن الندى غِب البكاء ورنة المُكّاء

وهو فى ذلك يشبه الدموع السائلة على الخدود بجداول الماء ، ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم ، بهزة الغصن الذى غمرته السماء بالماء ويشبه أنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قُبَّرة تصفر وتنوح .

وأكثر قصائده مبدوء بالوصف .

أما فى أسلوبه فهو كثير التصنع لإمعانه فى تتبع أنواع البديع والبيان، حتى لا يكاد يجد القارئ شيئا من كلامه إلا استعارة أو مجازا أو تشبيها ؛ وقد يدعو ذلك أحيانا إلى استغلاق المعنى . ولكن شعره فى جملته يعتبر معجما لألفاظ مختارة وعبارات جميلة ، وتشبيهات بديعة ومعرضا لكل أنواع الصناعة اللفظية . وقد اشتهر بقوة الخيال وسلامة العبارة مع ميله أحيانا إلى ذكر المعانى الخفية والألفاظ الغريبة والمبالغة فى تشبيهاته .

ابن هانىء

حياته ونشأته :

هو محمد بن هانىء الأندلسى الأَزدى . كان أبوه هانىء شاعرا أديبا من قرية المهدية بأفريقية ، فهاجر طلبا للرزق إلى بلاد الأندلس ، ونزل بأشبيليّة ، وهناك ولد له ابنه محمد سنة ٣٢٦ هـ ونشأ وتربى بها ، فورث عن أبيه الميل إلى الشعر ، وما زال يُعالج هـذه الصناعة حتى صار شاعرا ، واشتهر بين الشعراء ، فاتصل بحاكم أشبيلية ولازمه ، ثم عرف بأنه من أصحاب الآراء والعقائد الدينية الممقوتة وأهل الفلسفة؛ فاتهم فى دينه وساءت المقالة فى حق الحاكم بسببه ، فطُلب إليه المغادرة من المدينة حتى ينسى الناس أمره . فغادر إشبيلية . ورحل إلى بلاد المغرب ، فأكرم قوّاد المعزّ وولاته وفادته ، واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله الفاطمى ، ثم وصله المعز فقربه إليه وأحبه ، وطلب إليه أن يلازمه واتخذه شاعره . ولما سافر المعز إلى مصر خرج معه ابن هانىء

مشيّعا ، ثم استأذنه فى الرجوع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق به ، فرجع ثم رحل إلى مصر فنزل فى طريقه ببرقة ، وسكر فى دار أحد أصحابه فثاروا عليه وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٣٦٢ ، فلما بلغ المعز أمرُه حزن عليه حُزنا شديدا وقال : " كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقدّر لنا ذلك ".

شعره :

أكثر شعر ابن هانىء فى المدح ، لأن ذلك كان الغرض الأول من شعره . وقد مدح المعز لدين الله الفاطمى ، فكان شاعره وشاعر دولته ، ومدح غيره من الأمراء ، وله قصائد فى الرثاء والهجاء والوصف ، ولكنها أقل شعره شهرة وذيوعاً غير أن هـذه القصائد الطويلة فى مدح الأمراء اشتملت على جميع أغراض الشعر من مدح وهجاء وحماسة ونسيب ووصف ، جاء كل ذلك مُنبثًّا فى أثناء كلامه . فليس هو مدّاحًا لا غير ، وإنما هو شاعر طرق جميع أنواع الشعر وأجاد فيها . وأكثر هذه الأغراض الغزل والوصف والمدح .

أما الغزل فقد جاء فيه بأرق المعانى وأخفها على النفس ، وهو إن كرر ما ذكر فى شعر غيره من المعانى المعروفة ، كمواقف الوداع وهول الجفاء والفراق والشكوى والرجاء والأرق والبكاء ، وبؤس المحب فى بعده عن حبيبه ، وذكر طيف الخيال ، وتشبيه من أحب بالمها والظباء والغصون ، وذكر أثر ألحاظهم وفتكاتها ، إلى مثل هذه المعانى المعروفة ، فإنه يمتاز بحسن صوغ تلك المعانى ونظمها فى أسلوب خلاب وعبارات بليغة ، كلها أو جلها من باب الاستعارة المستملَحة والتشبيه البديع ، مما جعل لهذه المعانى صبغَة خاصة كأنها جديدة فى نوعها ، وكان إذا وصف بحث عن المعانى التى تساعده على تصوير ما يريد من الأخيلة ، فكان لا يعمد إلى وصف حقيقة من الحقائق حتى يلتجئ إلى الخيال .

وإذا مدح الأمراء مدحهم بالشجاعة ، ووصفهم بالكرم والسخاء مع كثير من المبالغة ، لأنه لم يكن يتوخى الحقائق فى كلامه ، إذ كان يقصد إلى رفع شأن ممدوحه أيّاً كان ، ويجعله أفضل الناس . فكان ذلك يدفعه إلى أن يصف الرجل بما ليس فيه ، وكأنه جمع صفات الكمال وحده ، ويجعله كل شىء فى الوجود فيقول :

هو عِلّةُ الدنيا ومن خُلقتْ له ولِعلّةٍ مّا كانتِ الأشياءُ

ليست سماء الله ما ترونَها لكنْ أرضًا تحتويه سماء

نزلتْ ملائكةُ السماء بنصره وأطاعهُ الإصباحُ والإمساء

وهذه المبالغات من عيوب شعره . على أن مدائحه مملوءة بكثير من المعانى الجميلة الممتعة ، وتمتاز بطولها وسَعة خيال الشاعر : وهو فى كثير من نواحى شعره موضع الإعجاب ومظهر البلاغة حتى عد من الشعراء المبتكرين وعرف بالتصرف فى المعانى (١)

أما أسلوبه فيميل الى التفخيم والتهويل ، غير أنه يحسب من الأساليب السهلة ، وكثيرا ما يتعمد الصنعة فيأتى بالطِّباق أو الجناس أو الاستعارة الغريبة ويَسْتعين بصناعته على إبراز معانيه وتجميلها ، إذ أكثر معانيه معروف فى أشعار غيره . ويميل إلى نوع من الغرابة والتكلف فى الصناعة حتى حسبه بعض النقاد من بين الشعراء الذين يبهرون القراء بقعقعة ألفاظهم .

النثر الفنى

لم يكن للنثر الفنى مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين فى الأندلس . لأن مجال الحالة السياسية والاجتماعية لم تكن استقرت بعد ، فلم يكن هناك ما يساعد على نمو ملكة الكتابة فى الموضوعات الاجتماعية أو الخيالية الفنية . فاقتصر النثر فى القرن الأول من دخول العرب فى الأندلس على ما تقتضيه الحال من الخطب والرسائل السياسية والإدارية ، لبَثّ الحماسة فى نفوس الجند ، وضبط أمور البلاد ، مما كان

(١) راجع المنتخب .

يلقيه الولاة ويكتبه الأمراء أو الخلفاء للعمال وغيرهم . وكان كل ذلك تمليه الرغبة في تأييد الملك ويسوده الروح العربي الذي كان يسيطر على العقول في دمشق مدة الأمويين . فكانت الكتابة إذ ذاك عربية في موضوعاتها وفي أساليبها وعباراتها الجزلة الرصينة ، خالية من الصنعة والتكلف. فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده وقد هجره :

" أمَا كان جَزائي في قَطع البحرِ وجوْب القفر ، والإقدام على تَشْتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غيرَ الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي ، وأشمت بي أعدائي ، وأضعف أمرى ونَهْيي عند من يلوذ بي ، وبَتَر مطامع من كان يُكرمني ويخدمني على الطمع والرجاء ، وأظن أن أعداءنا بني العباس لو حصلتُ بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا ، فانا لله وإنا إليه راجعون " .

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقَّع عليها :

"وقفتُ على رُقعتك المُنبِئة عن جهلك ، وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم مُعتَقَدك . والعجب أنك متى أردت أن تبني لنا مَتَاتاً ، أتيت بما يهدم كل مَتات مشيد بما تمن به ، مما قد أضجر الأسماع تكرارُه ، وقدحت في النفوس إعادتُه مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مَالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك وهِضْنا جَناح إذلالك . فلعل ذلك يقمع منك ، ويُرْدِعُك ، حتى نبلغَ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد ، إذ شرك مكتوب في مَثالبنا ، وخيرك معدود في مناقبنا "

وكتب المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى أبيه يستعطفه ، وكان قد نفاه إلى مكان موحش ، لسوء خلقه وكثرة إصغائه للوشاة .

" إني قد توحشتُ في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وعدمت فيه من آنَسُ إليه ، وأصبحتُ مسلوبَ العز ، فقيرَ الأمر والنَّهيِ ، فإن كان ذلك

لذنب كبير ارتكبته ، وعلمه مولاى ولم أعلمه ، فإنى صابر على تأديبه ضارع إليه فى عفوه وصفحه .

وإن أمير المؤمنين وفعلَه . لكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهر"

* * *

فلما اتسع حال الدولة فى السياسة والاجتماع ،وساد البلادَ التَّرفُ وذاعت فيها الفنون من علوم وآداب ، انفسح المجال للكتابة الفنية فشملت كثيرا من الموضوعات التى كانت معروفة فى بلاد المشرق ، وابتكر الأندلسيون فيها بعض موضوعات لم تكن شائعة هناك. فكانت كتاباتهم تشتمل على مدْح الخلفاء،وعلى التهنئة والعتاب والشوق والتعازى،والوصف بجميع أنواعه،كوصف المجالس والمحافل ولا سيَّما مجالس اللهو والطرب والغناء ، ووصف الزهور والرياض والمياه والأنهار والكواكب والأفلاك . كقول ابن برد الأصغر الكاتب الأديب يصف يوما مطيرا :

اليومَ يومٌ بكت أمطارُه وضحكت أزهاره ، وتَقنَّعت شمسه ، وتعطر نسيمه . وسُلافتنا سلافة أخْدَان ، وسلافة دنان . قد تَشاركْنا فى الطباع وازْدَوَجْنا فى إثارة السرور . فأخرق الينا سُرادق الدُّجى . تجده مَرْأًى لا يحسن إلا لك ولا يتم إلا بك. الزيارة بالليل أخفى، و بالزائر والمَزُور أحْفَى ، وقد سُدل حجابُه ووقع قرابه وتبرقعت نجومه بغيومه ،وتلفَّعت كواكبه بسحائبه، فاهتِك إلينا سِترا ، وخُض إلينا بَحْرا : وكتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

" انتظم من إخوانك أعزك الله عِقْد شَرْب يتسابقون فى وُدك ، ويُعَاطون رَيْحَانةَ شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شَرِهُ المسَامع الى رنة حمامةِ نَاد ، لا حمامةِ بطنِ واد ، والطَّوْل لك فى صلتنا بجماد ناطق ، قد استعار من بنانٍ لسانا ، وصار لِضمير صاحبه تَرجُمانا ، وهو على الإساءة والإحسان لا ينفكّ من إيقاع به فى غير إيجاع به ، فإن هفا عُرِكَتْ أذنُه وأُدِّب . وإن تأنى واستوى بُعِج بطنُهُ وضُرِب ، لا زلت منتظم الجَذَل ، ملتئم الأمل " .

وكوصف ابن جفاجة الأندلسى متنزّها وهو من الكتابة الصناعية المنمقة المملوءة بالألفاظ المختارة والتشبيهات الكثيرة .

"ذهبتُ فى لُمَةٍ من الإخوان، نستبق إلى الراحة رَكْضًا ، ونطوى للتفرج أرضا فلا ندفعُ إلا إلى غَديرٍ نَمِيرٍ ، قد استدارت منه فى كل قَرارَة سماء ، سحائبها غماء، وانساب فى كل تَلْعَة حُباب ، جلده حَبَاب ، فترددنا بتلك الأبَاطِح نتَهادى تَهادِى أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم أثناءَ ذلك المنظَرِ الوسيمِ ، ترامُلُ مَشى ، على بِساطِ وَشْىٍ . فإذا مر بغديرٍ نسجه درْعا ، وأحكمه صُنْعا، وإن عثر بجدول شَطّب منه نَصْلا ، وأخلصه صَقْلا ؛ فلا ترى إلا بطَاحا مملوءة سلاحا ؛ كأنما انهزمت هنالك كَتائبُ فألقَتْ بما لبسته من درعٍ مَصْقول، وسيف مَسْلول ، فاحتَلَلْنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سُنْدُسية رُواق الأوراق . وما زلنا نَلْتَحِف منها بِبُرد ظلٍّ ظليل ، ونَشتمل عليه بِرداء نسيمٍ عليل ، ونُجيل النظرَ فى نهر صقيلٍ ، صافى لُجَيْن الماءِ كأنه مجَرّةُ سماء ، مُؤْتلِق جوهرِ الحَبَاب ، كأنه من ثُغور الأحباب . وقد حضرَنَا مُسْمِعٌ يجرى مع النفوس لَطَافة ، فهو يعلمُ غرضَها وهَواهَا ويُغَنِّى لها مُقْتَرَحها ومُنَاهَا ، فَصيحُ لسان النَّقْر ، كأنه كاتب حاسب ، تَمْشُق يُمناه وتَعْقد يُسراه ، يُحرِّك حين يَشْدُو سَاكِنَات ويبعَثُ الطبائع للسكون» .

وتَفَنّن الكتّاب فى كتابة الرسائل الأدبية الطويلة ، كالقصص والحكايات والمناظرات الخيالية ، كالمناظرات بين بُلْدان الأندلس وبين السيف والقلم . فمن مناظرات البلدان قول غرناطة :

"لِى المَعْقِلُ الذى يمتنع ساكنُه من النجوم ، ولا تَجرِى إلا تحته جيادُ الغيث السُّجوم ، فلا يَلْحَقُنى من مُعاند ضَررٌ ولا حَيْف ، ولا يهتدى إلى خيال طارِق ولَا طَيْف ، فاستسلموا قولا وفعلا ، فقد افلحَ اليوم من استعلى . لى بِطَاح تَقَلّدتْ من جَداولها أسلاكا ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ، ومياه تَسيل

على أعطافى كأدمع العُشّاق ، وبَرْدُ النسيم يُرَدّد ماء المُستجير بالاستنشاق ، فحُسْنى لا يُطْمَع فيه ولا يُختال ، فدعونى فكل ذات ذَيْل تختال " .

ويقولَ الأدباء : إن هذا النوع من مُبْتكَرات كُتّاب الأندلس . وكما كتبوا فى الموضوعات الخيالية كتبوا فى الزهد والتقوى والتصوّف والتوسل إلى الله وإلى الرسول . كل ذلك بعبارات مُنمَّـقة ، وأحيانا متكلّفة يسودها الخيال . لذلك كانت كل كتاباتهم حافلة بأنواع المجاز من استعارة وتشبيه ، مما لا تكاد تخلو جملة منه ؛ حتى كانت هذه الصناعة اللفظية لديهم أول ما يقصدون إليه من أغراض الكتابة الفنية ، ويوجهون إليه هممهم . وكان السجع أظهر ضروب الصناعة النثرية فى كلامهم . وقد كان هذا الأسلوب الفَنّى فى جملته أرق الأساليب وأجملها فى تلك الأيام ، حين كانت بلاد المشرق تفخر بكتابة ابن العميد ، والهمذانى ، والخوارَزمى والحريرى ومن جاراهم . وبقيت الكتابة الفَنيّة سائرة على هذا النهج الصناعى الى أن خرج العرب من الأندلس . على ما كان فيها من التفاوت قوة وضعفا على حسب تداول الدول التى انتابت حكم هذه البلاد . ومن ذلك رسالة ابن زيدون الجـدية المعروفة التى افتتحها بقوله يُخاطب ابن جَهْور :

" يا مولاىَ وسيدى الذى ودادى لَه ، واعتمادى عليه ، واعتـدادى به ، وامْتدادى منه ، ومَنْ أبقاهُ اللهُ ماضىَ حَدِّ العَزْم ، وَارِىَ زَنْد الأمَل ، ثابتَ عهد النِّعمة . إن سَلَبْتَنى أعزَّك الله لباسَ نَعْمائك ، وعَطَّلْتَنى من حُلى إيناسك ، وأظْمَأتنى إلى بُرود إسعافك ، ونَفَضْتَ بى كَفَّ حِياطَتك ، وغَضَضْتَ عنى طَرْفَ حِمايَتك ، بعـد أن نظر الأعمى إلى تأْميلى لَك ، وسَمعَ الأصمّ ثنائى عليك ، وأحسَّ الجمادُ استحمادى إليك ، فلا غَرْوَ قد يَغُصّ المـاءُ شاربه ، ويقتل الدواءُ المستشفِى به ، ويُؤْتَى الحَذِرُ من مأْمنه ، وتكونُ منيةُ المُتمَنّى فى أُمْنيّته ، والحَيْنُ قد يَسْبق جُهْد الحريص .

كل المصائب قد تمـرّ على الفتَى ... وتهونُ غيرَ شمـاتة الأعداءِ

وإنى لأتجلد، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا إلا يدٌ أدماها سوارها، وجبين دَض به إكليله، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله، وسمهرى عرضه على النار مثقفه، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازما   فليقس أحيانا على من يرحمُ

هذا العتبُ محمود عواقبه وهذه النبوة غمرةٌ ثم تنجلى، وهذه النكبة سحابةُ صيف عن قريب تقشع، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سَيبُه أو تأخر غير ضنين غناؤه فأنفعُ الحيا ما صادف جدْبا، وألذ الشراب ما أصاب غليلا.

وأعودُ فأقول. ما هذا الذنبُ الذى لم يسعه عفوك، والجهلُ الذى لم يأت من وراثة حلمك، والتطاوُل الذى لم يستغرقه تطوُّلك، والتحامُل الذى لم يَفِ به احتمالك . . . ؟

ولعمرُك إن صريح الرأى أن أتحوّل إذا بلغتنى الشمسُ أو نَبَا بى المنزل، وأصفحَ عن المطامع التى تُقطّعُ أعناق الرجال... ... غير أن الوطنَ محبوب والمنشأ مألوف، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه، حنينَ النجيب إلى عطنه، والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابله، ولا ينسى بلدا فيها مراضعه، هذا إلى مُغالاتى بعقد جوارك ومنافستى بلحظة من قربك ... ... الخ.

وقال لسان الدين بن الخطيب فى ترجمة بعض مشايخه:

صَدر (١) الصدور الجلة (٢) وعلم أعلام هذه الملة، وشيخ الكتابة وبانيها وهاصرُ أفنان (٣) البدائع وجانيها اعتمدته الرياسة فناء بها (٤) على حبل ذراعه واستعانت

---

(١) الصدر مقدم كل شىء يريد أنه أول المقدمين.

(٢) يقال قوم جلة أى سادة.

(٣) هصر الغصن عطفه وجذبه، والأفنان مفردها فنن وهو الغصن المستقيم.

(٤) نهض بها.

به السياسةُ فدارت أفلاكها على قُطب من شَبَاة يَراعهْ [٥] قَتَفيّأ [٦] للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدولُ فلم ترَ به بديلا ...... لا تمر مذاكرة فى فن ، إلا وله فيه التبريز ، ولا تَعرض جواهرُ الكلام على محاك الأفهام إلا وكلامه الإبْريز [٧] حتى أصبح الدهرُ رَاوِيا لإحسانه ، وناطقا بلسانه . وغَرّب ذكره وشَرَّق ، وأشأم وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق [٨] . إلى نَفْس هذَّبت الآدابُ شمائلَها ، وجادت الرياضةُ خَمَائِلها [٩] ومراقبةٍ لربه ، واستنشاق لروح الله من مَهَبّه ، ودين لا يُعْجَم عودُهُ [١٠] ولا تُخْلَف وُعودُه . وكل ما ظهر علينا مَعْشَر بنيه من شَارةٍ تُجْلَى بها العين ، أو إشارة كما سُبك اللُّجين [١١] . فهى إليه مَنْسوبة ، وفى حسناته مَحْسُوبة ، فإنما هى أنفُسٌ راضها [١٢] بآدابه ، وأعْلَقها بأهدابه ، وهذّب طباعها ، كالشمس تُلْقِي على النجوم شُعاعَها ، والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصَّقيلة انطباعَها . وما عَسى أن أقول فى إمام الأئمة . ونور الدَّيَاجى [١٣] المُدلَهِمّة ، وفى المثل السائر فى بُعْد الصِّيت وعُلُوّ الهمة .

---

(٥) الشباة حد كل شيء . والمراد باليراع القلم .

(٦) استظل وتتبع ظلال الشجر .

(٧) الذهب الخالص .

(٨) يريد أن ذكره طبق الآفاق .

(٩) جمع خميلة وهى الشجر الكثير الملتف .

(١٠) عجم العود عضه ليعلم صلابته من رخاوته يريد أنه شديد الإيمان .

(١١) الفضة .

(١٢) ذللها .

(١٣) الدياجى الظلمات .

وقال من مقامة له تسمى مقامة البُلدان ، يصف مدينة مِكْنَاسة :

" مِكْنَاسة مدينةٌ أصيلة ، وشُعَب للمحاسن وفضيلة . فضلها الله تعالى ورعاها وأخرج منها ماءها ومرعاها . بجنابها مَرِيع [١] وخيرها سريع ، اعتدل فيها الزمان وانْسَدَل الأمان ، وفاقت الفواكهَ فواكِهُهَا ولَا سيما الرُّمانُ ، وحفظ أقواتَها الاختزان ولطُفَت فيها الأوانى والكيزان [٢] . ودنا من الحضْرة [٣] جوارها فكثر قُصَّادُها من الوزراء وزوارها . وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها [٤] الأبهة والمقاصير والأَبْهاء ... ... "

ابن زيدون

أبو الوليد أحمدُ بنُ عبد الله المخزوميّ الأندلسيُّ القرطبي الشهير بابن زيدون أحد شعراء الأندلس وكتابها المشهورين ، ووزرائها الأدباء المعروفين بفُنون الكتابة والشعر . ولد بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤ هـ ونشأ بها . وكان أبوه من كبار قُضَاتها وأدبائها وعلمائها ، فأخذ ابنه العلمَ عن علماء قرطبة وأشهر رجال الأدب بها . وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسِّيَر والأمثال والحِكَم ومسائل اللغة ومباحثها .

وكان ابن زيدون من أشياع أبى الحزْم جَهْوَر بن محمد الذى آل إليه ملك قرطبة ، فعمل على تأييد ملكه . وخدم بعده أبا الوليد محمد بن جهور فقربه إليه وفوَّض إليه أمر الملك . فأصبح صاحب مَشُورته . فحسدهُ منافسوهُ ، ووشوْا به لدى ابن جهور . وخوَّفوه عاقبة أمْره . فأمر بسجنه فبقى سجينا زمنا طويلا

---

(١) مخصب .

(٢) جمع كوز وهو كالإبريق ولكنه أصغر منه .

(٣) المراد بها مدينة فاس كرسى الخلافة . وكان أهل المغرب يعبرون بالحضرة عن المدينة التى يقيم بها الخليفة .

(٤) المدينة العظيمة ويراد بها هنا مدينة مكناسة .

استعطف فيه ابن جهور بما يُلين الحديدَ فلم يَفُز بعفوه . ففرّ من السجن واختفى بقرطبة إلى أن شَفَع له الوليد بن جهور لدى أبيه محمد .

ولكن ابن زيدونَ لم يأمن بنى جَهْوَر على نفسه فَهَاجر إلى اشبيليّةَ واتصل بالمُعْتَمِد بن عبَّاد ملكها وصار وزيرا له . وبقى هناك إلى أن مات سنة ٤٤١ هـ .

نثر ابن زيدون :

كانت ثقافة بن زيدون ثقافة أدبيـة . فقد شب على القراءة والدرس ، وحفظ كثيرا من مسائل الأدب ، وكان متوقد الذاكرة فامتلأت نفسه بالمعانى التى قرأها ، وأسماء النـاس الذين عرفهم فى قراءته وكثيرٍ من الأمثال والحكم والأبيات التى جرت مجرى الأمثال ، ثم كانت الزعامـة للأدب فى المشرق وقد ظهر ابن العَميد ومن على طريقته فى الكتابة ، فأُعْجِبَ ابنُ زيدون بهذا الأسلوب الأنيق ، كغيره من الكتّاب الذين بالغوا فى اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر المنثور . وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد . فكان من كتّاب الدواوين . واشتهر فى الكتابة الفنية الأدبية برسالتيهِ الجدية والهزلية . كتب الأولى وهو فى السجن يستعطف فيها ابنَ جهور . وكتب الثانية عن لسان وَلّادَةَ بنتِ المُستكفى للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صِلتهـا به .

وأخص ما فى رسائله امتلاؤها بعباراته المقتبسة ، من الحكم والأمثال والأشعار والحوادث التاريخية وأسماء الرجال المشهورين من الحكماء والأدباء والعلماء ، وكل ذلك جاء منبثا فى نظم كلامه فى شىء من التناسق والتآلف . وليست الصنـاعة اللفظية هى كل مافى رسائله بل فيها صورة من صور نفسه المضطربة الهائجة المتهكمة الفخورة الثائرة على الناس والحياة .

شعره :

وكان ابن زيدون شاعرًا وناثرًا معا . وله خصائص فى الشعر كما له خصائص فى النثر. ولكنه شاعرًا أعظم منـه ناثراً ؛ لتصرفه فى فنون الشعر وامتيازه فى كثير من نواحيه .

وقد نشأت بينه وبين ولادة بنت المستكفى مودة، كانت مَنْبعاً من منابع شعره ووسيلة من وسائل إلهاماته الفنية . وهى التى ولَّدَت فى نفسه هذا النوع من البؤس والاضطراب اللذين يشاهدان فى كثير من نواحى نظمه ونثره ، كما أن الحوادث التى نزلت به كانت سببا فيما حل به من شقاء، فساعدته على الكتّابة والشعر فى العتب والذم والاستعطاف والهجاء . وأملت عليه رسالتيه الجِدِّية والهَزْليـة الفريدتين فى أسلوبهما .

أما شعره فـلم يكن ضربا من التقليد والمحـاكاة ، بل كان ناشئـًا من نمو ملكة الشعر فى نفسه ، ومن رغبته فى التعبير عن كل مايشعر به ، وعمـا له صلة بحياته الخاصة . ولم تَلبَث الحوادثُ التى نزلت به والأيام التى قضاها فى السجن أنْ هاجت من نفسه وولَدت فيها تلك المعانى التى ذكرها . فكان شعره صفحة من حياته النفسية وصورة لمـا كان يجول بها من آلام وأحزان وحب وغرام . وكثيرا ماتقرأ شعره فترى فكره المضطرب ونفسه الوثابة الحائرة، وتكاد تلمس كبره وخُيَلاءه وسخطه على أعدائه ، وتجلده وصبره ، وهو يشكو ويئن من بلواه . كما فى قصيدته التى يقول فيها :

مَاعلى ظَنى باسٌ يجرح الدهر وياسو

ربمـا أشرقَ بالمر ء على الآمال ياسُ [1]

---

(١) راجع المنتخب .

وكثيرا ما كان يفخر بفضله و يربأ بنفسه عن أن يكون ألعوبة فى يد الحوادث ويرى أن سبب ذلك حقد أعدائه عليه ، لما اتصف به من فضل وعلم . وكثير من شعره فى هذا المعنى كقوله :

لايُهنِء الشامتَ المرتاحَ خاطرُه	أنى مُعَنَّى الأمانى ضائع الخطَر
هَل الرياحُ بنَجْم الأرض عاصفةٌ	أمِ الكُسوفُ لغَير الشمس والقمر
إن طالَ فى السجن إيداعى فلا عَجَبٌ	قد يُودَعُ الجَفن حدُّ الصارمِ الذَّكَر
قد كنتُ أحسِبُنِي والنجمَ فى قَرَنٍ	فَفيمَ أصبحتُ مُنْحطًّا إلى القَفرِ

وأسلوب ابن زيدون فى شعره رقيق جزل لا تَظهر فيه الصناعة ظهورها فى نثره ويكاد يكون كله غير متكلف ؛ لأن الغرض منه إظهار المعانى الكامنة فى نفسه لا الصناعة اللفظية بل كانت الصناعة تأتى فى المرتبة الثانية من شعره .

لسان الدين بن الخطيب

لِسانُ الدين محمدُ بنُ عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب السَّلْمانى الغرناطى الأندلسى ، من رجال العلم والأدب فى الأندلس ، وأشهر من عُرِف فى أواخر عصور العرب هناك بالأدب والفقه والفلسفة والطب وعلوم اللغة . وشبَّ بين العلماء وأخذ من كل علم طرفا ، و برع فى كثير منها وألف فيها ، فكان عالما وفقيها وشاعرا واديبا ، ومتطبِّبا وكاتبا . ولد بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ

وقد اتصل بأحد ملوك بنى الأحمر ، وهو السلطان أبو الحجاج يوسف بجعله كاتبه وسلم إليه الوزارة وأمْرَ الدولة . ولما قتلَ أبو الحجاج خلَفَه ابنه محمد فأبقاه لديه كما كان عند أبيه ، وأرسله إلى ملوك افريقيَّةَ يستنجد بهم على أعدائه . وكان الاضطراب سائدًا فى ذلك الوقت ، فكثر الخارجون على السلطان ؛ فحسد لسانَ الدين كثير من معاصريه وسعوا فى الإيقاع به وحدثت حوادث دعته للخروج من

بلاد الأندلس والالتجاء الى بلاد المغرب على أثر حقد الناس عليه ، واتهامه بالكفر والخروج على أصول الدين . ثم قبض عليه فى مدينة فارس وسجن وقتل فى سجنه ثم نبش قبره واحرقت جثته سنة ٧٧٦ هـ

نثر ابن الخطيب : موضوعاته ، خصائصه ، أسلوبه :

لقد ساعد ابن الخطيب اطلاعه الواسع فى اللغة العربية ، وفنونها على أن يكون كاتبا من كبار الكتاب . فألف فى كثير من أنواع العلوم والآداب ، وكتب كثيرا من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانيـة ، وكتب فى التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها . ورسـائله طافحة بمعلوماته فى الأدب والتاريخ والعلوم .

وكانت عنايته فى كتابته الأدبية وفى خصائص أسلوبه موجّهة إلى الصناعة اللفظية . إذ كان يعنى باللفظ عناية عظيمة ويقصـد إلى التنميق وتعمل السجع وله عناية خاصه بألفاظ المدح والثناء ، وعبارات التبجيل والتعظيم . ولقد يطيل فى ذلك إطالة تدعو إلى الملل وتدل على التكلف .

وقد كان أسلوبه على نحو أسـلوب ابن العميد من حيث تعمل السجع وزاد عليه ميله إلى الاطناب؛ فكثيرا ما كانت معانيه قليلة وألفاظه وجمله كثيرة. فكانت الإجادة فى الكتابة عنده فى الإحاطة والإطناب .

ويختلف أسـلوبه العلمى عن أسلوبه الأدبى فتجده أحيانا لا يلتزم طريقة السجع بل يسرد العبارات سردًا ، وأحيانا يغلب عليه السجع والمحسنات البديعية وتغلب عليه الصبغة الأدبية فى كتبه العلمية . فهو من أكبر الكتاب وأوسعهم علما وأكثرهم تأليفا .

شعره :

يعد ابن الخطيب من كبار شعراء الأندلس كما يحسب من الكتاب والأدباء. وقد طرق فى شعره جميع الأغراض المعروفة. وله كثير من القصائد فى التوسل والشكوى إلى الله ورسوله . وقد جرى فى شعره مجرى القدماء فى ذكر المعانى البدوية وبدء قصائده بها. والصبغة الغالبة على شعره هى صبغة العلماء والفقهاء الذين يميلون إلى ذكر الحقائق صريحة جافة ؛ فليس ابن الخطيب ممن يعتمدون فى شعرهم على الخيال أو الافتنان فى القول . ومع هذا فله أحيانا شعر رقيق فى الغزل والوصف ، الغالب عليه مسحة الصناعة . كما فى موشحته المعروفه الجميلة التى يقول فيها .

جادكَ الغيثُ إذا الغيث همى

يازمان الوصل بالأندلس أنخ .

وأسلوبه فى شعره جزل متين، ولكن به كثيرا من الألفاظ والعبارات الجافة مما كانت تقتضيه المعانى والموضوعات التى يعالجها فى شعره .

مقرّر السنة الرابعة

العصر الجاهلى

العصر الجاهلى

جزيرة العرب ــ وصفها ــ معيشة أهلها وصفاتهم
تأثير ذلك فى أدبهم

جزيرة العرب :

يسمّى العربُ بلادَهم " جزيرة العرب " وأحياناً " الجزيرة " وهى فى الواقع " شبه جزيرة " لأن الماء لا يحدها شمالاً ، فسموها جزيرةً تجوّزاً .

يحدها شمالًا الشأم والجزيرة والعراق ، وشرقًا خليج فارس " الخليج الفارسى " وبحر عُمَان ، وجنوبًا بحر الهند " المحيط الهندى " وغربًا خليج العرب أو بحر القُلزُم " البحر الأحمر " وتبلغ مساحتها نحو ربع أوربا ، أو مساحة القطر المصرى مرتين ونصف مرة .

وتنقسم أقسامًا يختلف بعضها عن بعض فى طبيعة أرضها ومُنَاخها وحالة سكانها ، فغربيها يتألف من جزءين كبيرين ، الحجاز شمالاً ، واليمن جنوباً .

فأما الحجاز فسمى حجازًا لأن جبل السّراة أقبل من اليمن حتى بلغ أطراف الشام ، فسمته العرب حجازًا لأنه حجز بين تهامة — وهى هابطة إلى شاطئ البحر — ونجد وهى مرتفعة ظاهرة ، ثم توسعوا فى مدلول الحجاز حتى شمل الأراضى المنخفضة وهى تهامة .

والحجاز قطر يغلب عليه الجدب والإمحال وقلة المطر ، وأحياناً يسيل السيل فيملا وديانه ويجرى ليصب فى البحر . وتنتشر فيه بقاع صخرية — وخاصة حول

مكة — تلق عليها الشمس أشعتها فتنعكس منها حرارة عنيفة قاسية ، ووديان قاحلة ينبت فيها أحياناً قليل من الكَلَأ ترعاه الماشية ، وقد يكون أخصب مكان فيه "الطائف" ، فقد أينع فى أرضه النبات وأخرجت أشجاره التين والعنب والرمان والزيتون .

وأشهر مدن الحجاز "مكة" وهى فى واد غير ذى زرع ، وطولها من الشمال إلى الجنوب نحـو ميلين ، وعرضها — من سفح جبل أبى قُبَيْس وهو المشرف عليها شرقا إلى جبل قُعَيْقِعان غرباً — نحو ميل .

وبمكة الكعبة (البيت الحرام) كان يحج إليها العرب فى الجاهلية ، وجعل الحج إليها فرضًا فى الإسلام، وهى قبلة المسلمين فى صلاتهم ، وبها نبع ماء هو بئر زمزم المشهورة . وبها ولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أماكن مكة المشهورة الصَّفَا والمَرْوَة وهما مكانان مرتفعان من جبل أبى قبيس ، ووادى مِنًى وجبل عَرَفات والمُزْدَلِفةُ وهى أماكن يرد ذكرها فى شعائر الحج .

ومن مدن الحجاز : "المدينة المنورة" واسمها القديم "يَثْرِب" وهى فى وسط واد فسيح ، فى شماليها جبل أُحُد ، وبها كثير من النخل وآبار كثيرة يستقون منها ، وإليها هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، وبها توفى ، وبالجهة الشمالية من المدينـة "خَيْبَر" ، وقد كان يسكنها اليهود ، كما كان يسكن المدينة نفسها بعض اليهود .

وكان يسكن الحجازَ من قبائل العرب الأَوْسُ والخَزْرَجُ فى المدينـة ، وقُرَيْش فى مكة ، وثَقِيف فى الطائف ، وهُذَيْل وكانت تسكن هضابا فى جنوبى مكة وقد اشتهر الهُـذَليون بشعرهم الرقيق .

وأما اليمن — فى جنوبى الحجاز — فقطر قديم اشتهر بالغنى والثروة والحضارة، وهو كالحجاز يتألف من أرض منخفضة على شاطئ البحر تسمى أحيانا "تِهَامة اليمن" تمييزًا لها من تهامة الحجاز ، وأراض مرتفعة تسمى كذلك "نجد اليمن" .

ومن مدنها "نَجْران" فى الشمال ، وقد اشتهرت فى الجاهلية باعتناق أهلها النصرانية ؛ وكان فيها أساقفة ، وكعبة يعظمونها مضاهاة للكعبة فى مكة ، وقد كان انتشار النصرانية فى نجران سببًا فى اتصال اليمن بالحبشة ، لاتحاد نجران والحبشة فى المذهب الدينى .

وكان من مدن اليمن "مَأْرِب" فى الشمال الشرقى من صنعاء ، وتسمى سبأ ، وكان يسمى أهلها الذين يسكنونها وما حولها سبأ أيضًا .

كذلك من مدن اليمن "صَنْعاء" فى الوسط ، وبالقرب منها قصر عظيم يسمى "غمدان" يذكر الأخباريون أن سيف بن ذى يزن استرده من الحبشة ، وكانوا قد استولوا عليه لما استولوا على اليمن .

وفى جنوبى صنعاء خرائب مدينة كانت تعد حاضرة للحميريين تسمى "ظَفَارِ" ومن أمثال العرب المشهورة "من دخل ظَفَارِ حَمَّر" أى تكلم باللغة الحميرية .

ومن أكبر القبائل العربية التى كانت تسكن اليمن قبيلة هَمْدَان ، وقد اشتهرت بأنها كانت تعبد فى الجاهلية صنمين اسمهما يَغُوث ويَعُوق ، وقد ورد ذكرهما فى القرآن الكريم .

وكذلك ممن كان يسكن اليمن قبيلتا مَذْحِج ومُرَاد .

وفى جنوبى جزيرة العرب صُقْع حضرموت ، وهو قطر جبلى يقطع جباله وديان كثيرة ، يسمى سكانه الحضارمة ، وقد اشتهروا بجدهم ورحلاتهم فى التجارة ، ومنهم كثيرون جاءوا إلى مصر عند الفتح الإسلامى ، ومن أشهر من كان يسكن هذا الإقليم فى الجاهلية بطن من كِنْدة تسمى "تُجِيب" .

وفى حدود حضرموت شمالا الأحقاف ، حيث كان يسكن قوم عاد ، وقد قص الله قصتهم فى عدة مواضع من القرآن (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) الآية ، وسميت بالأحقاف سورة من سور القرآن .

وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة " عُمَان " وهو قطر جبلى على شاطئ البحر ، اشتهر أهله بالملاحة ، وقد ذكروا أنه بعد انهيار سد مأرب رحلت بعض قبيلة الأزد إلى عُمَان وسكنتها ، وكذلك كان يسكنها قوم من طيئ من أشهرهم قبيلة نَبْهَان .

والجزء الممتد فى شرقى الجزيرة من عمان إلى حدود العراق يسمى " البحرين " ومن أشهر مدنه " هَجَر " وقد ضرب المثل بكثرة تمرها ، فقالوا : (كناقل التمر إلى هجر) .

ومن مدنه كذلك " قَطَر " وقد اشتهر أهلها بالغوص على اللؤلؤ واستخراجه وقد كان يسكن البحرين قبائل من عبد القيس وتَمِيم .

أما وسط الجزيرة فصحارى قليلة الأمطار قليلة النبات ، يتخللها كثير من الدَّارَات (الواحات) الخصبة تُنْبِت من الكلأ ما ترعاه الماشية فى بعض أشهر السنة ، وهذه الصحراء أقسام لكل قسم اسم خاص ؛ فالجزء الذى بين شرقى اليمن والشمال الغربى لحضرموت يسمى "صَيْهَدَا" .

والذى فى شمالى حضرموت يسمى " الأحقاف " ، والذى فى شمالى مَهْرة يسمى " الدَّهْنَاء " .

وفى شمالى الصحراء تمتد الأراضى العالية المسماة " نَجْدا " وهى من أصلح بلاد العرب وأجودها هواء وأجملها منظراً .

والصقع الذى فى الجنوب الشرقى لنجد يسمى اليمامة وهو من أخصب بلاد العرب ، وقد روى بعضهم أنها كانت مسكناً لطَسْم وجَديس وقد يطلق على اليمامة والبحرين معاً اسم " العَرُوض " .

وجزء الصحراء الشمالى المجاور للشأم يسمى " بادية الشام " والمجاور للعراق يسمى " بادية العراق " والذى فى جوار الجزيرة (شمالى العراق) يسمى " بادية الجزيرة " .

مناخها — يغلب الحر الشديد على أكثر جزيرة العرب ، وفى مرتفع الأراضى يعتدل الجو ليلا فى الصيف ، ويبرد فى الشتاء حتى ينعقد الثلج فى أعالى بعض الجبال كما فى الطائف ، فتثلج القمم ويجمد الماء ، ثم تذيبه الحرارة فينحدر من الجبال جداول تَروى ماحولها من بساتين ومزارع ، وقد أكثر الشعراء القول فى نوعين من الرياح ، ريح الصَّبا ، وريح السَّمُوم . فالصبا ريح شرقية معتدلة تغزَّلَ الشعراء فى اعتدالها ورقة نسيمها واشتقوا منها فقالوا : صبَت الريح تصبو صُبُوًّا ، والسمومُ ريح حارة ، واشتقوا منها كذلك فقالوا : يوم سامٌ ومسموم .

وليس فى بلاد العرب أنهار جارية ، ولكن جداول صغيرة يجرى فيها الماء أحياناً ، ولذلك كان أكبر عمادهم فى حياتهم المطر ، وسمَّوه غيثاً ، وخير أوقاتهم الربيع وهو ما أعقب المطر ، ينبت فيه الكلأ ، فيخرجون إليه بإبلهم وشائهم . وبعض الجبال والأودية جيد التربة إذا أصابه الماء أخرج نباتاً وشجراً ، فمن أشجاره الطلح والأَثْل ، والسدر ، والحناء ، والرمان ، والتفاح ، والليمون ، وكثير من النخل وعليه يعتمد الكثير فى غذائهم .

وأخصب أراضيها أراضى اليمن لكثرة أمطارها ، وجودة أرضها ، وقد سمَّاها اليونان والرومان « بلاد العرب السعيدة » تمييزاً لها عن بلاد العرب الصخرية فى الشمال .

من هذا نرى الاختلاف الكبير بين أجزاء جزيرة العرب فمنها سهل وجبل ، وأرض مخصبة وأرض مجدبة ، وإقليم حار وآخر بارد ، و بلاد شاطئية وبلاد بعيدة عن البحر ، وبلاد تتاخم سكان الحضر وتتصل بهم ، و بلاد ممعنة فى الصحراء قلّ أن يكون بينها و بين البلاد المتحضرة سبب .

وكان لهذا الاختلاف أثر فى اختلاف السكان فى عقليتهم وطباعهم ولغاتهم وأدبهم ولهجاتهم ودينهم ، ونظمهم السياسية إلى غير ذلك كما سيأتى بيانه .

الأمة العربية :

يسكن هذه الجزيرة الأمة العربية ، والعرب من الجنس السامىّ ، وهو اسم أطلقه علماء الشعوب على جنس من الناس ينتسب إلى سام بن نوح ، ويشمل هذا الجنسُ البابليين والسريانيين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين والحبشيين والسبئيين والعرب ، وإن كان هناك خلاف بين العلماء فى بعض من عددنا سامياً ، كما يختلفون فى الموطن الأصلى للجنس السامىّ قبل أن يتفرق ويتنوع ، فبعضهم يرى أنهم كانوا أول أمرهم فى بقعة من آسيا ، ثم يختلفون فيما بينهم ؛ هل هذه البقعة هى جزيرة العرب ، أو أرمينية ، أو الجزء الأسفل من الفرات .

وبعضهم يرى أن موطنهم الأصلى كان فى إفريقية ونزحوا منها إلى آسيا .

اقسامها إلى شعوب — والعرب من قديم ينقسمون شعبين كبيرين : عرب الشمال أو الحجازيين ، وعرب الجنوب أو اليمنيين .

فعرب الشمال يسمون — عادة — العدنانيين لأنهم — كما يذكر النسابون — من نسل عدْنان ، وعدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وقد يُسمَّون كذلك العرب المستعربة لأن إسماعيل لم تكن لغته الأصلية اللغة العربية ، وإنما نطق بها لمّا رحل مع أبيه إبراهيم إلى الحجاز ، وتزوج من جُرْهُم ، وهى قبيلة يمنية ، وتعلم منهم وتكلم بلسانهم .

وعرب الجنوب يسمون القَحْطَـانيين لأن النسّابين يروون أن عرب اليمن جميعاً من نسل قحطان ويسمّون كذلك "العرب العاربة" لأن العربية فى الأصل هى لغتهم ولسانهم .

وبين العدنانيين والقحطانيين عداء قديم ، سببه اعتقادهم بما بينهم من خلاف فى الأصل، وما بينهم من فروق فى اللغة والحضارة، وكان بين اليمنيين والحجازيين مفاخرات كثيرة روتها كتب الأدب والتاريخ ، ومن هذا القبيل ما كان بين أهل المدينة — الأوس والخزرج وهم يمنيون وأهل مكة وهم عدنانيون — من عداء قبل الإسلام وفى بدئه ، ومع هذا كانت الرحلات مستمرة بين الشعبين ، فيرحل اليمنيون إلى الحجاز ، والحجازيون إلى اليمن ، وقد سكنت قبائل قحطانية فى الحجاز كالأوس والخزرج ، فقد سكنتا المدينة ، كما سكن قوم من العدنانيين اليمن .

وكل من العدنانيينَ والقحطانيين ينقسمون قبائل عدة ، والقبيلة هى الوحدة التى بُنِيَ عليها نظام العرب الاجتماعى ، والقبيلة أسرة كبيرة يعتقد كل أفرادها أنهم من أب واحد وأم واحدة ، وهى فى الغالب تسمى باسم الأب كربيعة ومُضَر والأوس والخزرج ، فهذه كلها أسماء رجال نَسَلَ كل واحد منهم أولاداً وأحفاداً فانتسبوا كلهم إليه ، وقليلا ما تنسب القبيلة إلى الأم كما قالوا فى خِنْدِف وبَجِيلَة . وقد تتسمى القبيلة بحادث حدث، فإن قبيلة نزلت بماء يقال له غسّان فسميت القبيلة بهذا الاسم ، ولكن الكثير الشائع نسبة القبيلة إلى الأب . وقد يلد أبو القبيلة أولاداً فينشأ عن بعضهم قبيلة أخرى تتسمى باسم آخر وتنتسب إليه ويكون بينها وبين القبيلة التى تفرعت عنها صلة قرابة وهكذا ، وسبب ظهور الفرع باسم جديد أن يشتهر أبو هذا الفرع برياسة أو شجاعة أو كثرة ولد .

نظام القبيلة :

وكان للقبيلة شيخ أو رئيس هو سيد القبيلة ، وإليه الفصل فيما ينشأ فيها من خصومات حسب ما للقبيلة من عرف وعادات ، وسيادة الرئيس مبنية على ما وقر فى نفوس الأفراد من إجلال واحترام ، وقلما تبنى على القهر والاستعباد ، ولذلك

كانت مصانعة الرؤساء للا فراد لاتقل عن مصانعة الافراد للرؤساء . وكانت حرية الأفراد فى مثل هذا النظام أوسع منها فى الحكومات المنظمة ، وكان للقبيلة بجانب الرئيس حكام ، وهم رجال امتازوا فى القبيلة بكبر العقل وصدق النظر ، قد يُفزَع إليهم فى الخصومات الأدبية ، كالمفاخرة فى النسب ونحوها .

وللقبيلة كذلك شاعر أو شعراء ، يتغنون بمحامدها ، ويُشيدون بمناقبها — أما الرابطة بين الأفراد فكانت رابطة الدم — كما أسلفنا — وكان كل فرد يتعصب لقبيلته ، ويتمدح بما صدر عنها من محاسن ، ويُعيَّر بما كان منها من مساوٍ ، وعلى القبيلة أن تحمى كل فرد من أفرادها وتدافع عنه وتطالب بدمه ، وهو يستصرخ بها فى المُلمات ويَفزَع إليها فى الشدائد ، وقد يرتكب الفرد جرائم كثيرة تُحمِّل قبيلته متاعب جمة فتعلن انفصاله عنها ، ويسمى عند ذلك "خَليعاً" ، وقد يلتجىء فرد إلى غير قبيلته لتحميه وتدافع عنه فيسمى حليفاً أو مولًى .

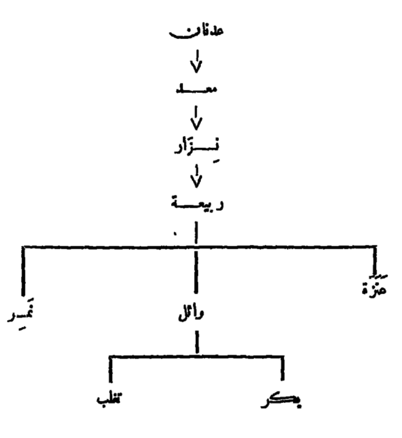
أما علاقة القبائل بعضها ببعض فعلاقة عداء غالباً ، فالقبيلة إما مغيرة على أخرى أو مغار عليها ، إلا أن يكون بين بعض القبائل حِلْف أو مهادنة ، ولذلك كانت الحرب بين الأفراد من قبائل مختلفة أو بين القبائل المختلفة تشغل أكبر حيز فى تاريخهم ، حتى رووا أن دُرَيد بن الصِّمة عُمِّر نحو مائة عام غزا فيها نحو مائة غزوة . ومن أجل هذا أيضا كانت الحروب والنصرة والهزيمة وما إليها أكبر موضوع تناول القول فيه الشعراء الجاهليون ، وكان لابد لفهم الشعر والأحداث التاريخية فى ذلك العصر من معرفة القبائل العربية ، وما كان بينها من عداء أو حلف .

أشهر القبائل :

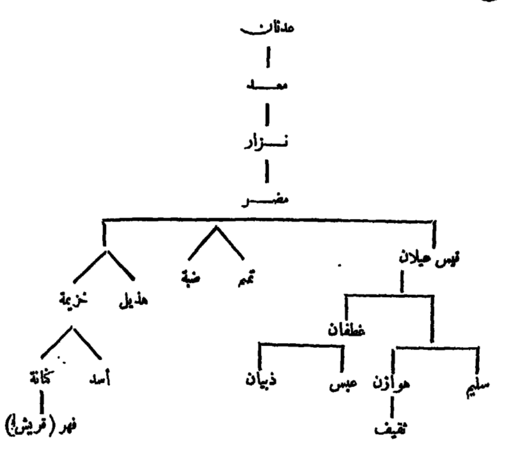
قدمنا أن العرب ينقسمون إلى شعبين كبيرين العدنانيين والقحطانيين .

والعدنانيون ينقسمون إلى فرعين كبيرين : ربيعة ومضر ، وكلاهما تفرع إلى فروع كثيرة ، وهاك جدولين يبينان أهم فروعهما :

فرع ربيعة :

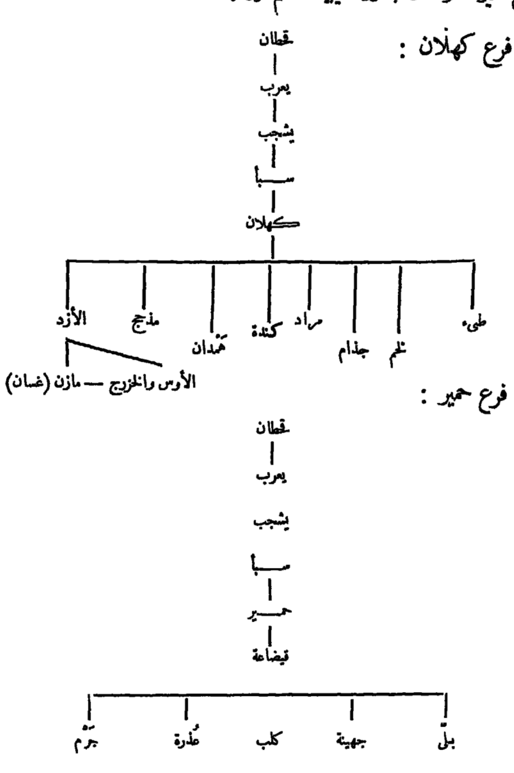


فرع مضر :



وكان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قرونا طويلة حتى إن ربيعة كانت تحالف غالبا مع اليمنيين لمقاتلة المضريين .

وأما اليمنيون أو القحطانيون فينقسمون كذلك إلى فرعين كبيرين فرع كهلان وفرع حمير ، وهذان جدولان يبينان أهم فروعهما .



و خ

اللغات السامية ومنزلة اللغة العربية منها :

اللغة العربية واللغات السامية — يتكلم هؤلاء العرب اللغة العربية ، واللغة العربية هى إحدى اللغات السامية ، وسميت باللغات السامية تمييزًا لها عن اللغات الحامية واللغات الآرية .

وإذ كانت هذه اللغات السامية من أصل واحد — على ما يظن — كان كثير من الكلمات مشتركا بينها ، مع اختلاف قليل أحيانا ، كالذى بين العبرية والعربيـة ، فبعض الكلمات بالشين فى اللغة العربية وهى بالسين فى اللغة العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية شلُوم فى العبرية ، وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ، وما كان فى العربى بالضاد ففى العبرى بالصاد كأرض وأرص وهكذا .

وقد كان لتقارب الأجناس أثر فى اقتباس لغة من أخرى ، فقد تأثر اليمنيون باللغة الحبشية لقربهم منها وكثرة اتصالهم بها كما تأثر الحجازيون بالعبرية .

وللغات السامية ميزات تتميز بها عن غيرها من اللغات : من ذلك اقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها ، فلا يرسمون حروفًا دالة على الفتحة أو الكسرة أو الضمة كما هو الشأن فى اللغات الارية .

ومن ذلك — أيضا — زيادة عدد حروفها عن اللغات الارية ، وكذلك كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المـادة الواحدة ، كما أن هناك شبهًا بين اللغات السامية فى الأساليب وتراكيب الجمل ، والمفردات الدالة على أعضاء الجسم والضمائر

واللسان العربى نوعان : لغة عربية جنوبية فى اليمن ، ولغة عربية شمالية فى الحجاز . فلغة الجنوب تشمل لغة سبأ ولغة حمير ، وقد يتساهلون فى التعبير

فيسمونهما اللغة الحميرية ، وهى لغة أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر فى اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة ، ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة ، كما أن لها صيغا فى التنوين ، وجمع المذكر السالم ، وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة الحجاز ، وكذلك فى حروف الكلمات ، فهمزة أفعل فى بعض الكلمات الحميرية هاء . وقد توصل العلماء المحدثون إلى معرفة اللغة الحميرية والسبئية بما عثروا عليه من كتابات وأمكنهم أن يستنتجوا من ذلك قواعد للغتين .

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز فهى لغة العدنانيين ، وهى أحدث من لغة الجنوب ، وما رُوى إلينا من شعر جاهلى فهو بهذه اللغة العدنانية ، لأن الشعراء الذين قالوا هذا الشعر إما من ربيعة أو مضر ، وهما فرعان عدنانيان ، أو من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطيئ وكِندة وتنوخ .

وتُعد اللغة العربية العدنانية — كما يقول علماء اللغات السامية — أقرب اللغات إلى الأصل الذى تفرعت منه اللغات السامية ، لأن هؤلاء العرب لم يمتزجوا كثيرا بغيرهم من الأمم ، ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم كما كان الشأن فى كثير من الأمم السامية الأخرى كالعبرانيين والبابليين والأشوريين ، حفظتهم الصحراء من غزو الأعداء وحكم الأمم الأجنبية ، كما حفظت لغتهم من أن تتأثر تأثرا كبيرا بغيرهم .

كذلك تعد اللغة العربية أرقى اللغات السامية لكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها وغنى معجمها ، فقد وضعوا لكل ما وقع عليه حسهم كلمة بل كلمات ، وفطنوا لكل تغير طرأ فوضعوا له اسما يدل عليه . وقد رقاها القرآن الكريم بما أدخل فيها من معان وألفاظ ، ثم بسطت نفوذها على كل البلاد التى فتحها المسلمون فى آسيا وإفريقية وأوربا فأثرت فى هذه البلاد وتأثرت بها .

حياة العرب السياسية

الحياة السياسية لليمانيين بالإجمال — الحياة السياسية للعدنانيين كذلك العلاقة بين العرب والأمم الأجنبية

غموض التاريخ الجاهلي ومصادره :

تاريخ العرب فى الجاهلية غامض أشد الغموض ، مملوء بالأساطير والأقوال المتضاربة ، لأن العرب فى ذلك العهد لم يدوّنوا تاريخهم فى كتب وصلت إلينا ولاسيما من كان منهم من سكان البادية ، إنما كانوا يتناقلون ذلك شفاها من طريق الرواية ، والقدم قد أسبغ عليهم كثيراً من العظمة غير المألوفة ، فهم ينسبون إلى أجسام بعضهم طولًا مفرطاً لا عهد للناس به ، ويعمرونهم أعماراً لم يعشها الناس فى عصر من عصورهم ، ويضيفون إليهم من الأعمال ما لا طاقة للإنسان به وهكذا .

من أجل ذلك تعب الباحثون فى تحقيق أخبارهم وتمييز الصحيح من تاريخهم ، وأصدق ما وصل إلينا أخبار وردت فى القرآن الكريم كأخبار عاد وثمود وسيل العَرِم ، كذلك عُثر على آثار فى اليمن جَدَّ العلماء فى فَكِّ رموزها وقراءة خطوطها وتعرف لغتها ، وقد وجدوا فى بعض النقوش اليمنية تاريخا لبعض حوادث اليمن وملوكها ، كما وجدوا آثاراً فى شمالى جزيرة العرب (فى مدائن صالح وغيرها) مكتوبة بالخط الحميرى ، ولكن ما فى هذه النقوش لا يمكن أن يؤلف منه تاريخ منظم متسلسل .

ولا يزال الباحثون ينقبون عما بقى من هذه الآثار وكشف معمياتها .

كذلك وردت فصول فى كتب التاريخ العربية تتضمن أخبار العرب فى الجاهلية من أهمها تاريخ الطبرى وابن خلدون ، وفصول أتت فى كتب تاريخ اليونان والرومان كهيرودوت و بطليموس . وشذرات جاءت فى التوراة ، وما كتب اليهود عن الحجاز واليمن ، وبعض بقايا آثار بابلية وأشورية ، ومع هذا فكتب التاريخ العربية واليونانية واليهودية لا يوافق بعضها بعضاً ، فهى لا تتفق فى تاريخ الملوك وعددهم ، ولا فى تاريخ الأحداث ، بل لا تتقارب فى ذلك .

كل هذا جعل التاريخ الجاهلى غامضاً مجالا للشك فيما لم يرد فيه قرآن أو أثر صحيح .

حياة اليمن السياسية :

قدمنا أن عرب اليمن جميعا ينتسبون إلى قحطان ، وكان عرب اليمن الأولون ينقسمون إلى جماعات متفرقة فى البلاد ، كل جماعة تقيم فى محلة تسمى فى لسانهم "المخلاف" وهى كالبلدة بما حولها من قرى ومزارع ، وعليها أمير يسمى بلغتهم "القيل" وجمعه أقيال ، وكل قيل مستقل عن الأقيال الآخرين ، وأحيانا يقوى أحد الأقيال فيغزو قيلا آخر و يتغلب عليه ويسلبه ما له ويعود إلى مقره كما هو شأن الأمم فى حالة بداوتها .

ثم تحضروا على مر الزمان ، ونشأت فى اليمن دول كبيرة أهمها :

١ — دولة سبأ :

وقد ورد ذكرها فى التوراة ، وفى كتب الجغرافيا اليونانية والرومانية ، وجاء فى القرآن الكريم ما يدل على حضارتهم (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) الآية .

وقد أزهرت مدينة سبأ قبل ميلاد المسيح بجملة قرون ، ويدل بعض ما عثر عليه من النقوش على أنها كانت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

وحاضرة هذه الدولة كانت مدينة "مأرب" ، وقد كان من أهم أسباب عظمتها أن التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق كانت فى بعض العصور تعتمد أكثر ما تكون على البحر ، ثم أصبح البحر بين مصر والشام والعراق طريقا مخوفا ، وعرضة للسلب والنهب بمراكب المتلصصة ، فتحوّلت التجارة إلى البر ، فكانت السلع تأتى من الهند والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب فينقلها السبئيون براً إلى مصر والشام والعراق ، وكانت القوافل تسير من شاطئ الجزيرة إلى مأرب ، وتتجه شمالا إلى مكة ومنها إلى بَطْرة ثم إلى غَزَّة على شاطئ البحر الأبيض ، فربحت اليمن من وراء ذلك وعظم شأنها وكثر المال فى يد اليمنيين فزهت بلادهم ، واحتفروا التُّرع وبَنَوا السدود ، وأنشئوا القصور ، ثم عاد طريق البحر من الهند إلى مأمنه فأعرضت التجارة الهندية عن طريق البر ، وسلكت البحر من الهند إلى شاطئ حضرموت إلى مضيق باب المندب ، ويظهر أن ذلك كان فى القرن الأول الميلادى ، فكان فى هذا إضعاف لشأن اليمن والدولة السبئية . وانضم إلى ذلك حادث كبير كان له أثر عظيم فى خراب هذه البلاد وهو انهيار سد مأرب .

"وسد مأرب" بناء أقاموه لحجز المياه وتصريفها بقدر ، وهو الذى نسميه الآن "خزانا" وسبب إقامته أن اليمن ليس بها أنهار جارية دائماً ، لكن بها مياه كثيرة تتجمع من السيول ثم يصرفون منها حسب حاجاتهم . وكان من أكبر هذه السدود سد مأرب ، وكان فى الجنوب الغربى من مأرب ، وقد كثرت فى هذه المنطقة الجبال المرتفعة والوديان ، فاذا أمطر المطر وسال السيل جرت المياه فى الأودية وتجمعت فى واد يسمى وادى أَذَنَة فتسير فيه المياه حتى تنتهى إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين ، فبنوا هناك السد المعروف بسد مأرب .

وقد اتخذوا فى جانبي السد مصرفين يسدونهما بعوارض مركبة بعضها فوق بعض يفتحونها بطرق مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يقفلونها . ووراء الجانبين أرض صالحة للزراعة تجرى فيها المياه ، فكان من ذلك جنتان عن يمين وشمال . وقد حدث أن السد تصدع — لعدم العناية به — على أثر سيول غزيرة فخربت البلاد وأصاب الناسَ قحط ؛ وكان ذلك من أسباب تفرق سكان سبأ ، وهجرة أهل الجنوب إلى الشمال ، ومن هؤلاء قبائل الأزد الذين منهم الأوس والخزرج ، ولا تزال بقايا السد قائمة إلى الان ، وفى هذا الحادث ينسب للأعشى

وفى ذاك للمؤتسِي أسوةٌ وَمَأرِبُ عفَّى عليها العَرِمْ

رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرٌ إذا جاءَ موَّارُه لم يَرِمْ

فَرَوَّى الزُّروعَ وَأَعْنَابَهَا على سَعَةٍ ماؤهُمْ إذ قُسِمْ

فصاروا أيادِىَ ما يَقْدِرُو نَ منه على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

ومن أجل هذا قال العرب فى أمثالهم « تفرقوا أيدى سبا »

ويدل ما عثر عليه من نقوش على أن أسماء ملوكهم ولغتهم تخالف الأسماء العربية واللغة العربية المعروفة لنا فى كتابتها وقواعدها .

٢ — دولة حمير :

الحميريون فرع من السبئية ، وقد أنشئوا مملكة كانت عاصمتها « ظَفَار » واستمرت دولتهم — على ما يرجح — من أواخر القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادى . وقد امتازت هذه الدولة بالفتوح ومحاربتها للفرس والحبشة ، وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى أسماء ملوكهم وعددهم ومدة حكمهم ،

وبالغ مؤرخو العرب فى فتوحهم وحروبهم مبالغة لا يُؤيدها ما ورد فى تواريخ الأمم المعاصرة لهم .

ويقسم المؤرخون عادة هذه الدولة إلى طبقتين ، الطبقة الأولى وينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، والطبقة الثانية مدت سلطتها على الشِّحْر وحَضْرَمَوْت وهذه الطبقة الأخيرة تسمى فى كتب العرب بالتبابعة — جمع تُبَّع — وكان آخر ملوكهم " ذو نواس " .

ويذكر مؤرخو العرب أن ذا نوَاس كان يهودياً متعصباً لليهودية ، وكانت النصرانية قد فشت فى جزيرة العرب ، وكان لها مراكز فى اليمن منها نجران ، فاضطهدهم ذو نواس وعرض عليهم اليهودية فأبَوْا فأحرقهم ، فغزا الحبشة اليمن انتصاراً للنصرانية ،
وكُسر ذو نواس وقومه ، وملكَ الحبشةُ اليمنَ وهدموا حصونها . وكان ذلك حول سنة ٥٢٥ م ، وقد تُسَمِّى العرب كل دول اليمن — من سبئيين وغيرهم — الحميريين ، كما تسمى لغات اليمنيين على اختلافها الحميرية . وسبب ذلك أن فرع حمير كان هو الفرع القوى الذائع الصيت قبيل الإسلام .

*
* *

وللعرب عن اليمن وشؤونها أساطير كثيرة لم تثبت تاريخياً ، ومع هـذا كان لها أثر كبير فى الأدب العربى من شعر وقصص وأمثال .

كالذى ذكروا أن من التابعة ذا القرنين ، ونسبتهم له بعض ما نسب للإسكندر الأكبر المقدونى ، وكما بالغوا فى أسعد أبى كَرِب أحد التابعة ، وأنه فتح فارس ولقى الترك وهزمهم ، وهابته الملوك وهادنه ملوك الهند ، ورووا له فى ذلك شعراً .
وكما أعظموا من قصر غُمْدان ، وهو قلعة صنعاء ، فقـد ذكر الهمدانى أنه كان عشرين سقفاً غُرَفاً بعضها فوق بعض ، بين كل سقفين عشرة أذرع ، ولما بلغ بانيه غرفته العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة الخ . وكالذى ذكروا عن زرقاء

اليمامة ، وهى امرأة من جديس كانت تبصر الشىء على أبعــد مدى ، فلما قتَل قومُها طَسْما استنجد رجل منهم بحسان بن تبع ملك اليمن ورغّبه فى أموالهم ، فبعث إليهم بجيش أبصرته الزرقاء على مسيرة ثلاثة أيام فأخبرت به قومها . الخ .

* * *

تاريخ العدنانيين :

يقابل اليمنيين أو القحطانيين فى الجنوب العدنانيونَ فى الشمال ، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون الحجاز وتهامة ونجدا ، وبعضهم سكن العراق والجزيرة .

والعدنانيون يختلفون عن القحطانيين فى أمور كثيرة أهمها :

(١) أكثر العدنانيين بادية رَحّالة ، ويقل منهم من يعيشون عيشة قرار وحضارة ، كقريش فى مكة ، وعلى العكس من ذلك القحطانيون فأكثرهم أهل حضارة وعمران .

(٢) اختلافهم فى اللغة ؛ فلغة اليمنيين الحميرية تخالف لغة العــدنانيين كما تقدم . وقد سادت لغة قريش العــدنانيةُ قبيل الإسلام وتمت سـيادتها بظهور الإسلام .

(٣) كذلك يختلفون فى العبادات فقد كان لليمن فى الجاهلية آلهة خاصــة لا يشاركهم فى عبادتها العدنانيون .

وقد تشعب العدنانيون شعوباً كثيرة ، وانقسموا إلى قبائل عدة كما ظهر فى الجدول السابق . وأكبر فروع العدنانيين فرع ربيعة وفرع مضر ، وكانت ربيعة ومضر أقوى الشعوب العدنانية فى القرنين السابقين على الإسلام ، وكان بين ربيعة ومضر أحداث كثيرة وحروب طويلة أحياناً بين قبائل مختلفة من ربيعة ، وأحياناً بين قبائل مختلفة من مضر ، وأحياناً بين قبائل من ربيعة وقبائل من مضر .

فمن الوقائع المشهورة بين قبائل ربيعة حرب « البَسُوس » بين بكر وتغلب ، وقد دامت فيما يقولون أربعين سنة ، ويذكرون فى سبب ذلك أن كليب بن ربيعة كان سيد تغلب ، وبلغ من عظمته أن كان له حِمىً فى أرض تسمى العالية لا يطؤه أحد إلا بإذنه ، وكان لا يورد أحد مع إبله ، ولا يوقد نارا مع ناره ، وقد تزوج كليب من شيبان (فرع من بكر) والبسوس خالة جَسَّاس بن مُرَّة الشَّيْبَانى كانت لها ناقة يقال لها " سَرَابِ " فرآها كليب وائل فى حماه وقد كسرت بيض حمام كان قد أجاره ، فرمى ضرعها بسهم ، فوثب جساس على كليب وقتله ، فهاجت الحرب بين بكر وتغلب حتى ضربت العرب بشؤمها المثل .

ومن الوقائع بين قبائل مضر حرب " داحِس والغَبْرَاء " بين عَبْس وذُبْيَان . وسببها أن قيس بن زهير العبسى تراهَنَ هو وحُذَيْفَة بن بدر الفزارى فى سباق فأجرى الفَزَارِىّ فرسه الغبراء وأرسل العبسى داحساً ، فكان داحس السابق لولا كمين — جعلته بنو فَزَارَة — رَدَّه قبل أن يدرك الغاية . فادعى كل منهما حق السبق ، وثارت من أجل ذلك حرب عَوَان امتدت نحو أربعين سنة .

وكذلك من حروب مضر حروب "الفِجَار" بين قبيلتى قريش وكنانة، وكانت قبل الإسلام ، وهى حروب أربع وكان سبب الأولى — على مايروى — المفاخرة فى سوق عكاظ . وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق عكاظ . وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله فى سوق عكاظ . وسبب الأخيرة أن عروة الرَّحَّال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البَرَّاض فى الطريق .

ومن الأيام بين ربيعة ومضر وقائع كثيرة بين تميم من مضر وبكر بن وائل من ربيعة ، وكانت الحرب فيها سِجالاً ، يوم لتميم ويوم لبكر .

وهـذه الحروب والأيام دونت فى كتب التاريخ والأدب ودخلها كثير من المبالغات ، وكانت محورا لكثير من القصائد والأمثال والقصص ، وأكثر الأدب الجاهلى يدور حولها .

وأعظم موطن للعدنانيين مكة ، وكان يسكنها كنانة وقريش ، وكان لهما الفضل والشرف على غيرهما من مضر ، وآلت ولاية البيت الحرام لهما ، ثم انحصرت فى قريش . وكان سيدَ قريش قصىُّ بن كِلَاب بن مُرَّة (وقد صار له لواء الحرب) وحِجَابة البيت ، وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم إليـه فى قليل أمورهم وكثيرها ، واتخـذوا دار النـدوة إزاء الكعبة وجعلو بابهـا إلى المسجد ، فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاوراتهم ، ومعاقدهم . ثم تصدّى " قصى " لإطعام الحاج وسقايته ، لمـا رأى أنهم ضيف الله وزوّار بيته ، وفرض على قريش خراجاً يؤدونه إليه ، وكان ذلك نحو أوائل القرن الخامس للميلاد .

ثم تتابعت الولاية و رياسة قريش فى أولاد قصى — عبد مناف ، ثم هاشم ثم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليـه وسلم . وفى عهد عبد المطلب غزا الحبشة الحجاز ، وسمى العرب عام هذه الغزوة عام الفيل ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ م فاصيب جيش الحبشة بالوباء فرجعوا عن مكة ونزلت فى ذلك سورة الفيل فى القرآن الكريم .

وقد حدث بين بطون قريش خلاف أحياناً على وسائل الشرف ، ودعا هذا الخلاف إلى توزيعها على البطون فكان لبنى هاشم — مثلا — سق الحجيج ، ولبنى أمية راية الحرب ، ولبنى نوفل الرِّفَادة (وهى ما كانت تخرجه قريش من المـال تعين به من انقطع عن الحج) الخ وكان كل بيت يتوارث هذه المكارم .

العلاقة بين العرب والأمم الأجنبية

اتصل العرب بمن حولهم من الأمم من طرق عدّة :

أولا — التجارة :

وكان أظهر القائمين بها اليمنيون فى اليمن ، والقرشيون فى مكة ، فاليمنيون عرفوا بالتجارة قديماً فكانوا ينقلون غلات حضرموت وظفار وواردات الهند إلى الشام ومصر . ويأتون بالذهب والحجارة الكريمة والصندل والتوابل والأفاويه من الهند ، وكانوا يحملون العطور والأبنوس والذهب من شواطئ إفريقية . وكانوا يتاجرون فيما تخرجه بلادهم من البخور والعطر . ويحملون اللؤلؤ من البحرين ، وهكذا اتصلوا بالعالم حولهم .

ثم ضعفت تجارتهم وحل محلهم عرب الحجاز ، وكان ذلك منذ القرن السادس الميلادى ، فتسلطت قريش على التجارة يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ويبيعونها فى أسواق مصر والشام . ولما قوى العداء بين الفرس والروم قبيل الإسلام بلغت مكة مبلغاً عظيما فى التجارة ، وكان الروم يعتمدون فى كثير من شؤونهم على التجارة المكية حتى فى صنوف الترف . وكانت لقريش رحلتان تجاريتان ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ورحلة فى الصيف الى الشام . وكانوا فى رحلتهم آمنين لما وقر فى نفوس العرب من احترام قريش وأنهم أهل الحرم وولاة البيت .

كانت هذه التجارة سبباً فى اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، فقد مكّنت التجار من العرب من الاطلاع على بعض شؤون الممالك وعمرانها ، ونقلوا مع سلعهم كثيراً من الألفاظ الفارسية والرومية والمصرية والحبشية أدخلوها فى لغتهم وأخضعوها لقوانينهم .

ثانيا — الإمارات على التخوم :

كذلك من أسباب اتصال العرب بغيرهم من الأمم ما أنشئوه من إمارات على تخوم الممالك المجاورة ، من ذلك إمارة اللخميين فى الحيرة بجوار الفرس ، والغساسنة فى الشام بجوار الروم ، وكلا اللخميين والغساسنة من أصل يمنى كما يذكر النسابون .

وسبب إنشائهما أن الفرس والروم كانا على حدود العرب ، وكان عرب الجزيرة يهددون هاتين المملكتين بنوع من الحرب غير النظامية ، بالإغارة حيناً بعد حين فيسلبون ويعودون ، ولم يكن من السهل على هاتين الأمتين غزو العرب وفتح بلادهم لصعوبة السير فى الصحارى ، ولأنه ليس فى جزيرة العرب من الثروة ما يطمع فيها . فرأت كل أمة منهما أن تنشئ إمارة عربيـة على حدودها تدفع بها الغزوات ، وتأمن بها صد الغارات ، وأن تعهد بذلك للقبائل المجاورة فأنشأت الفرس إمارة الحيرة ، وأنشأ الروم إمارة الغساسنة .

إمارة الحيرة :

وكانت الحيرة على نحو ثلاثة أميال من الكوفة ، وقد كانت على أطراف العراق ، وصارت على عهد اللخميين مدينـة عامرة بنيت فيها القصور الفخمة ، واشتهرت بجودة هوائها لقربها من البادية . وكان أول الأمراء اللخميين فى الحيرة عمرو بن عَدِىّ حول سنة ٢٦٨ م فى عهد سابور الأول بن أردشير واستمرت إمارة الحيرة إلى سنة ٦٣٣ م حين فتحها خالد بن الوليد .

كان الأمير يعينه ملك الفرس من قبيلة لخم ، وكان الأمراء اللخميون فى شبه استقلال ؛ لأن نظام الفرس فى الحكم كان أشبه بالنظام الإقطاعى . وكان عرب الحيرة هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة ينقلون التجارة بينهما ، وينشرون

مدنية الفرس وثقافتهم ، وينقلون أخبارهم وأقاصيصهم . وقد تأثر الأدب العربى بهؤلاء الحيريين أثراً غير قليل ، فمن أشهر أمراء الحيرة النعمان الخامس ، زوج هند الملقب بأبى قابوس الذى قصده النابغة الذبيانى ومدحه بقصائده . والعرب يتحدثون كثيرا عن الخَوَرْنَق والسَّدير ، وهما قصران كالقلعتين بجوار الحيرة ، كما يتحدثون عن سِنِمَّار بانى الخورنق ويضربون به الأمثال . ويذكرون يومى النعمان : يوم نعيمه ويوم بؤسه ، كما يذكرون أن أهل الحيرة علموا قريشاً الزندقة فى الجاهلية والكتّابة فى صدر الإسلام .

وقد اشتهر من شعراء الحيرة عَدِىّ بن زيد العِبَادى نسبة الى عبَاد ، وهى قبيلة كانت تسكن الحيرة وفشت فيها النصرانية .

الغساسنة :

كذلك أنشأ الروم على حدود الشام إمارة الغساسنة وقد شمل حكمهم مقاطعتى حَوْران والْبَلقاء ، وتاريخهم أغمض من تاريخ اللخميين لأن الفرس عنوا بتاريخ من كان فى جوارهم ، ويفهم من قول الشعراء أحياناً أن عاصمة ملكهم كانت جَوْلان أو الجابية ، وأحياناً يذكرون ما يفهم منه أن عاصمتهم كانت جلّق بالقرب من دمشق .

والخلاف كبير بين ما ذكره العرب عنهم وما ذكره الأوربيون ، وعلى كل حال فمن أشهر ملوكهم الحارث بن جَبَلة ، وقد عينه الأمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩ م أميرا على جميع قبائل العرب فى الشام ، ومنحه لقب فيلارك وبطريق ، وكان الحارث نصرانياً على مذهب اليعاقبة ، وقد سافر الحارث إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣ م وهو الذى توسط لامرئ القيس الشاعر المشهور فى الذهاب إلى قيصر القسطنطينية ليستعين به كما يذكرون .

وقد اشتبك الغساسنة فى حروب مع اللخميين تبعاً للحروب التى كانت بين الروم والفرس ، ويذكر مؤرخو العرب أن آخر ملوكهم جَبلَةَ بن الأيْهَم ، وقد أسلم لما فتح المسلمون الشام ، وأحسن عمر بن الخطاب وفادته ، فوطئ رجل فَزَارِىٌّ فضل إزاره فلطمه جبلة ، فشكاه الفزارى إلى عمر ، فطلب القصاص منه ، فهرب الى القسطنطينية وتنصر ، ولم يزل بها حتى مات سنة ٢٠ هـ .

وكذلك كان الغساسنة واسطة بين عرب الجزيرة والروم يعلنون حضارتهم وينقلون أخبارهم ، ووفد عليهم كثير من شعراء الجزيرة كالنابغة الذبيانى والأعشى ، وعلقمة الفحل ، وحسان بن ثابت ، واشتهروا بين العرب بالكرم ، فقالوا : أوقر للضيف من بنى غسان .

البعوث الدينية :

وكان من وسائل الاتصال كذلك بعوث يهودية ونصرانية للدعاية ، ومن أجل ذلك اتصل نصارى العرب بالروم والحبشة ، واتصل يهود العرب بيهود الشام .

ونتج عن هذه الوسائل كلها تسرب أنواع من هذه الثقافات الأجنبية إلى العرب فى الجاهلية ظهرت فى الألفاظ اللغوية ، والقصص والأخبار ، وإن كان ذلك كله لم يبلغ شأوا بعيدا .

حياة العرب الاجتماعية والدينية والعقلية والأدبيـــة

الحياة الاجتماعية للعرب :

ينقسم العرب من حيث حالتهم الاجتماعيــة إلى قسمين ، سكان البدو وهم أغلب سكان الجزيرة ، وسكان الحضر وهم سكان المدن وما إليها . وهؤلاء الأخيرون كانوا يكثرون فى اليمن ويقلون فى الحجاز ، فإذا استثنينا سكان مكة ويثرب والطائف ونحوها فبقيتهم فى الحجاز بادون .

فأما أهل البدو فعيشتهم عيشة ارتحال وانتقال ، قل أن يقروا فى مكان، لأن أغلب أرض الجزيرة غير صالحة للزراعة لقلة المياه فيها ، فليس فيها أنهار ولا منابع مياه غزيرة ، وما يجرى فيها من سيول فسرعان ما تنشرّبه الرمال ، أراضيها العالية كنجد تمطرها السماء فى الشتاء فتنبت الأعشاب فى بقاع متفرقة من الأرض ، فتخرج قبائل العرب إلى المراعى القريبة بإبلهم وشائهم لرعى الكلأ ، إلى أن يشتد القيظ ويجف الزرع فيعودوا إلى أماكنهم . وقد تلوّن الشعر العربى بهــذه الظاهرة ، فتغنى الشعراء فى موسم الغيث بالمطر وبالربيع وبالكلأ ، وبالأزهار ونعوا على القيظ جدبه وفقره وعطله من الخير والجمال .

وقد دعتهم هذه الحال أن يسكنوا الخيام ، ينقلونها معهم إذا خرجوا لطلب المرعى ، أو سافروا للغزوات ، وكانوا يتخذون الخيام من الوبر والشعر والصوف ، وقد يقسمونها قسمين يفصل بينهما ستار مقدمها للرجال ومؤخرها للنساء . وكثيراً ما كانت هــذه الخيام موضوعاً للشعراء فى وصفها ووصف ما فيهـا ، كما كثر بكاؤهم على أطلالها ، وأطلالها هى آثارها الباقية بعد رحيل أهلها من حجارة نؤيها وقيام أثافيها ، أو تراكم كرسها ، أو رماد نارها ، أو أثر للعب صبيانها .

وأكثر طعامهم اللبن والتمر ، وقد غنيت اللغة بأسمائها على اختلاف أنواعها ، وأقل من هذا اعتمادهم على لحوم الشاء والإبل — وإن كثرت فى الشعر — لما أنها مظهر الجود وإكرام الضيف .

والإبل هى عماد الحياة فى جزيرة العرب . (والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وِمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها ، ويكتسون من أوبارها ويحملون عليها أثقالهم . وهى أصبر ما يكون على الجوع والعطش واحتمال البرد والحر ، قايضوا عليها فى المبايعات ، وقوموا بها الأشياء ، وافتدوا بها أسراهم فى الحروب والغزوات ، ووَدَوْا بها القتلى ، وأمهروا بها فى الزواج ، لذلك عنوا بتربيتها ، ومهَروا فى طرق إنتاجها ، وربطوا نوع حياتهم بحياتها ، يرحلون للرعى من أجلها ، ويتطلبون أماكن الدفء لتوليدها ، وقد بنى كثير من لغة العرب وأدبهم عليها ، فوضعوا أسماء لكل جزء منها وحالة من حالاتها ، واشتقوا منها التشبيهات والاستعارات ، وضربوا فيها الأمثال الكثيرة ، وقالوا القصائد الطويلة فى وصفها ووصف سيرها وتغنوا بأشعارهم فى حُدَائها .

وكان لديهم الخيل يُعْنَوْن بها . واشتهر عند العرب كثير من أسماء الخيول ، وربما كانت أعز ما يباع عند العرب ، وكانوا يرسلونها على الصيد ، وأقاموا لها السباق ووضعوا الأسماء لخيل الحلبة ، فالمجلِّى ثم المُصَلِّى ثم المُسَلِّى الخ وكانوا ينصبون فى حلبة السباق قصبة ، فمن سبق اقتلعها وأخذها . وقالوا فى ذلك : — حاز قصب السبق .

ولكن كانت الخيل — على كل حال — متاع المترفين ، أما الإبل فمتاع العرب جميعاً ، ولذلك كان ما ورد من اللغة والأدب فى الخيل أقل مما ورد فى الإبل .

*
* *

سادت بين العرب الحرب والغزو والسلب .فالعلاقة بين القبائل،سواء أكانت من أصل واحد أم أصول متعددة ، علاقة عداء غالباً ؛ ومن أجل هذا شغلت الحروب والقتال أكثر حياة القبائل والأفراد . فالحجازيون يعادون اليمنيين أشد عداء وكان بين تميم وبكر بن وائل حروب تكاد تكون متواصلة ، وبين غطفان وهوازن كذلك . وإمارة الحيرة التى فى كنف الفرس بينها وبين إمارة غسان التى يظلها الروم عداء موروث . وقد رويت لنا عنهم حروب كثيرة ، والمؤرخون يسمون كل وقعة من الوقائع بين القبائل يوما . ويسمون هذه الحروب « أيام العرب » وقد ذكروا أن أبا الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ألف كتابا فى أيام العرب يشمل ألفا وسبعمائة يوم .

ولكن بين هذه الحروب كانت تنبعث علاقة صداقة بين الأفراد والقبائل تطول حيناً وتقصر أحياناً ، كما كان ينبعث بعض الأصوات لبيان ويلات الحرب والدعوة إلى السلم ، كما ترى فى معلقة زهير بن أبى سُلْمَى ، فهى مرآة صادقة لتصوير هذه الحال إذ ذاك .

أوضح عاطفة عند العربى — فى هذا الباب — الانتقام والأخذ بالثأر ، يجن جنونه ، ويقلق به مضجعه إذا اعْتُدِى عليه حتى يأخذ بثأره أو يموت .

وكان ما ورثنا من أدبهم ظلاًّ لهذه الحياة ؛ فقد ملئ الشعر الجاهلى بوصف الوقائع والحروب والتمدح بالأخذ بالثأر ، والفخر بالانتصار والأنفة من المذلة والاعتزاز بالقوة والحرص على الشرف ، وعدم الحرص على الحياة والمال . كما ملئ بوصف آلات الحرب من رماح وأسنة وسهام ومجانٍّ ودروع وسيوف .

وكان لهذا النوع من الحياة أثر طبيعى ؛ وهو سيادة الأخلاق الحربية من شجاعة وكرم ووفاء . فأطنبوا فى مدحها ، وعدوها عنوان الرجولة وسموها آسماً جامعاً ، وهو « المروءة » .

* * *

وكان لهم من متع الحياة الصيد ، شغفت به بعض طبقاتهم . فقد يصطادون بالنبل والسهام ، وقد يصطادون بالحيوان المُعَلَّم ، كالكلب والفَهد ، وقد قالوا إن كُلَيْب بن وائل أول من اصطاد بالفهد . وورد فى شعرهم كثير من الأبيات يصفون فيها صيد بقر الوحش ، وحمار الوحش وغيرهما . كما ورد فى أقوالهم صيد الأسد ، وقد سموا الحفرة التى تحفر للأسد إذا أرادوا صيده « الزُّبْيَة » ومن أمثالهم : « بلغ السَّيْلُ الزُّبَى » .

وكانت عادة شرب الخمر ولعب الميسر فاشية فيهم إلى أن حرمها الإسلام « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

ولذلك قل أن ترى شاعراً جاهلياً يتحدث عن حياته من غير أن يتحدث عن الخمر ، وكرمه إذا شرب . ولكن يظهر أن شرب الخمر كان عادة المترفين لا عادة الشعب ؛ فإنه أفقر من أن يعتادها . وقد يتصل بالشراب الغناء ، فقد كان بعض الجوارى يغنين فى مجالس الشراب ، كما حكوا عن جاريتين كانتا تغنيان لعبد الله ابن جُدعان تسميان الجَرادَتين .

والمرأة كانت تشارك الرجل فى كثير من شؤون الحياة ، فهى تحتطب ، وتجلب الماء ، وتحلب الماشية ، وتنسج الملبس والمسكن . وأغلبهن سافرات يقابلن الضيفان ، ويتحدثن إليهم ويخترن أزواجهن ، كما يدل على ذلك ما نقل إلينا من الأدب الجاهلى . وكثيرا ما يستصحبهن الرجال فى الحروب ، ويقيمونهن خلفهن ليقاتل الرجال عنهن ، مخافة العار بسبيهن ، ولكن على العموم كن ضعيفات الشأن أيام الحروب ، والحياة العربية حياة حربية لا تغنى فيها النساء غناء الرجال ، لذلك حكى الله عن العرب فى القرآن الكريم أنهم كانوا يفرحون بولادة الذكور دون الإناث " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ "

وعلى كل حال حلّت المرأة فى الشعر المكان الأوّل فلا تكاد تخلو قصيدة من لافتتاح بذكرها والغزل بها . وكثيراً ما حكى الشعراء النزاع بينهم وبين النساء ، نهن يتطلبن من الرجال الاقتصاد فى المال حتى يسعد البيت ويدوم الرخاء ، والرجال تأبى إلّا السّرَفَ ، لأنه وسيلة الشرف ، كذلك كن كثيراً ما ينّصحن بالحرص على الحياة ويأبى الرجل إلا الاستهتار بها طلباً لحسن الذكر .

أما الحضريون فهم أهل الأمصار والمدن ، يعيشون عيشة قرار ، قد اتخذوا الدور والقصور ، وكانوا أقل شجاعة وأشدّ حباً للمال وأكثر توفرا على وسائل الترف والنعيم . وكان اليمنيون أمعن فى الحضارة ، وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم ، يدل على إفراط فى الترف من النسيج الفاخر ، وأطباق الذهب والفضة ، وتزيين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة . وقد أوصلهم إلى هذا كثرة الأموال فى أيديهم من طريق التجارة والزراعة ، وكان أكثر الحجازيين تحضراً قريش فى مكة ، فقد أغنتهم التجارة ومن يأوى إليهم من الحجاج فنعموا بما لم ينعم به غيرهم من سكان الحجاز .

حياة العرب الدينية :

ولم يكن للعرب فى جاهليتهم دين واحد بل اختلفوا طوائف ، فمنهم من عَبَد الكواكب ؛ فقد عرف بين اليمنيين من عبد الشمس وحكى الله عن قوم منهم : (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) وتسمّى بعض العرب بعبد شمس . وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نجم الشعرى ، وردّ الله عليهم فى قوله تعالى : (وأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى) وحكى القرآن الكريم عن قوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة ، وآخرين يعبدون الجن : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ ! قالوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) .

وقد روى أن قوماً من قريش اعتنقوا الزندقة ، أخذوها عن أهـل الحيرة . وهذه الزندقة تقول بإلهين : إله النور ، وهو أصـل كل خير . وإله الظلمة وهو أصل كل شر . وقوم من العرب أنكروا الأديان كلها وقالوا ما حكاه الله عنهم : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) .

ولكن — على العموم — كانت أكثر الأديان انتشاراً بين العرب الوثنية ، وهى عبادة الأصنام والأوثان ، وقد ذكر القرآن كثيرا من هذه الأصنام : اللات والعُزّى ومَناة ويَغوثَ ويَعوقَ ونسْرًا ، ووَدًّا وسُواعاً . فمن أقدمها مَنَـاة ، وكان منصوبًا على ساحل البحر بين المدينـة ومكة ، وكانت العرب تعظمـه وتذبح له الذبائح ، وكان أشهر الناس إعظامًا له الأوس والخزرج . وقد سمت العرب عبد مناة ، وزيد مناة ، وكان صنم اللّات فى الطائف ، وقد بنت عليه ثقيف بناء ، وكانت قريش وسائر العرب تعظمه ، ويسمون زيد اللات وتيم اللات . وكانت العُزّى أعظم الأصنام عند قريش .

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها هُبَل ، وقد ذكروا أنه كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان أدركته قريش مكسور اليد اليمنى فجعلوا له يدًا من ذهب .

وكانت حياة العرب متأثرة بهذه الأصنام ، فهم يُهدون إليها الهدايا ويذبحون عندها الذبائح ، ويستقسمون عندها بالقداح . وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر . كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به كذلك ، وكان

لغير قريش بيوت كالكعبة تضع فيها أصنامها ، وتعظمها وتهدى لها وتطوف بها .
ولكل بيت سَدَنة وحُجّاب .

وظلت هذه الأصنام تعبد حتى جاء الإسلام فحاربها أشد حرب وأزال من الكعبة كل ما فيها من أصنام ، وبعث رسول الله الرسل إلى البلاد المختلفة لتكسيرها أو حرقها حتى طهر جزيرة العرب منها .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى من هـذه الناحية رأيناه قليل التعرض للمسائل الدينية ، قليل الذكر للأصنام وعبادتها ، نعم قد يقسمون باللات أو اللات والعزى ولكن ذلك قليـل ، ومظهر دينى غير كبير . وسبب ذلك إما أن العرب وخاصة طبقة الشعراء لم تكن تأبه كثيرًا بالدين ، ولا تسودها العاطفة الدينية ، وإما أن رواة الشعر فى العصر الإسلامى لم يرووا من الشعر ما ظهرت فيه الوثنية ، تديناً .

وانتشرت بين العرب فى الجاهلية اليهودية والنصرانية ، وكان لكل منهمـا مناطق نفوذ :

فانتشرت اليهودية فى يثرب ، وهى التى سميت بعـد هجرة رسول الله إليهـا بالمدينة ، وحول المدينة كانوا فى فَدَك وخَيْبَر . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بنى النَّضير ، وبنى قَيْنُقاع ، وبنى قُرَيْظَة ، وكانت هذه القبائل اليهودية تقيم فى يثرب بين قبيلتى الأوس والخزرج ، وكانت العلاقة بين الطائفتين علاقة إخاء أحياناً وعداء أحياناً .

وكذلك انتشرت اليهودية فى اليمن ، ومن أشهر المتهوّدين منهم "ذو نُواس" أحد ملوكهم ، وقد تعصب لليهودية ، وأوقع بنصارى نجران فتعصب الحبشة لهم كما تقدم وغزوا اليمن انتقاما من ذى نواس . وتهوّد كذلك بعض الناس من كِنْدة وكِنَانة ، واشتهر من شعراء اليهود السموءل بن عادياء .

أما النصرانية ، فانتشرت فى ربيعة وغسان وبعض قُضَاعة لترددهم على الروم. وفى الحيرة فى قبائل شتى من العرب يقال لهم " العِبَاد " . وكان بنو تغلب من نصارى العرب ، وظل كثير منهم محتفظاً بنصرانيته إلى ما بعد الإسلام ، ومن أشهر مواطن النصرانية فى اليمن مدينة نجران ، وكان نصارى نجران على مذهب اليعاقبة كالحبشة ، وكان القسوس والرهبان يَرِدون أسواق العرب ويعظون ويدعون إلى دينهم ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعراء النصرانية فى الجاهلية قُسُّ بن ساعدة ، وأُمَيَّة بن أبى الصَّلْت وعَدِىّ بن زيد.

وكان فى العرب طائفة قليلة نظرت فى الأديان الفاشية بينهم فلم ترضها ، فلم تؤمن بالأصنام ولا باليهودية والنصرانية ، ونزعت إلى عبادة الله وحده ، وكانوا يسمّون الحُنَفَاء . وكان منهم زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، ووَرَقة بن نَوْفل ، وعثمان ابن الحارث . وكانوا يقولون لقريش إنكم تعبدون مالا يضر ولا ينفع من الأصنام ، ولم يكونوا يحاورونهم فى شعائرهم ، ولا يأكلون ذبائحهم .

هــذه خلاصة لمـا كان عليه العرب من تشعب فى الأديان ، واختلاف فى المذاهب ، وقد ظلوا فرقاً حتى أتى الإسلام فوحد دينهم ونشر بينهم عبادة الله وحده لا شريك له وجعل شعارهم " لا إله إلا الله " .

حياة العرب العقلية :

فى مثل هذا الطور من الحياة الاجتماعية التى شرحناها لا يكون علم منظم ، ولا يكون علماء يتوافرون على العلم يدوّنون قواعده ، ويوضحون مناهجه . لأن العــلم دائمـا نتيجة الحضارة ، إذ فيها يكثر المـال ، وتتوافر سبل العيش ، فيجد قوم من وقتهم — مع سهولة الحصول على عيشهم — ما يمكنهم من التفرغ للعلم والبحث فى نظرياته وقضاياه .

ولكن إذا عدمت الكتب والعلم المنظم فهناك الطبيعة المفتوحة أمام أعينهم لا يحجبها دور ولا قصور ، ولا يصدهم عن النظر إليها صاد ، وهناك ما يستفيدونه من تجارب الحياة العملية ، وما يهديهم إليه العقل الفطرى ، وهذا ما كان فى الجاهلية ؛ فقد عرفوا كثيرا من النجوم ومواقعها ، والأنواء وأوقاتها ، وعرفوا طباً هدتهم إليه التجارب وتوارثه جيل عن جيل ، وكانت لهم نظرات فى الحياة ، وخطرات فلسفية هدى إليها العقل السليم .

وقد تسرب إلى العرب بعض أخبار الفرس وملوكهم وحِكَمهم من أهل الحيرة وبعض أخبار الروم من الغساسنة ، ومن تجار العرب الذين ينتقلون بتجارتهم فى هذه البلدان، ولكن لم تكن معرفتهم بهذه الأمم معرفة تامة ، ولادقيقة . بل دخلها بعض التحريف لكثرة الحوائل الطبيعية بين العرب وغيرهم من الأمم ، ولأن العرب كانت تغلب فيهم الأمية ولايحسن القراءة والكتابة منهم إلا القليل، فأغلب ماينقل كان ينقل شفاهاً ، وذلك عرضة للتحريف .

كذلك حملت اليهودية والنصرانية إلى العرب فى الجاهلية بعض ما فى التوراة والإنجيل ، وبعض الأخبار والقصص عن اليهود والنصارى فى الأمم المجاورة .

ولكن أكبر ما امتاز به العرب حدة الذكاء ، وحضور البديهة ، وفصاحة القول ، ولذلك كان أكبر مظاهر حياتهم العقلية لغتهم ، وشعرهم ، وخطبهم ، وأمثالهم ، وسيأتى بيان ذلك .

الشعر الجاهلى

أوليته :

من العسير تحديد تاريخ لبدء الشعر الجاهلى ، ذلك لأنه من الطبيعى أن كل علم وفن يبدأ بمحاولات ناقصة ترقى وتتم على مر الزمان . والشعر الجاهلى الذى وصل إلينا كامل فى أوزانه ، راق فى تعبيره راق فى معانيه ، فلا بد أن يكون قد سبق ذلك كله أقوال من الشعر لم يكن وزنها كاملاً ، ولانسجها محكماً ، ولا معانيها راقية . ثم أخذت ترقى ويزول ما فيها من نقص حتى كانت القصائد والمعلقات بحالتها التى نقلت إلينا ، وفى أقوال أقدم الشعراء الذين وصل إلينا شعرهم ما يدل على ذلك ، فقد رُوى لامرئ القيس قولُه :

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِذَامِ

وابن خذام هـذا شاعر كان قبل امرئ القيس لم نسمع له شعراً . ويقول عنترة :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ

وأقدم شعر وصل إلينا كان أيام حرب البَسُوس ، أو قبل ذلك بقليل ، أى أنه لايعدو مائة وثلاثين سنة قبل الهجرة .

وكان الشعراء الأولون يقولون الأبيات عند حادث يعرض لهم أو عاطفة تهيج لها نفوسهم ثم ارتقوا فى هذا الباب ، فكانوا يقصدون القصائد . وقد ذكروا أن أول من فعل ذلك المُهَلْهِل بن ربيعة (خال امرئ القيس) وامرؤ القيس ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

وكان الذى أثار المهلهل لقول الشعر قتل أخيه كُلَيْب وما تبعه من حرب بين بكر وتغلب .

كما ذكر بعضهم أن الشعر بدأ بالرجز لسهولة وزنه وهو (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ثم تنقل الشعراء إلى بحور الشعر الأخرى .

وقد كثر الشعراء فى الجاهلية حتى ليكاد يكون لكل قبيلة شاعر أو شعراء ، ولكن ليسوا كلهم نابهين . وكل الشعراء الذين علا صيتهم كانوا فى الشمال — الحجاز وما إليها — فمنهم من كان من أصل يمنى رحل إلى الشمال كامرئ القيس من كِنْدَة ، والأَفْوَه الأَوْدِىّ من مَذْحِج ، وحاتم الطائى من طيئ . ومنهم من كان من أصل عدنانى إما من ربيعة كالمهلّهل ، والمُرَقَّش الأكبر والأصغر ، وطَرَفة والحارث بن حِلِّزة والمُتَلَمِّس والأعشى . وإما من مضر، وأشهر فروعها فى الشعر .

١ — فرع قيس ، وكان منهم النابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سُلْمَى وابنه كعب ولَبيد والحُطَيْئة .

٢ — فرع تميم ، وكان منهم أوس بن حجر ، وقد ذكر بعض مؤرخى الأدب أن الشعر كان أول أمره فى ربيعة ، ثم تحول إلى قيس ، ثم استقر فى تميم .

أثر الشعر فى الحياة العربية :

كان الشاعر من ضرورات القبيلة ، يعلن مناقبها ، ويرد بشعره كيد أعدائها ويُحَمِّسها فى الحرب ، ويهديها فى السلم . فكان مقامه منها مقام صحف الأحزاب اليوم ، كل صحيفة تبين وجهة نظر حزبها ، وتدافع عن آرائه ، وتصد هجوم أعدائه وتنشر مااستطاعت مبادئه ، وتشيد بذكر مزاياه ومناقبه . كذلك كان الشعراء فى الحرب كموسيقى الجيش تثير فى النفوس الميل للقتال ، وتبعث على الاستماتة للانتصار . لذلك كانت القبيلة تغتبط بالشاعر ينبغ فيها وتعتقد أنه الذائد عن حوضها ، والرافع لشأنها . قال ابن رشيق فى كتابه العمدة : « كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء

يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم » يشيد بالخامل فيرفعه ، ويثلب الرفيع فيضعه ، ويسير قوله فيكون له الأثر البعيد . لذلك كان الناس يتسابقون إلى إكرام الشعراء اتقاء لذمهم أو رغبة فى مدحهم . والقِصَص كثيرة فى قبائل وأفراد تحمّلت بهجاء الشعراء لها ، وآخرين نُبِّهوا بإشادة الشعراء بذكرهم .

كذلك الشعراء كانوا — فى الجاهلية — من أرقى الطبقات عقلا ، وأدقهم شعوراً ، كما يدل على ذلك اشتقاق اسمهم ، سبقوا قومهم إلى إدراك كثير من حقائق الحياة ، فصاغوها فى شعرهم كما فعل زُهَير بن أبى سُلْمَى فى حِكمَه ، وشعروا بما لم يشعر به الناس أو بما شعروا به ولكن لم يستطيعوا التعبير عنه . فعبر الشعراء عن شعورهم وتغنوا بما فى نفوسهم ، فأرووا رغباتهم . والشعراء فى الأمم المتبدية يقومون بما يقوم به الفلاسفة والعلماء فى الأمم المتحضرة ، يرسمون المثل الأعلى ، ويفتحون أعين الناس لإدراك ما حولهم من شؤون الحياة ونقدها . وكذلك فعل الشعراء الجاهليون كما سنرى بعد .

فنون الشعر الجاهلى :

قسم العرب الشعر إلى أبواب : كحماسة وأدب وغزل وهجاء الخ . والفرنج يقسمون الشعر عادة إلى شعر الملاحم أو الشعر القصصى ، ويعنون به الشعر الذى قيل فى الوقائع الحربية ، والمناقب القومية فى شكل قصة كالياذة هوميروس ، وشاهنامة الفِرْدَوْسى . وشعر غنائى وهو الشعر الذى يعبر به الشاعر عن شعوره ، وما يضطرب فى قلبه من عواطف كشعر الغزل والفخر . وشعر تمثيلى وهو الشعر يصور حادثة ويتصور لها أشخاصاً يُنطق كلا منهم بما يتفق وشخصيته وموقفه .

والشعر الجاهلي ليس فيه ملاحم طويلة مع كثرة حروب العرب وأيامهم ، فقد كان لهم من الوقائع الحربية ما لو نظم لكان ملحمة من أوفى الملاحم وأطولها وقد عللوا ذلك بضيق الخيال العربي ، ولكن يظهر أن السبب أن الملحمة نوع من أنواع التاريخ الأدبي ، أعني تاريخاً في قالب شعري ، وتدوين التاريخ وما يتطلبه من تحليل للأشخاص وربط الحوادث درجة لا تكون إلا مع قدر صالح من الحضارة .

ومع هذا فقد ورد قليل من القصص الصغيرة الساذجة في شعرهم كالتي وردت في مُعلَّقة عمرو بن كُلْثوم :

أبا هند فلا تَعْجَلْ علينا ... وأنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقينَا
بأنّا نُورِدُ الرَّاياتِ بِيضاً ... ونُصدِرهن حمراً قد رَوِينا[1]

وكقول الحارث بن حِلِّزة :

أيها الشَّانِئُ المبلِّغُ عنّا ... عندَ عَمرٍو وَهَلْ لذاكَ بقاءُ
مَنْ لَنا عِندَهُ مِنْ الخيرِ آيا ... تٌ ثلاثٌ في كُلِّهِن القَضاءُ
آيةٌ شارِقُ الشَّقِيقَةِ إذْ جا ... ءوا جميعاً لِكُلِّ حيٍّ لِواءُ
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِينَ بِكَبْشٍ ... قَرَظِيٍّ كَأَنَّهُ عَبْلاءُ
وصَتِيتٍ مِنَ العَواتِكِ ما تَنْـ ... ـهاهُ إلاَّ مُبْيَضَّةٌ رَعْلاءُ
فَرَدَدْنَاهُمُ بِضَرْبٍ كَمَا يَخْـ ... ـرُجُ مِنْ خُرْبَةِ المَزَادِ المَاءُ
وَحَمَلْنَاهُمُ عَلَى حَزْنِ ثَهْـلا ... نَ شِلالاً وَدُمِّيَ الأَنْسَاءُ
وَجَبَهْنَاهُمُ بِطَعْنٍ كَمَا تُنْـ ... ـهَزُ عَنْ جَمَّةِ الطَّوِيِّ الدِّلاءُ
وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللهُ ... وَمَا إنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ الخ.

---

(١) انظر بقية الأبيات في المنتخب ج ٢ ص ١٢

وقول الأعشى فى حادثة السموءل :

شُرَيحُ لا تترُكنّي بعدَ ما علِقت حِبالَكَ اليوم بعدَ القدِّ أظفارِى

قَدْ جُلتُ مَا بَيْنَ بَانِقْيَا إلَى عَدَنٍ وَطَالَ فِي الْعُجْمِ تَرْدَادِى وَتَسْيَارِى

فكان أكرمَهُمْ عهداً وَأَوْثَقهم مجــداً أبوك بعُرْفٍ غَيرِ إنْكَارِ

كالغيث ما استَمْطَرُوهُ جادَ وَابِلُهُ وفِى الشَّدَائد كالمُسْتَأْسِدِ الضَّارِى

كُن كالسموءل إذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ فى جَحْفَلٍ كَهَزِيعِ اللَّيْلِ جَرَّارِ

اذ سامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ فقال له : قُلْ مَا تَشَـاءُ فإنى سـامعٌ حَارِ

فقال : غَدْرٌ وَثُـكْل أنتَ بَيْنَهُمَا فاخْتَرْ ، وما فِيهما حَظٌّ لمختَارِ

فَشَكَّ غير طويل ثمّ قَالَ لَهُ : اقتُلْ أسِـيرَك إنِّى مَانِـعٌ جَارِى

فاختارَ أَدْرَاعَهُ كَى لا يُسَبَّ بِهَـا ولَمْ يَكُنْ وَعده فِيهـا بِخَتَّارِ

أما أكثر أنواع الشعر الجاهلى فغنائى من هجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف .

فالهجاء ربمـا كان أوضح مظهر من مظاهر الشعر الجاهلى وأكثر فنونه ، وذلك راجع إلى ما قدمنا من أن الحروب بين القبائل تكاد تكون متواصلة ، وكان حرب اللسان من طريق الشعراء صدى لصليل السيوف ووقع السهام . فالشاعر من قبيلة يهجو القبائل الأخرى ، ويعيرها بأفعالهـا ، وما صدر من أفرادها ، ويؤول ما صدر عنها تأويلاً سيئاً ، وقد يختلق عليها جرائم لم ترتكبها فيفعل الشعراء الآخرون فعله ، وينقضون عليه قوله[1] .

---

(١) من أمثلة الهجاء

قول النابغة الذبيانى

عَيَّرْتَنِي نَسَبَ الْكِرَامِ وإنَّمَـا فَخْرُ الْمُفَاخِرِ أنْ يعدّ كَرِيمَـا

وَلحِقْتَ بالنَّسبِ الَّذِى عَيَّرْتَنِى وَتَرَكْتَ أصْلَكَ يا يَزِيدُ ذَمِيمَـا

لَوْلَا بَنُو عَوْف بن بُهْثَةَ أصْبَحَتْ بالنَّعْفِ أُمُّ بَنِى أبيكَ عَقِيمَا

ويتبع ذلك الفخر بنفسه وبقومه ، وما أتى وأتوا من مناقب وأعمال عظام[1]

كذلك الغزل فقد شببوا بالنساء ، ووصفوا جمالهن ، كما وصفوا فعل الهوى بهم . والشعراء فى ذلك بين متهتك فى شعره فاحش كامرئ القيس ، وعفيف مثل عنترة وزهير .

ولهم شعر الحِكَم ، صاغوا فيه تجاربهم فى الحياة ، ونظراتهم إلى العالم ، وأخلاق من حولهم من الناس ، وقد نبغ فى ذلك الشَّنفَرى وزهير بن أبى سلمى فى معلقته .

وأجادوا فى وصف مايحيط بهم من مناظر كوصف أمرئ القيس لليل ، ولبيد وطرفة للناقة ، والشنفرى للذئاب الجائعة ، والنابغة لنهر الفرات ، وعنترة للرماح . واستخدموا فى هذا الوصف تشبيهات رائعة ، اشتقها خيالهم من بيئتهم ولم يمعنوا فى التصورات الخيالية بل كانوا أقرب إلى وصف الواقع كما هو مستعينين بالخيال القريب .

---

(1) من ذلك قول امرئ القيس :

مَا يُنكِرُ النَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُم ... كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وقول النابغة يفخر بنفسه بعد هجاء زرعة .

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... يُهْدِى إِلَىَّ غَرَائِبَ الأَشْعَارِ

فَحَلَفْتُ يَا زُرْعَ بْنَ عَمْرٍو أَنَّنِى ... رَجُلٌ يَشُقُّ عَلَى العَدُوِّ ضِرَارِى

أَرَأَيْتَ يَوْمَ عُكَاظَ حِينَ لَقِيتَنِى ... تَحْتَ العَجَاجِ فَمَا شَقَقْتَ غُبَارِى

إِنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بَيْنَنَا ... فَحَمَلْتُ بَرَّةَ وَاحْتَمَلْتَ فَجَارِ

خصائص الشعر الجاهلى وألفاظه ومعانيه :

كان الشعر الجاهلى صورة صادقة لحياة العرب الاجتماعية التى شرحناها قبل ، ومن ثم قالوا : إن الشعر ديوان العرب سجلوا فيه حروبهم وأخبارهم وعاداتهم وعقليتهم ، ودوّن فيه الشاعر ما رأى وما شعر ، ومزج فيه الحياة التى حوله بمشاعره ، وعبر عن ذلك بأصدق لفظ وأقربه ، وهو فى هذا يمتاز عن كل شعر عربى ظهر بعد ، لأن الشعر الجاهلى كله كان منبعثاً عن النفس مُبْتَكَراً خالياً من التقليد ، وما أتى بعده من شعر كان يحتذى حذوه ، ويسير على منهجه ، فلم يكن كله يعبر تعبيراً صادقاً عن الحياة التى يحياها أهله .

ويمتاز الشعر الجاهلى بقلة التكلف ، وهذه نتيجة الحياة البدوية . فكلما كانت الحياة ساذجة لاتكلف فيها ولا تعقيد ، كان الشعر خالياً من التكلف إلا فى القليل النادر، ومن نتائج ذلك القصد فى المبالغة ؛ فالشاعر الجاهلى أميل الى الإيجاز يعبر عما يقصده بأقرب لفظ وأوجزه ، غير ميال الى الإغراب . فان كانت هناك ألفاظ غريبة علينا فذلك لبعد عهدنا بالشاعر ، وعدم وقوفنا وقوفاً تاماً على نوع حياته ومرمى ألفاظه . وهو أزهد مايكون فى تزويق اللفظ وتجميله ، لايتعمد الى جناس أو ضرب آخر من البديع إلا أن يأتى عفواً .

وكذلك قول السموءل :

وَإِنَّا أُنَاسٌ لاَنَرَى الْمَوتَ سُبَّةً ... إِذَا مَارَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

وَمَا مَاتَ مِنَّا وَاحِدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلاَ طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

وانظر فى ذلك المنتخب .

تسير القصيدة فيه على منهج واحد تقريباً فهى — إذا استثنينا قصائد الرثاء وأمثالها — تبتدئ بالتشبيب بالمرأة ، وقد يصف انتقالها من مكانها ووقوفه على أطلالها ، وبكاء دمنها . وقد يصف جمالها ، ولوعته من حبها ، ثم يصف فرسه أو ناقته ، وسرعتها وسهولة سيرها . وقد يشبهها بما يعرف من الحيوانات الوحشية من وعل ونحوه ، ويخترع فى ذلك التشبيهات تدل على معرفته لعاداتها ، وأنواع معيشتها وقد يصف مامر عليه فى طريقه ، ثم ينتقل إلى غرضه من القصيدة بفجاءة من غير تكلف فى الربط غالباً ، من فخر بقبيلته أو هجاء لغيرها ، أو وصف وقعة ، أو تحذير لقوم أو شخص من أن تحدثه نفسه بالتعدى على قومه .

ثم يقف فى قصيدته كذلك من غير تكلف فى الوقف ، وقد يسوق أبياتاً من الحكمة يختم بها قصيدته .

وأوضح مايمثل هذه الخصائص ماروى لنا من المعلقات ، وقد بلغ أطولها مائة بيت وخمسة أبيات وأقصرها أربعة وستين بيتاً .

*
* *

وهنا أمر ان يجب التنبه إليهما :

الأول — أن الشعر الجاهلى لم يدوّن كتابة إلا فى العصر العباسى الأول ، وقبل ذلك كان يتلقاه الناس شفاها ، وكان لكل شاعر فى الجاهلية راوية يحفظ شعره و يروى عنه ، وكثيراً ما يكون الراوى نفسه شاعراً ، فقد ذكروا أن امرأ القيس كان راوية لأبى دُوَاد الإيادى ، وكان زهير راوية أوس بن حجر التميمى ، وكان الحطيئة العبسى راوية زهير المزنى وهكذا .

وعدم تدوين الشعر الجاهلى عقيب صدوره جعل بعضه محلا للشك ، وجعل كثيراً من أبياته تروى على أوجه شتى من اختلاف فى اللفظ ونحوه .

الثانى — أن الشعر الجاهلى كله ورد بلغة عدنان ولم يصل إلينا شعر يمنى . وقد ذكرنا قبل أن اليمنيين كانت لهم لغة تخالف لغة العدنانيين فى كثير من شؤونها . وسبب ذلك أن موطن الشعر الجاهلى — كما أشرنا — كان شمالى الجزيرة ، وأن هناك عوامل منذ أزمان قبل الإسلام عملت على توحيد لغات العرب وسيادة لغة قريش ، أهمها :

(١) هجرة كثير من اليمانية إلى ديار المضرية بالشمال وتكلمهم بلغتهم ، وقصد القبائل المختلفة مكة موطن قريش لزيارة الكعبة .

(٢) تجمع القبائل فى الأسواق المختلفة ، وأهمها : سوق عُكاظ قرب مكة ، وعرضهم فيه خطبهم وشعرهم .

(٣) عدم الاهتمام برواية شعر بلغة غير لغة القرآن إذ لا فائدة من الاستشهاد به لأن لغة حمير فى حكم الأعجمية بالإضافة إلى لغة «مضر» . على أن شعر اليمانيين لم يكن يخلو من ألفاظ حميرية كقول امرىء القيس :

وَإنَّ شِفَائِى عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ .

ففعل (هراق) حميرى و (أراق) مضرى .

فهذا كله جعل اللغات تتوحد ويزول تدريجياً ما بينها من خلاف .

المعلقات

اسم أطلق على قصائد طوال من الشعر الجاهلي . وسبب تسميتها بهذا الاسم ما رواه بعضهم من « أن العرب عمدت إلى سبع قصائد اختارتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القَبَاطِيّ المدرجة ، وعلقتها فى أستار الكعبة . فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات » وممن أيد هذا الرأى ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وابن رشيق صاحب العمدة ، وابن خلدون فى مقدمته وكلهم من المغاربة .

ومن العلماء من أنكر تعليقها على الكعبة ورأى أن هذه القصائد الطوال إنما جمعت فى العصر العباسى ، جمعها حماد الرواية (أحد علماء الأدب ورواته والمتوفى سنة ١٥٦) ذلك أنه لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه القصائد وقال لهم إنها هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة . ولم يصح عند هؤلاء العلماء قول من قال إنها علقت على الكعبة .

وممن ذهب إلى هذا الرأى أبو جعفر النحاس أحد علماء اللغة والأدب المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وكذلك الباحثون المحدثون ينقسمون إلى مذهبين ولكل على قوله أدلة لامحل لذكرها هنا .

كذلك يختلفون فى عدد المعلقات أو الطوال وعدد أصحابها ، فبعضهم يجعلها ثمانياً ، وبعضهم يجعلها عشراً . والقول المشهور أنها سبع وأن أصحابها هم امرؤ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة .

وعلى الجملة فهى من خير شعر العرب وأدله على لغتهم وبلاغتهم ووصف حياتهم الاجتماعية ومناحيهم فى الحياة . عنى العلماء بجمعها وشرحوها شروحاً مختلفة مختصرة ومطولة ، كما عنى كثير من المستشرقين بترجمة بعضها إلى لغات مختلفة ودراستها والتعليق عليها .

أصحاب المعلقات

١ — امرؤ القيس [١]

هو من قبيلة كندة ، وكندة من قبيلة يمنية ، كانت تسكن قبل الإسلام غربى حضرموت ، وكانت على اتصال بالحميريين ، وفى عهد حسان بن تبّع ملك حمير كان حُجْر بن عمرو سيدُ كندة فى حاشية حسان . وقد فتح حسان فتوحاً كثيرة فى جزيرة العرب ، فولى حُجْراً بعض قبائلها ودانت كلها لحُجْر الكندى ، كما دان حجر بالولاء لحمير . ونزل حجر نجداً ، وكان اللخميون ملوك الحيرة قد بسطوا نفوذهم على تلك البلاد ، وخاصة بلادَ بكر بن وائل ، فحارب حجر اللخميين وأزال نفوذهم .

وفى عهد الحارث بن عمرو بن حجر اتسع سلطان كندة ، واتصل الحارث بقُباذ ملك الفرس فولّاه الحِيرَة مكان اللخميين ، ونشر نفوذه — وسط الجزيرة — على كثير من قبائل العرب ، وفرق الملك فى أبنائه الأربعة ؛ فولى ابنه حُجْراً (أبا امرئ القيس) بنى أسد ، وابنه شُرَحْبيل بكر بن وائل ، وابنه مَعْدِ يكرِب قبيلة قيس ، وكنانة ، وابنه سَلِمَة قبيلتى تغلب والنَّمِر بن قاسط .

ولكن هذه السلطة لم تدم طويلا ، فقد عاد اللخميون إلى نفوذهم فى الحيرة وقربهم من ملك فارس ، ودسوا الدسائس لأولاد الحارث فقتل سلمة وشرحبيل ، وتنكر بنو أسد لحُجْر ، ونبذوا طاعته ، وأمسكوا عن دفع الإتاوَة له . واستعان حجر بجند من ربيعة وأعمل فى بنى أسد السيف ، واستباح أموالهم ، وحبس أشرافهم ، ومنهم عَبيد بن الأبرص الشاعر ، ثم رق لهم وأطلق سراحهم فحقدوا عليه واغتالوه ،

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر .

وقد جاء فى أخبار الرومان أن حجراً هـذا (Ogdros) وأخاه معديكرب قاما ببعض غزوات على حدود المملكة البيزنطية فى أواخر القرن الخامس الميلادى — وبموت حجر تضعضعت سلطة كندة .

قتل حُجْر ، وابنه امرؤ القيس غائب ، وقد وقع عليه عبء الأخذ بثأر أبيه من بنى أسد ، واسترداد ملكه .

من هذا نرى أن امرأ القيس نشأ فى بيت ملك واسع الجاه ، وأنه — وإن كان من أصل يمنى — قد نشأ فى نجـد وسط قوم عدنانيين يتكلم بلغتهم ويشعر بلسانهم . وأنه وقومه ورثوا العـداء للخميين ، وكانت حيـاة ملوك كندة سلسلة حروب ومكايد بينهم وبين ملوك الحيرة .

وحياة امرىء القيس يحيط بها كثير من الغموض ، وتختلف فيهـا روايات الأدباء لبعد عهده وبداوة قومه . وتقول إحدى هذه الروايات إنه نشأ نشأة ترف، يحب اللهو ويشبب بالنساء ويقول فى ذلك الشعر المـاجن فطرده أبوه ، وآلى ألا يقيم معه ، فكان يسير فى أحياء العرب ، ومعه طائفة من شباب القبائل الأخرى ، كطيىء ، وكلب ، وبكر بن وائل ، يجتمعون على الشراب والغناء عنـد روضة أو غدير ، ويخرج هو للصيد فيصيد ويطعمهم من صيـده . وظل كذلك حتى جاءه نعى أبيه وهو بدَمُّون (قرية بالشام وقيل فى اليمن) فرووا أنه قال : " ضيعنى أبى صغيراً ، وحمّلنى دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر " .

رحل امرؤ القيس يستنصر القبائل للأخذ بثأر أبيـه من بنى أسد فاستنجد بقبيلتى بكر وتغلب فأعانوه وأوقعوا ببنى أسد ، وقتلوا منهم ، واكتفت بكر وتَغْلِب بذلك ، وقالوا له قد أصبت ثأرك وتركوه . ولكن امرأ القيس كان يريد التنكيل ببنى أسد ، ويحاول أن يعيد لنفسه ملك أبيـه ، فلم يقنعه ما فعلت بكر وتغلب ، فذهب إلى أهله باليمن يستنصرهم ، فأعانوه بجنود ذهب بهم إلى بنى أسد ، ولكن

ملك الحيرة أخذ يؤلب عليه ويدس الدساس له حتى فشل — وظل شريداً يتنقل بين أمراء العرب — حتى نزل أخيرا على السموءل بتَيْماء فأجاره . وطلب إليه امرؤ القيس أن يكتب إلى الحارث — أمير الغساسنة بالشام — ليوصله إلى قيصر ملك الرومان ويمهد لامرئ القيس السبيل للسفر إلى القسطنطينية ، يطلب المعونة منه ليعيد إليه ملكه ، فأجاب السموءل طلبه ، فأودعه امرؤ القيس امرأته وماله ودروعاً كان يتوارثها ملوك كِندة ، ورحل الى قيصر . وكان ذلك فى عهد القيصر (يوستنيانوس) .

وقد رووا أن القيصر أحسن وفادته ، وكان السبب فى ذلك — على ما يظهر — أن امرأ القيس كان طريد اللخميين فى الحيرة ، وأمراء الحيرة فى كَنَف الفرس ، والفرس أعداء الروم : فلعل (يوستنيانوس) أراد أن يعينه ويجعل منه ومن أعوانه جيشاً ينتقم بهم من أمراء الحيرة ، ويصطنعه كما اصطنع غساسنة الشام .

وقد ذكر بعض مؤرخى الرومان خبر رحلته الى القسطنطينية ، وسموه «قيساً» لا امرأ القيس ، وذكروا أن القيصر وعده بإعادة ملكه ثم ولاه فلسطين . ولكن هذا لم يرض امرأ القيس فقفل راجعا .

ولكن مؤرخى العرب يروون أن القيصر قَبِل وفادته وضم إليه جيشاً ، وفيهم جماعة من أبناء الملوك ، وأن قوما من أصحاب قيصر قالوا له : « إن العرب قوم غدر ، ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه » .

وآخرون يروون أن بعض العرب ممن كان مع امرئ القيس ذكروا للقيصر أن امرأ القيس قال لقومه إنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، فأرسل قيصر إليه حلة مسمومة فلما لبسها أسرع فيه السم وسقط جلده ، ومن أجل هذا سمى «ذا القُرُوح» ومات بأنقرة وهو عائد من القسطنطينية . والظاهر أن امرأ القيس أصيب أثناء عودته بمرض جلدى سبب له قروحا فنسج الرواة حول ذلك هذه الأسطورة .

على كل حال من المرجح أنه سافر إلى القسطنطينية ، وأنه لم يفز بكل ما أمل من قيصر ، وأنه مات أثناء عودته ، وأن ذلك كان حول سنة ٥٤٠ م أو بعد ذلك بقليل .

* * *

ويظهر أن دين امرىء القيس كان الوثنية ، وأنه كان غير مخلص لها ، فقد رووا أنه لما خرج للأخذ بثأر أبيه مر بصنم للعرب تعظمه يقال له ذو خَلَصَة ، فاستقسم بقداحه ؛ وهى ثلاثة : الآمر والناهى والمتربص . فأجالها فخرج الناهى ، فعل ذلك ثلاثا فجمعها وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم ، وقال : « لو كان أبوك قتل ما عُقْتَنِى » .

وكان امرؤ القيس يلقب بالملك الضِّلِّيل لغوايته وعهره ، وبذى القروح لما أصيب به فى مرضه كما أسلفنا .

شـــعره :

أجمع مؤرخو الأدب على أن آمرأ القيس أسبق شـعراء العربية إلى ابتداع المعانى ، والتعبير عنهـا ، وأنه افتتح أبواباً من الشعر ووفق إلى تشبيهات وطَرَق موضوعات لم يُسبق إليها ؛ ففتح باب الغزل وأطال الوصف ، وأمعن فيه ، وأبدع فى تصـويره . هـذا إلى لفظ جزل موجز ، وسبك مُحْكَمَ يتخلله مثل مرسل ، وحكمة بالغة .

وكان شـعره مرآة لحياته ، وتاريخ قومه ، فقد ذكرنا أنه كان لاهيًا مولعاً بالشراب ، وما إليه ، فكذلك كان شعره فى شبابه ؛ خمر ونساء وصيد . (١)

وهو مُتْرَف أشـد الترف يخرج إلى الصيـد بالطهاة يطهون له ولصحبه ما يصيد :

وظل طُهاةُ اللّحمِ مابين مُنْضجٍ صَفيفَ شِوَاءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّل

حتى إذا انتهت حياة اللهو والترف وحمل عبء أبيه كان شعره صورة لآماله :

فَلَوْ أنَّ مَا أسْعَى لِأدنى مَعيشَةٍ كَفَانِى، ولَمْ أطْلُبْ،قليلٌ مِنَ المَالِ
ولكنّما أسـعَى لِمَجْد مُؤَثَّل وقد يدرِكُ المجـدَ المؤثل أمثالى

---

(١) من ذلك قوله فى النساء :

وبيضـة خدر لا يُرَام خباؤُها تمتعتُ من لهـو بها غيرَ مُعْجَل
تجاوزتُ أحْرَاساً إليهَا ومعشراً علىَّ حراصاً لو يُسِرُّون مقتلى

الخ الأبيات :

انظر الأبيات فى المنتخب ج ٢ — ص ٣

وهو يصف حزنه على أبيه ، وتهديده لقتلته بنى أسد :

تَطَاوَلَ لَيلُكَ بالأثْمُدِ ونامَ الخَلِيُّ ولَمْ ترقُدِ (١)
وبات وباتَتْ له ليلةٌ كليلة ذى العائرِ الأرْمَدِ (٢)
وذَلِكَ مِن نَبإٍ جاءَنِي وخُبِّرتُهُ عَنْ أبِي الأسْوَدِ
ولَوْ عَنْ نَثَا غَيرِهِ جاءَنِي وجُرْحُ اللِّسانِ كجُرْحِ اليَدِ (٣)
لَقُلْتُ من القولِ ما لا يَزَا لُ يُؤْثَرُ عَنِّي يَدَ المُسْنَدِ (٤)

*
* *

فإن تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نُخْفِهِ وإنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لا نَقْعُدِ
وإن تَقْتُلُونا نُقَتِّلْكُمُ وإن تَقْصِدُوا لِدَمٍ نَقْصِدِ

*
* *

وأعْدَدْتُ لِلحربِ وَثَّابَةً جَوادَ المحَثَّة والمُرْوَدِ

وهو يتردد فى القبائل يستصرخها ، يمدح من نصره ، ويذم من خذله ، فيمدح سعد بن ضَبَاب الإيادى ، وكان قد نزل به فأنجده :

سأشكُرُكَ الَّذِى دافَعْتَ عَنِّي وما يَجْزِيكَ مِنِّي غَيْرُ شُكْرِي
فما جارٌ بِأوْثَقَ مِنْكَ جاراً ونَصْرُكَ لِلفَرِيدِ أعَزُّ نَصْرِ

---

(١) الأثمد اسم موضع .

(٢) العائر الذى يجد وجعا فى عينه وهو فى هذا البيت الوجع نفسه .

(٣) النثا الحديث .

(٤) المسند الدهر، يريد أبدا .

ويهجو سُبَيْع بن عوف :

أبلغ سُبَيْعًا إنْ عَرَضْتَ رِسَالَةً إنِّى كَظَنِّكَ إن عَشَوتَ أمامِى
أَقْصِر إليكَ مِنَ الْوَعِيدِ فإنَّنى مِمَّا أُلاَقِى لاَ أَشُدُّ حِزَامِى

ثم هو يذهب إلى قيصر فيصف ذلك فى شعره :

بَكَى صاحِبِى لَمَّا رَأَى الدَّربَ دُونَهُ وَأيْقَنَ أنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا نُحاولُ مُلْكاً أوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرا

وهكذا كان شعره صورة لما روى من حياته .

وأشهر شعره معلقته وهى من البحر الطويل مطلعها :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وتقع فى واحد وثمانين بيتا . والظاهر أنه قالها أو أكثرها فى أيام شبابه ولهوه وأن موضوعها الغزل فى بنت عمه عُنَيْزة .

وقد بدأها بالبكاء على الأطلال ، وتبريح الهوى به :

وُقُوفًا بِها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُم يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وَإنَّ شِفَائِى عَبْرَةٌ مُهرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

ثم ينتقل إلى الغزل ، ويذكر أيام لهوه مع أحبته ولا سيما يومه بدارة جُلْجُل . وهو فى غزله هذا فاجر داعر ، لايتعفف عن وصف ولا يكتفى بايماء ، ويستمر فى هذا إلى البيت الثانى والأربعين ، ثم ينتقل إلى سلسلة من الأوصاف فيصف الليل :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَىَّ بِأنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِى
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِ ... بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

حتى إذا بلغ غايته أخذ فى وصف واد مقفر تعوى فيه الذئاب :

وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ ... بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِى كَالْخَلِيعِ الْمُعَيَّلِ

ثم وصف فرسه ، وسرعة عدوه :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

إلى أن يقول :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ ... وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

ثم يصف صيده لبقر الوحش :

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ ... عَذَارَى دَوَارٍ فى مُلَاءٍ مُذَيَّلِ

وينتقل من ذلك إلى وصف البرق :

أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ ... كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سَنَاهُ، أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ ... أَهَانَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ الْمُفَتَّلِ

ويظهر أن البرق تبعه المطر ، فانتقل من وصف البرق إلى وصف المطر وآثاره :

كَأَنَّ ثَبِيرًا فى عَرَانِينِ وَبْلِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ فِى بِجَادٍ مُزَمَّلِ
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

ويختمها بأن الطيور لما رأت الخصب والمطر فرحت وغنت كأنها سكارى :

كَأَنَّ مَكَاكِيَّ الْجِوَاءِ غُدَيَّةً ... صُبِحْنَ سُلَافاً مِنْ رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ

* * *

وله مطولات أخرى ذكرت فى ديوانه . وهو على كل حال قد امتاز بجودة الوصف ، ولا سيما النساء والفرس والصيد ، كما امتاز بكثرة التشبيه المبتكر ، فشبه النساء بالظباء والبَيْض . وشبه الخيل بالعقْبان والعصىّ إلى كثير من أمثال ذلك وقل أن ترى له أبياتاً خلت من التشبيه . وكان لرحلاته الكثيرة إلى الشام واليمن وغيرهما أثر فى سعة خياله ، وحسن تصويره ، واستعمال ألفاظ جديدة ، فشبه فى معلقته إشراق محبوبته بسراج الراهب[1] وشبه ترائبها (وهى موضع القلادة منها) بالسجنجل (وهى كلمة رومية معناها المرآة[2]) وهكذا .

وأورث امرؤ القيس الأدب العربى أبياتا كثيرة يتمثل بها كقوله : (وحسبك من غِنًى شِبَعٌ ورِى) وقوله :

وقد طَوَّفْتُ فى الآفاقِ حَتى ... رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيَابِ

وقوله :

بَنُو أَسَدٍ قَتَلُوا رَبَّهُمْ ... ألا كلُّ شىء سِواهُ جَلَلْ

وقوله :

وإنَّكَ لم يَفْخَرْ عليكَ كفاخرٍ ... ضَعِيفٍ ولَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

وقوله :

كذلك جَدِّى لا اصاحِبُ صَاحِباً ... مِنَ النّاسِ إلا خَانَنِى وتَغَيَّرا

وديوان امرئ القيس مشروح عدة شروح طبع فى باريس ومصر ، فارجع اليه .

* * *

---

(١) تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل

(٢) مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل

وقد شك العلماء فى بعض قصائد وأبيات نسبت إليه ؛ إما لأنها لم تنقل عن الرواة الثقات ، وإما لأنها لا تناسب ما عرف عن حياة امرئ القيس . كالذى ينسب إليه فى المعلقة :

وَقِرْبَةِ أَقْوامٍ جَعَلْتُ عِصَامَهَا ... عَلَى كاهِلٍ مِنِّى ذَلُولٍ مُرَحَّل

الأبيات

فإنه فى هذه الأبيات يذكر أنه يحمل القربة ويقطع الأودية الخالية ويعاشر الذئاب . هذا إلى فقر وهزال عيش ، وذلك كله لا يناسب ما عرف من حياة امرئ القيس ، وإنما هى بحياة الشَّنْفَرَى وتأبط شرا وأشباههما من صعاليك العرب أشبه .

٢ — طَرَفَة

طرفةُ بن العَبْد من قبيلة بكر بن وائل ؛ وبكر من ربيعة ، فهو شاعر رَبَعِيّ . وكان هو وقومه يعيشون فى البحرين (على الخليج الفارسى) وقد رووا أن أباه مات وهو صغير فظلمه أعمامه واغتصبوا حقاً لأمه (واسمها وَرْدة) فنطق بالشعر فى هجائهم وقال :

ما تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فِيكُمُ ... صَغُرَ الْبَنُونَ وَرَهْطُ وَرْدَةَ غُيَّبُ

قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ صَغِيرُهُ ... حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبَّبُ

وَالظُّلْمُ فَرَّقَ بَيْنَ حَيَّيْ وَائِلٍ ... بَكْرٌ تُسَاقِيهَا المَنَايَا تَغْلِبُ

قَدْ يُورِدُ الظُّلْمُ الْمُبَيِّنُ آجِناً ... مِلْحاً يُخَالَطُ بالذُّعَافِ وَيُقْشَبُ

وعاش عيشة لهو ينفق أمواله فى الخمر وما إليها متنقلا فى البلاد ، حتى أضاع ماله ، ثم عاد إلى أهله فأمده أخوه بمال أتلفه كذلك ، فقصد إلى ملك الحِيرة — عمرو بن هند — الذى تبوأ الملك سنة ٥٥٤ م وكان الشعراء يرحلون إليه وينشدونه قصائدهم فى مدحه فيعطيهم، فوفد عليه طرفة مع خاله المتلمِّس فأحسن وفادتهما وجعلهما فى صحابة أخيه قابوس وكان قابوس مرشحا للملك بعده وكان

شابا يعجبه اللهو ويخرج للصيد ، فكان يخرج معه طرفة إذا خرج ، وينادمه إذا شرب . ولكنه وقد نشأ حراً طليقاً ملّ هذا النوع من الحياة ، مل أن يخرج معه للصيد تابعاً ، ويقف ببابه حتى يؤذن له ، فانطلق لسانه فى هجاء عمرو بن هند وأخيه قابوس . وبلغ ذلك عَمـــرا فكتم ذلك وبعث طرفةَ إلى عامله بالبحرين وأعطاه صحيفة فيها الأمر بقتله موهما له أنه كتب إليه بجائزة . فقتله عامل البحرين ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره .

شعره :

أكبر آثاره معلقته الداليـــة وهى أطول معلقة ، فتقع فى خمسة ومائة بيت . والظاهر أنه قالها قبل اتصاله بعمرو بن هند، وبعد أن أنفق ماله فى اللهو وعاد إلى قومه صفْر اليدين . وموضوع المعلقة نفسه وشرح حالته ونظره إلى الحياة . لم يقصد فيهـا إلى مديح ، وما أتى فيها من غزل يجرى على المألوف وليس هو موضوع القصيدة — مطلعها فى وصف الفراق :

لِخَوْلَةَ أَطْــلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَــدِ تَلُوحُ كَبَاقِى الْوَشْمِ فى ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفاً بِهَـا صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُــمْ يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وفى شعره فى هذه القصيدة ظاهرة واضحة ، فقد ذكرنا أن مسكنه وقومه على الخليج الفارسى حيث المـاء والأمواج والسفن والملاحة . لذلك كانت تشبيهاته مشتقة من بيئته . فشبه حُدُوجَ المَـالكيَّة وهو مَرْكَب "خَوْلة" بالسفينة ، وشبه سير الإبل وأنها تضل أحياناً بالسفين "يجور بها الملاح طوراً ويهتدى" فيقول :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَـالِكِيَّةِ غُدْوَةً خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَـا الْمَلَّاحُ طَوْراً وَيَهْتَدِى
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَـاءِ حَيْزُومُهَا بِهَـا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَـايِلُ بِالْيَدِ[1]

---

[1] انظر المنتخب ٢ ص ٣٨

وكما فعل فى ناقة خولة فعل فى ناقته هو، فقد وصف ناقته وأطال فى ذلك .
لقد استغرق وصفها ثمانية وعشرين بيتاً ، وصف كل عضو واخترع له تشبيها ؛
فعظامها كألواح الإران — وهو تابوت كان العرب يحملون فيه سادتهم وكبراءهم —
وشعر ذنبها كجناحى نسر يضرب إلى البياض ، وفخذاها كبابى قصر منيف :

لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهما كأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

وشبه علوها بقنطرة الرومى ، وعنقها — إذا رفعته — بسكان سفينة تجرى فى نهر دجلة .

وأَتْلَعُ نَهَّاضٌ إذا صَعَّدَتْ بِهِ كَسُكَّانِ بُوصِيٍّ بدِجْلَةَ مُصْعِدِ

وهكذا حتى يستتم وصفها .

ثم انتقل إلى الغرض الذى رمى إليه من المعلقة ، وهو الفخر بنفسه والاعتداد بصفاته ونظراته إلى الحياة ، فهو فتى الفتيان :

إذا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أنَّنى عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

وهو كريم لا يبخل بالعطاء ، وذو رأى فى المشورة يلجأ إليه ، وذو نسب رفيع يعز من انتسب إليه :

وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ

وَإِنْ تَبْغِنِى فى حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَنِى وَإِنْ تَقْتَنِصْنِى فى الحَوَانِيتِ تَصْطَدِ

مَتَى تَأْتِنِى أُصْبِحْكَ كَأْساً رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا غَانِياً فَاغْنَ وَازْدَدِ

وَإِنْ يَلْتَقِ الحَىُّ الجَمِيعُ تُلَاقِنِى إلى ذِرْوَةِ البَيْتِ الرَّفِيعِ المُصَمَّدِ

ثم يصف انهماكه فى اللهو والشراب وإتلافه أمواله حتى تحامته العشيرة وأفردته إفراد البعير الأجرب . ثم يردّ على من عنفه فى سلوكه وإنفاقه حياته بين غشيان الوغى وشهود اللذات بأن الحياة فانية والخلود محال :

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِى

فإِنْ كُنتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِى ... فَدَعْنِى أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِى

ويَستمرّ فى شرح مذهبه فى اللهو واللذة ، ومذهبه فى الموت وأنه يسوى بين البخيل والمسرف :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِىٍّ فى الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ

تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا ... صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدِ

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِى ... عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

أَرَى الْعَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَمَا تَنْقُصِ الْأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ... لَكَا لطِّوَلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

ثم ينتقل إلى عتاب ابن عمه لأنه لم يعنه على استرداد إبل لأخيه مَعْبَد قد سلبت ، ويشكو من ظلم قومه له :

وَظُلْمُ ذَوِى الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

وبعد أن ينتابه الحزن من استعراض ذلك تأبى نفسه الاستسلام لليأس فيرفع رأسه ويفخر بنفسه :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِى تَعْرِفُونَهُ ... خَشَاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ

فَآلَيْتُ لَا يَنْفَكُّ كَشْحِى بِطَانَةً ... لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

وختمها بأبيات حكيمة كما فعل زهير :

سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
وَيَأْتِيكَ بِالأَنْبَاءِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ بَتَاتاً وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

وعلى الجملة فقد عدت معلقة طرفة من خير القصائد ، لما فيها من معان جديدة فتحت على الشعراء شرح حالات النفس ، وأتت بمعان لم يسبق إليها ، هذا إلى سلاسة اللفظ ووضوح المعنى من غير إسفاف . ولم يشذ عن ذلك إلا وصفه للناقة ففيه نوع إغراب ، ويكاد يكون شعر ربيعة كله ممتازاً بهذا الوصف ؛ سهولة اللفظ ووضوح المعنى ، كما امتاز شعر مضر بالمتانة والقوة . وتمتاز هذه المعلقة بأنها تصف وصفا دقيقا حياة اجتماعية لطبقة خاصة من طبقات العرب ؛ طبقة فتيان يضيعون أموالهم فى اللهو والشراب ولا يعبئون بالحياة ؛ يطلبون المجد من طريق الكرم وبذل المال فى الحروب ، ثم لتكن النتيجة بعد ما تكون ، فالموت يسوّى بين الغنى والفقير ، والبخيل والكريم . وليس — هذا من غير شك — وصفاً لكل حياة الطبقات ، فهناك طبقة أخرى يمثلها شعر زهير كما سترى ، وكل شاعر كان يعبر عن حياته وبيئته وطبقته والحالة النفسية الغالبة عليه .

ولطرفة ديوان جمعت فيه أشعاره ، ومن مطولاته غير المعلقة قصيدة رائية مطلعها :

أَصَحَوْتَ اليَوْمَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرْ وَمِنَ الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

وقصيدة أخرى يشك فيها بعض العلماء :

سائِلوا عنا الذى يعرفنا بِخَزَازٍ يَوْمَ تَحْلاَقِ اللِّمَمْ

يفتخر فيها بيوم تحلاق اللم ، وهو يوم انتصرت فيه بكر على تغلب .

وفيهـا يقول :

خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعَدٍّ عُلِمُوا　　لِكَفِيٍّ وَلِجَارٍ وَابْنِ عَمْ

يُجْبَرُ المَحْرُوبُ فِينَا مَالَهُ　　بِبِنَاءٍ وَسَوَامٍ وَخَدَمْ

نُقُلٌ لِلشَّحْمِ فِي مَشْتَاتِنَا　　نُحُرٌ لِلنِّيبِ طُرَّادُ القَرَمْ

نَزَعُ الجَاهِلَ فِي مَجْلِسِنَا　　فَتَرَى المَجْلِسَ فِينَا كَالحَرَمْ　　الخ

ومما ينسب إليه قوله يخاطب عمرو بن هند :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقوله :

وَإِنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ　　بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وقوله :

خَالِطِ النَّاسَ بِخُلْقٍ وَاسِعٍ　　لَا تَكُنْ كَلْبًا عَلَى النَّاسِ تَهِرّْ

وقوله :

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى　　لَا تَرَى الآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ

وعلى الجملة فما صح من شعره قليل لموته شابا كما ذكرنا .

٣ — عَمْرُو بن كُلْثُوم

عمرو بن كلثوم من قبيلة تغلب ، كان أبوه كلثوم سيد قومه ، وأمه ليلى بنت المهلهل أحد الشعراء المشهورين . وتغلب كانت تسكن الجزيرة وما حولها، وكانت من أعز قبائل العرب حتى قالوا : " لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس " .

وكانت تغلب فى نزاع مع بكر ، وكان بينهما حرب البسوس كما قدمنا ، حتى أصلح بينهما المنذر ملك الحيرة ، واتخذ من كل منهما رهينة من الغلمان حتى لا يعودوا إلى القتال . ولما تولى الحيرة عمرو بن هند حذا حذو أبيه ، فحدث أن عمرو بن هند وجه قوما من بكر وتغلب إلى جبل طيىء فى أمر من أموره ، فنزلوا على ماء لبنى شيبان وهم من بكر ، فأبعدوا التغلبيين عن الماء حتى ماتوا عطشاً . فطلب التغلبيون ديتهم من بكر ، واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند — وكان سيد تغلب هو عمرو بن كلثوم — وشاعر بكر الحارث بن حلزة ، وتفاخرت القبيلتان بين يديه ، وفى هذا الموقف قال عمرو بن كلثوم بعض معلقته يفتخر فيها بتغلب وقال الحارث بن حلزة جزءا من معلقته يفتخر فيها ببكر .

وقد رووا أن عمرو بن هند ملك الحيرة قال يوما لندمائه : "هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ؟ " قالوا : "لا نعلمها إلا ليلى أم عمرو بن كلثوم لأن أباها مهلهل ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن عتاب فارس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه " . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو ابن كلثوم يستزيره ويسأل أن يزير أمه أمه ففعل ، وكان عمرو بن هند قد أوعز إلى أمه أن تنحى الخدم وتستخدم ليلى . فقالت هند : "يا ليلى ناولينى ذلك الطبق" فقالت لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها فصاحت ليلى واذلاه يالتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله وسار وقومه إلى الجزيرة . وفى هذا قال بعض معلقته .

وقد عمّر عمرو بن كلثوم طويلا .

ولم يبق من شعره كذلك إلا قليل أشهره معلقته التى مطلعها :

أَلَا هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا   وَلَا تُبْقِى خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

يبدؤها بوصف الخمر وينتقل منها إلى الغزل إذ يقول :

قفى قبل التفرّق يا ظعينا نخبّرك اليقين وتخبرينا . الخ

ثم ينتقل إلى موضوع المعلقة ، ويظهر أن هذا الموضوع مقسم إلى قسمين ، عُملا فى زمنين مختلفين؛ أولهما عمل أيام التحاكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر ويبتدئ من قوله :

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا [1]
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوِينَا

ويفخر فيه بنفسه وقومه :

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا الخ

والثانى عمل بعد قتله عمرو بن هند . وأوله :

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
تُهَدِّدُنَا وَتُوعِدُنَا رُوَيْداً مَتَى كُنَّا لِأُمِّكَ مَقْتَوِينَا !
فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا

ثم ينتقل إلى وقائع قومه مفتخرا بها على بكر :

وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ فِي خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا
وَكُنَّا الْأَيْمَنِينَ إِذَا الْتَقَيْنَا وَكَانَ الْأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِينَا
فَصَالُوا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِيهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِينَا
فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

---

[1] المنتخب ٢ ص ١٢

واختتمها بفخر قوى :

مَلأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهْرَ الْبَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا
لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَغِيرٌ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

والميزة الواضحة فى شعره ، السهولة والقوة ، والاعتداد بالنفس والقبيلة ، والمبالغة فى الفخر ، وأنه شعر صدر عن سيد قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته ويتغنى بفعالها وفعاله . وقد أثرت هذه القصيدة فى نفوس قبيلة تغلب ونخروا بها واتخذوها أنشودتهم حتى قال فيهم بعض البكريين :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُم يَاللِّرِّجَالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَسْؤُومِ

وروى صاحب ديوان الحماسة لعمرو بن كلثوم أبياتا له من خير الأبيات يمدح فيها بقومه وهى :

مَعَاذَ الإِلَهِ أن تَنوحَ نِساؤُنَا على هالكٍ أو أن نَضِجَّ من القَتْلِ
قِرَاعُ السُّيوفِ بالسُّيوفِ أَحَلَّنَا بِأَرْضٍ بَرَاحٍ ذِى أَرَاكٍ وَذِى أَثْلِ
فَما أَبْقَتِ الأَيَّامُ مِلْمَالِ عِنْدَنَا سوَى جِذْمِ أَذْوادٍ مُحَذَّفَةِ النَّسْلِ
ثَلاَثَةُ أَثْلاثٍ ، فَأَثْمانُ خَيْلِنَا وَأَقواتُنَا وما نَسُوق إلى القَتْلِ

٤ — الحارث بن حِلِّزَة

كان الحارث بن حلزة من سادات بكر ، وبكر وتغلب — كما ذكرنا قبل — أخوان متعاديان طالت بينهما الحروب ويسعى الساعون بينهما بالصلح فلا يلبث أن ينقض .

وقد رأينا فى ترجمة عمرو بن كلثوم أن عمراً كان سيد تغلب وشاعرها حين تحاكمت بكر وتغلب إلى عمرو بن هند ، وكان الحارث بن حلزة شاعر بكر ، وقال عمرو بن كلثوم جزءا من معلقته فى هذا الموقف يشيد بذكر قومه ويفخر على بكر ، وكذلك فعل الحارث بن حلزة ينقض قول عمرو بن كلثوم ويفخر ببكر وفعالها .

وقد ذكر الرواة أن الحارث أنشد معلقته أمام عمرو بن هند ، وكان شيخا هرما وبه وضح ، ولئن كان عمرو بن كلثوم فى قصيدة فخوراً أشد الفخر ، معجبا بنفسه وقومه أشد الإعجاب ، لا يرعى فى قوله عمرو بن هند ، ولا يعترف له ولقومه بعظمة وسلطان ، ويغلب على قوله النزق . فإن الحارث بن حلزة وقور حليم فيه رزانة السن وحكمة الشيوخ ، يرد على عمرو بن كلثوم فى أناة وهدوء . ولكنه هدوء لاذع ، يفند قوله ، ويعدد مواقف قومه ، ويُحَمِّل تغلب تبعة الحروب . ويستدرج عمرو بن هند إلى أن يكون فى جانبه فيمدحه ويمدح قومه حتى يبلغ ما يريد . ولهذا يذكرون أن عمرو بن هند قضى لبكر على تغلب .

بدأ معلقته بالغزل ووصف الناقة :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

ويشبه ناقته بالنعامة :

غَيْرَ أَنِّى قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمِّ إِذَا خَفَّ بِالثَّوِىِّ النَّجَاءُ

بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمُّ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفَاءُ

ولكنه يمر بالغزل ووصف الناقة سريعاً حتى يصل إلى غرضه فى دعوى تغلب وبكر .

وَأَتَانَا عَنِ الأَرَاقِمِ أَنْبَاءُ وَخَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنُسَاءُ (١) الخ

---

(١) اقرأ المنتخب ٢ ص ٥٠

ويرد على عمرو بن كلثوم فى قوله :

أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ ؟ الخ .

ثم يأخذ فى مدح عمرو بن هند :

فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى مَلَكَ الْمُنْذِرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ

مَلِكٌ أَضْلَعُ الْبَرِيَّةِ لاَ يُو جَدُ فِيهَا لِمَا لَدَيْهِ كِفَاءُ

وفى المعلقة بعد ذلك أبيات لها قيمة كبيرة فى شرح أحداث تاريخية وسياسية من صلح كان بين بكر وتغلب :

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِى الْمَجَازِ وَمَا قُدِّ مَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكُفَلاَءُ

وأيام كانت بين تغلب وقبائل أخرى غلبت فيها تغلب :

أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْـ ـنَمَ غَازِيهِمُ وَمِنَّا الْجَزَاءُ ؟ الخ

وعداء قديم كان بين المنذر ملك الحيرة والتغلبيين لما امتنعوا عن نصرته ، وعلى العكس من ذلك ولاء البكريين لملوك الحيرة . وينتقل من ذلك إلى مدح عمرو ابن هند وآبائه :

أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُبَلِّغُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ انْتِهَاءُ ؟

مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِ ى وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ

مَنْ لَهُ عِنْدَنَا مِنَ الْخَيْرِ آيَا تٌ ثَلاَثٌ فِى كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ

ثم يعدد هذه الآيات الثلاث :

وعلى الجملة فقد كان عمرو بن كلثوم فى قوله أعز نفساً وأعلى قدراً ، وضع نفسه وقومه موضع الند لعمرو بن هند وقومه ، وكان الحارث أمهر وأمكر ، وضع أمام نفسه غرضا تحايل على الوصول إليه فى دهاء وإيماء وملق حتى وصل إليه ، فحكم له ولقومه .

٥ — عَنْتَرة

هو عَنْتَرة بن شَدَّاد من قبيلة عَبْس ، وعبس إحدى قبائل مضر . وكان هو وقومه يسكنون نجداً ، وكانت أمه أمة حبشية سوداء اسمها « زَبِيبة » سباها أبوه فى إحدى غزواته فأولدها عنترة . وكانت عادة العرب أن تستعبد أولاد الإماء أى تتخذهم عبيداً لا أولاداً ، إلا إذا أتوا بأعمال عظيمة فحينئذ يعترفون ببنوتهم . وكذلك كان عنترة ؛ ظل أبوه يستعبده حتى أغار يوماً قوم من طيء على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فكرّ عنترة عليهم واسترد الإبل فحرره أبوه وأقر ببنوته .

وكان عنترة أسود كأمه ، ولذلك عد من أغربة العرب . وكان يشعر بأن مافيه من عيب سواده تغسله شجاعته وفعاله وفى ذلك يقول :

إِنِّى امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا ... شَطْرِى وَأَحْمِى سَائِرِى بِالْمُنْصُلِ

وَإِذَا الكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وَتَلاحَظَتْ ... أُلفِيتُ خَيْراً مِن مُعَمٍّ مُخْوَلِ

وقد عشق فى شبابه بنت عمه « عَبْلَة » وكان ذلك قبل أن يحرره أبوه ويدعيه ، فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد ، فحفزه ذلك للمعالى يتطلبها والمجد ينشده ، وهاج ذلك من شاعريته ، فاجتمع له الشعر السلس القوى ، والشجاعة النادرة ، والمروءة حتى إذا أصبح سيدا حراً زوجه عمه عبلة .

وقد اشترك فى حرب داحس والغبراء — وهى التى قال فيها زهير بن أبى سلمى معلقته — وأبلى فيها بلاء حسنا . وأعلى فيها شأن قومه .

وأشهر شعره معلقته التى مطلعها :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ ؟

وتمتاز بالتمدح بالشجاعة وصفات البدو من كرم ومروءة ، والتغنى بمواقفه فى الحروب .

تغزل فيها بعبلة وحاول أن يسترضيها بوقائعه ومشاهده ، إذ عجز أن يسترضيها بجمال لونه وكرم محتده من ناحية أمه :

إن تُغْدِفِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنَّنِي ... طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمِ

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِي ... سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ

فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِن ظُلْمِي بَاسِلٌ ... مُرٌّ مَذَاقَتُـهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ

هلَّا سَأَلْتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ... إنْ كنتِ جاهِلةً بمـا لم تعلَمِي

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوقِيعةَ أنني ... أغْشَى الوغَى وأعِفُّ عِند المغنم

ويصف موقعة من وقائعه والأعداء تقبل والنـاس يلهجون باسمه حتى إذا نازلهم نال منهم كل منال :

لمـا رأيتُ القومَ أقبلَ جمعهُمْ ... يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّـمِ

يَدْعُونَ عنـترَ ، والرِّمَاحُ كأنَّها ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ

مَازِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْـرِهِ ... وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بِالدَّمِ

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا فزجرته ... فَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا ... قِيلُ الْفَوَارِسِ وَيْكَ عنترَ أقدِمِ الخ

وكثيراً مايتغنى فى شعره بمكارم الأخلاق كقوله :

وَلَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوى وَأَظَلُّه ... حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَـأْكَلِ

وقوله :

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مأواها الخ

وكانت شجاعته فى حروبه مثالًا للإعجاب حتى صيغت منها أساطير وقصص، وامتلأ ديوانه بقصائد لم تصح عنـد الثقات ، وامتلأت قصة عنترة بأحداث وأشعار كلها من نسج الخيال .

وقد قتل عنترة بعد أن أسر فى غارة له على قوم من طيئ .

٦ — زُهَيْر

هو زهير بن أبى سُلْمى من قبيلة مُزَينة ، ومزينـة من مضر ، فهو شاعر مضرى ولم نعرف عن حياته — كذلك — إلا قليلا .

كان يقيم هو وقومه فى بلاد غَطَفان ؛ وهو من بيت كثر شعراؤه ، فكان خال أبيه — واسمه بَشَامة بن الغَدير — شاعرًا ، وجمع إلى الشعر الحكمة وجودة الرأى ، وكانت غطفان إذا أرادوا الغزو أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا من الحرب قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم . وقد لازمه زهير وأخذ عنه الشعر وجودة الرأى ، وكان زوج أمه — أَوْسُ بن حَجَر — شاعرًا ، وكان أبوه شاعرًا ، وأخته سُلْمى شاعرة ، وابناه — كعب وبُجَير — شاعرين .

وكانت بلاد غطفان ساحة للعداء الشديد والحرب المستحرّة بين قبيلتين من قبائلهما ؛ وهما عبس وذبيان ، وكانت هـذه الحرب وهذا العداء سببًا فى ثروة أدبية جاهلية كبيرة ؛ من شعر ملىء بالفخر والهجاء ، والتحريض على القتال والأخذ بالثأر ، ومن قصص تدور وقائعها على ما كان بين الفريقين . فكثير من شعر عنترة العبسى مثلا يصف الأطوار الأخيرة لهذه الحرب الطاحنة . وكان كثير من شعر زهير يدور حول السلم بين القبيلتين والدعوة إليه وإظهار نتائجه ، والإعجاب برجلين عظيمين من رؤساء قبيلة ذبيان وهما هَرِم بن سنان والحارث بن عَوْف ، سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان ، واحتملا ديات القتلى ونشرا السلام فى غطفان ، فكان

هذا حافزا لزهير أن يتغنى بالسلام ويستفظع الحروب ويمدح الداعين إليها ، وخاصة هرم بن سنان ، وكان هرم كذلك يجزل له العطاء حتى أغناه ، والظاهر أن زهيرا مات قبيل البعثة .

شعره :

يمتاز زهير بأنه " كان أبعد الشعراء عن سُخْف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من اللفظ ، وأكثرهم أمثالا فى شعره " " وكان لا يتبع حُوشيّ الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه " .

وقد عرف بالروية فى شعره ، رووا أنه كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة . وكانت تسمى قصائده " حوليات زهير " وإلى هذا أشار البهاء زهير فى قوله من قصيدة :

هـذا زهيرٌ لا زهـيرُ مُزَيْنَةٍ وافاك لا هَرِمًا على عِلَّاتِهِ
دَعْه وحَـوْلِيَّاتِهِ ثُمَّ اسْتَمِع لِزُهَـيْرِ عَصْرِكَ حُسْنَ لَيْلِيَّاتِهِ

والظاهر أن ذلك إنما كان فى معلقته وقصائده المطولات وهى أربع :

إحداها مطلعها :

قِفْ بِالدِّيارِ الَّتى لَمْ يَعْفُهَا الْقِدَمُ بَلَى وَغَيَّرَهَـا الْأَرْوَاحُ وَالدِّيَمُ

والثانية :

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنَ فَانْفَرَقَا وعُلِّقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا

والثالثة :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا وَزَوَّدُوكَ اشْتِيَاقًا أَيَّةً سَلَكُوا

والرابعة :

لِمَنْ طَلَلٌ بِرَامَةَ لَا يَرِيمُ عَفَا وخَلَا لَهُ حُقُبٌ قَدِيمُ

تظهر هذه الروية فى شعره كل الظهور ، فهو هادىء رزين فى تفكيره ، يتخير المعانى التى تناسب موضوعه ، ويتخير لهذه المعانى خير الألفاظ ، يرفق فى مواضع الرفق ، ويشتد فى مواضع الشدة .

كذلك عرف بالميل إلى الحكمة ، جرب الدهر وحلب أشْطُرَه ، وخبر الناس وعرف نفوسهم ، فعمد إلى صياغة ذلك كله فى شعره — وكان مُلْهَما — فأتى بما لم يسبق إليه ، وقد أعجب المسلمون فى الصدر الأول بحِكَمِه وفضّله بعضهم من أجلها على سائر الشعراء ، لما فيها من صدق القول ، وحسن النظر ، ولما فيها من نظرات تتفق ومبادىء الإسلام كقوله :

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِى نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وخير شعره — كما أسلفنا — فى مدح هرم بن سنان كقوله :

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فى هَرِمٍ وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا
مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ اللُّيُوثَ إِذَا ما اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطَّعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا

وقوله :

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فى هَرِمٍ خَيْرِ الْبُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ الْمُنَوِّرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ
وَلَأَنْتَ أَوْصَلُ مَنْ سَمِعْتُ بِهِ لِشَوَابِكِ الْأَرْحَامِ وَالصِّهْرِ

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيَتْ : نَزَالِ وَلُجَّ فى الذُّعْرِ
وَأَرَاكَ تَفْرِى مَا خَلَقْتَ وَبَعْـــضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِى
أُثْنِى عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتَ وَمَا سَلَّفْتَ فى النَّجَدَاتِ مِنْ ذِكْرِ
وَالسِّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

ولما مات هَرِم رثاه زهير بقصيدته :

إِنَّ الرَّزِيَّةَ لَارَزِيَّةَ مِثْلُهَا مَا تَبْتَغِى غَطَفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ
إِنَّ الرِّكَابَ لَتَبْتَغِى ذَا مِرَّةٍ بِجُنُوبِ نَخْلٍ إِذَا الشُّهُورُ أَحَلَّتِ
يَنْعَيْنَ خَيْرَ النَّاسِ عِنْدَ شَدِيدَةٍ عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ هُنَاكَ وَجَلَّتِ
وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ كَانَ إِذَا سَطَا نَهِلَتْ مِنَ الْعَلَقِ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ

وأشهر قصائده معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وهى فى تسعة وخمسين بيتاً وموضوعها — كما سبق — تحسين الصلح بين عَبْس وذُبْيَان ومدح هرم والحارث بن عوف لقيامهما بهذا العمل الجليل . وقد بدأها من البيت الأول إلى الخامس عشر فى الغزل بأم أوفى ، وهى زوجه أولدها بنين ماتوا صغاراً ، ثم غضب عليها مرة فطلقها وندم وأراد أن يردها فأبت فبكاها وبكى ديارها :

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِعُ وَشْمٍ فى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

* * *

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلَا انْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

ووصف الظعائن ، وهن النساء فى الهوادج ، وذكر أنهن فى أمن ومَنَعَـة ، فإذا نزلن نزلن آمنات كنزول من هو فى أهله ووطنه ، وختم ذلك بقوله :

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلَّطِيفِ وَمَنْظَرٌ ... أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ

ومن البيت السادس عشر إلى الخامس والعشرين مدح هرما والحارث لسعيهما إلى الصلح وتحملهما الديات :

فأقسمتُ بِالْبَيْتِ الذى طافَ حَوْلَهُ ... رجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ [1]

ثم انتقل يخاطب المتحاربين ويطلب منهما الحرص على الصلح بعد ما ذاقوا من شدة الحرب واصطلوا بنارها ، وذلك إلى البيت الثالث والثلاثين . [2]

وفى هـذا الموضع أتى بأبيات من خير الشعر فى وصف الحرب وويلاتها والسلم ومزاياه .

ثم عرض لحُصَين بن ضَمْضَم وفعله وقد قتل عدوه وكاد يشعل نار الحرب ثانية بعد أن كانت القبيلتان تتأهبان للصلح :

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْحَىُّ جَرَّ عَلَيْهِمُ ... بِمَا لَا يُؤَاتِيهِمْ حُصَيْنُ بْنُ ضَمْضَمِ

حتى إذا وصل إلى البيت السابع والأربعين أتى بأبيات من الحكم ختم بها معلقته ، وبعض هذه الأبيات يناسب موضوعه وهو الدعوة إلى السلم كقوله :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فَإِنَّهُ ... يُطِيعُ الْعَوَالِى رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

يريد أن من لا يقبل الصلح وهو الزُّجُّ الذى لا يقاتل به فإنه يطيع الحرب ، ورمز إليها بالسنان الذى يقاتل به . وكقوله :

وَمَنْ يُوفِ لَا يُذْمَمْ وَمَنْ يُفْضِ قَلْبُهُ ... إِلَى مُطْمَئِنِّ الْبِرِّ لَا يَتَجَمْجَمِ

---

(١) انظر المنتخب ٢ / ٧ (٢) المنتخب ٢ / ٠

وبعض الأبيات — فيما يظهر — لا تناسب موضوعه كقوله :

وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لَا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

فإن ظاهره الحث على الظلم ، واستعمال السلاح ، ولعله فيه قد انتقل من موضوعه إلى وصف الحياة العربية على العموم .

ثم ذكر أنه سئم الحياة وتكاليفها ، وأن المنايا ليس لها قانون معروف وختمها بقوله :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

٧ — لبيد

هو لبيد بن ربيعة من بنى عامر بن صَعْصَعَة ، وهى قبيلة مضرية ، وأمه من بنى عبس ، كان فى الجاهلية شريفاً جواداً شجاعاً شاعراً ، وقد أدرك الإسلام وأسلم ، وعُمِّر طويلا حتى مات فى خلافة معاوية . وأكثر شعره قاله قبل الإسلام ، فلما أسلم لم يقل إلا قليلا .

وهو شاعر بدوى ، يصف فى شعره حياة بدوية صحراوية ولا سيّما فى معلقته التى مطلعها :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

ويظهر أنه قالها فى شبابه وهى تمثل الشعر المضرى فى متانته وقوته ، بدأها — كالعادة — ببكاء الأطلال وفعل السُّيول بها حتى لم يبق منها إلا أثر كأثر الكتابة فى الحجارة إنما يتبين لمن يقرب منه ويطيل النظر فيه . ثم ينتقل إلى الغزل ووقوفه على الأطلال يسألها .

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سُؤَالُنَا صُمًّا خَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا

ثم يصف ناقته وصفاً طويلا رائعاً ، فيكثر من تشبيه سرعتها ، تارة بالسحابة يرفعها ريح الجنوب ، وتارة بأتان وحشية ، وتارة ببقرة وحشية أضاعت ولدها فهى تسرع فى البحث عنه ، وفى كل تشبيه من هذه التشبيهات يستقصى وصف المشبه به حتى يصل إلى غايته : فيصف نفسه بالإباء .

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إذا لَمْ أَرْضَها أو يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمامُها

وبالكرم وأنه يلعب الميسر على الجَزُور وينحرها ويطعمها الناس :

وَجَزور أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَعْلاَمُهَا

أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أو مُطْفِلٍ بُذِلَتْ لِجِيرَانِ الجَمِيعِ لِحَامُهَا

ثم انتقل من وصف نفسه إلى وصف قومه بأنهم أهل نجدة وعقل وأمانة :

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وِلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

إِنْ يَفْزَعُوا تُلْقَ المَغَافِرُ عِنْدَهُمْ وَالسِّنُّ يَلْمَعُ كَالكَوَاكِبِ لاَمُهَا

لاَ يَطْبَعُونَ وَلاَ يَبُورُ فَعَالُهُمْ إِذْ لاَ تَمِيلُ مَعَ الهَوَى أَحْلاَمُهَا

فَبَنَوْا لَنَا بَيْتاً رَفِيعاً سَمْكُهُ فَسَما إِلَيْه كَهْلُهَا وَغُلاَمُهَا

وهكذا إلى آخر المعلقة .

ولشعره بعد ذلك — وهو الذى عمله فى الكهولة والشيخوخة على ما يظهر — أثر الحكمة وقوة الشعور الدينى كزهير من مثل قوله :

وَمَا المَرءُ إلاّ كالشِّهابِ وَضَوْئِه يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ مَا هُوَ سَاطِعُ

وَمَا المَالُ وَالأَهْلُونَ إلاّ وَدَائعُ وَلاَ بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ الوَدائِعُ

وَمَا النَاس إلا عَاملان : فَعَامِلٌ يُتَبِّرُ مَا يَبْنِى ، وآخَرُ رَافِعُ

ومثل قصيدته التى مطلعها :

ألا كُلُّ شَىْءٍ مَا خلا اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِـيمٍ لا مَحَالَةَ زائِلُ
وَكُلُّ أُناسٍ سَوفَ تدخُلُ بينهم دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهـا الأنامِلُ

ومثل قصيدته :

إنَّ تقوَى ربِّنـا خيرُ نفل وَبإذْنِ اللهِ رَيْثِي وَالْعَجَلْ
أحْمَـدُ اللهَ وَلَا ندَّ لهُ بِيَـدَيْهِ الخَـيْرُ مَا شاء فعـلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخَـيْرِ اهْتدى نَاعِمَ البَـالِ وَمَنْ شاءَ أضلْ

وكان لبيد أحدث أصحاب المعلقات عصرا وآخرهم موتا .

*
* *

وهناك غير أصحاب المعلقات شعراء جاهليون لا يقلون عنهم شهرة وشاعرية ؛ أشهرهم النابغة الذبيانى والأعشى ، وقد عدهما بعض العلماء من أصحاب المعلقات وعدّ مطولتيهما معلقتين .

٨ — النابغة الذبيانى

النابغة شاعر ذبيان ، وذبيان من قيس ، وقيس من مضر .

وتاريخ حياته — كذلك — غامض ولا نعرف عنه إلا قليلا ، واسمه زياد ابن معاوية . ويكنى أبا أُمَامة ، وهو أحد فحول الشعراء الجاهليين ، ويعد فى الطبقة الأولى مع امرىء القيس .

وقد ذكروا فى تلقيبه بالنابغة أسباباً أقربها أنه لم ينشأ شاعراً ولم يُرَبَّ تربية شعرية ، و إنما نبغ بالشعر دفعة واحدة ، وقاله وهو رجل أحكمته التجارب .

كان النابغة من أشراف قومه وهو — و إن تكسب بالشعر — لم يتبذل ، إنما كان يقصد الملوك ويمدحهم فى غير ضعة وهم يجزلون له العطاء .

اتصل بالنعمان بن المنذر أبي قابوس ملك الحيرة (الذى حكم من نحو سنة ٥٨٠ إلى ٦٠٢ م .) وقد مدحه بقصائد كثيرة وقربه النعمان إليه واتخذه نديما له ، وغمره بعطاياه حتى كان النابغة يأكل فى صحاف الفضة والذهب ، ثم غضب عليه . والرواة يختلفون فى سبب غضبه ، وأقرب الأسباب إلى العقل ما روى بعضهم من أن أعداء النابغة وضعوا شعرا على لسانه فيه تعريض بالنعمان ، وأن أمه بنت صائغ من فدك [١] فتبرأ النابغة من ذلك فى شعره ولكنه خاف على نفسه فهرب إلى الغساسنة بالشام ، وكانوا — كما رأينا — أعداء ملوك الحيرة ، فرحب به عمرو بن الحارث الغسانى وأكرمه . ومدحه النابغة بقصائد كثيرة ؛ ولكن هواه كان مع النعمان ملك الحيرة يحن إليه ويتبرأ مما رمى به ويعتذر مما كان . وبقى فى الشام إلى أن مات عمرو بن الحارث الغسّانى :

وكانت اعتذاراته تتوالى على النعمان حتى عفا عنه فعاد إليه وعاشره فى الحيرة .

كذلك كان يرحل إلى داخل جزيرة العرب ، فتراه فى سوق عكاظ تنصب له قبة من أَدَم ، ويجتمع إليه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيفاضل بينهم ، ولم يعرف تاريخ موته ، ولكن المعروف أنه مات فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث .

---

(١) فدك بلدة قريبة من المدينة . والأبيات هى :

قبح الله ثم ثنى بلعن ... وارث الصائغ الجبان الجهولا

من يضر الأدنى ويعجز عن ضـ ... ـر الأقاصى ومن يخون الخليلا

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ... ثم لا يرزأ العدو فتيلا

شعره :

قد امتاز شعره بحسن الديباجة ، وجمال الرونق ، وجزالة اللفظ ، وقلة التكلف .

وكان شعره — كذلك — مظهراً من مظاهر حياته فهو يمدح النعمان ، ويشر بملوك الحيرة وعظمتهم ، حتى إذا ساءت العلاقة بينه وبين النعمان ملىء شعره عذراً ، واشتهرت بين الأدباء « اعتذاريات » النابغة ، وأن أحداً لم يقل مثلها .

من ذلك قوله :

نُبِّئْتُ أَنَّ أبا قَابُوسَ أَوْعَدَنِى ... ولا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

مَهْلاً فداءٌ لك الأقوامُ كلُّهم ... وما أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ

وقوله :

أَتَانِى أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِى ... وَتِلْكَ الَّتِى تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِعُ

مَقَالَةَ أَنْ قد قُلْتَ سَوْفَ أَنَالُهُ ... وَذلكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

لَعَمْرِى ، وَمَا عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ... لَقَدْ نطقتْ بُطْلاً عَلَىَّ الأَقَارِعُ

أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِى بِغْضَةً ... لهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلَ ذلِكَ شَافِعُ

أَتَاكَ بقَوْلٍ هَلْهَلِ النَّسجِ كاذبٍ ... وَلَمْ يَأْتِ بالحَقِّ الذى هُوَ نَاصِعُ

أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولَهُ ... وَلَوْ كُبِلْتُ فِى سَاعِدَىَّ الجَوَامِعُ

إلى أن يقول :

فإنْ كُنْتَ لاَذُو الضِّغْنِ عَنِّى مُكَذَّبٌ ... وَلاَ حَلِفِى عَلَى البَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلاَ أَنَا مَأْمُونٌ بِشَىءٍ أَقُولُهُ ... وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لاَ مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عَنكَ وَاسِعُ

*
* *

أَتُوعِدُ عَبْداً لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةً ... وَيُترَكُ عَبْدٌ ظَالِمٌ وهُو ظَالِعُ

وأَنْتَ رَبِيعٌ يَنْعَشُ النَّاسَ سَيْبُهُ ... وسَيْفٌ أُعِيرَتْهُ المَنِيَّةُ قَاطِعُ

أَبَى اللهُ إِلَّا عَدْلَهُ ووفَاءَهُ ... فلاَ النكْرُ معرُوفٌ ولا العُرفُ ضَائِعُ

فلما ارتحل إلى الغساسنة مدحهم ، ومن أشهر مدائحه فى عمرو بن الحارث قصيدته التى مطلعها :

كِلِينِي لِهَمّ يا أُمَيمَةُ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بطِىءِ الكوا كِبِ[١]

ويظهر أن مدح النابغة للغساسنة زاد النعمان حفيظة ، لأنه يمدح أعداءه ويشيد بذكرهم ، فقال النابغة يعتذر للنعمان :

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي ... وتِلْكَ التِّى أَهْتَمُّ مِنهَا وأَنْصَبُ[٢]

فبِتُّ كأَنَّ العَائِدَاتِ فرشْنَنِي ... هَرَاساً به يُعْلَى فراشى وَيُقْشَبُ[٣]

حلفتُ فَلَمْ أَترُكْ لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ لِلْمَرءِ مذهبُ

لَئِنْ كُنتَ قَدْ بلِّغْت عَنِّي خِيانَةً ... لَمُبلِغُكَ الواشِى أَغَشُّ وأَكْذَبُ

ولَكِنَّنِي كُنْتُ امرءاً لى جَانِبٌ ... مِنَ الأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ

مُلُوكٌ وإِخوانٌ إِذَا مَا أَتَيتُهُمْ ... أُحكَّمُ فِي أَمْوَالِهِم وأُقَرَّبُ

كفِعلِكَ فِي قَومٍ أَراكَ اصْطَنَعْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فى شُكْرِ ذلِكَ أَذْنَبُوا

فَلاَ تَتْرُكَنِّى بالوَعِيدِ كأنَّنِى ... إِلَى النَّاسِ مطلىٌّ بِهِ القَارُ أَجْرَبُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَت لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

---

(١) انظر المنتخب ٣/٣٧

(٢) النصب : الإعياء والتعب (٣) الهراس نبت كثير الشوك ، ويقشب يجدد ويخلط .

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَىُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ
فَإِنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

وكان عظيم الشأن رفيع الجاه عند ملوك الحيرة وغسان ، ذا كلمة فيما يجرى بين القبائل من سلم وحرب ، كما يدل على ذلك شعره ، يتدخل فى أسرى بنى أسد وفزارة ويركب إلى الحارث الغسانى ليفكهم ، ويقول فى ذلك بعض قصائده إلى كثير من أمثال ذلك .

ومن أوضح صفاته الشعرية أنه كثير الوصف ، واذا وصف استقصى القول عن الموصوف حتى يبلغ غايته، فإذا وصف ناقته شبهها بالثور الوحشى ثم يستقصى حال الثور وشدته فى مصارعة الكلاب .

وقد عده بعض العلماء من شعراء المعلقات ومطلع معلقته :

يَا دَارَمَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ

وتقع فى واحد وخمسين بيتا . وهى من قصائده الاعتذاريات ، بدأها ببكاء الأطلال كالمألوف من أشعار الجاهلية ثم انتقل من ذلك إلى وصف ناقته :

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ وَانْمِ الْقُتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجُدِ[1]

وشبهها بوحش وجرة ، ثم أفاض كعادته فى وصف المشبه به ، وهو وحش وجرة ، وما يفعله من صيد الكلاب ، ودخل من ذلك إلى النعمان :

فَتِلْكَ تُبْلِغُنِى النُّعْمَانَ إِنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِى الْأَدْنَى وَفِى الْبَعَدِ
وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِى النَّاسِ يُشْبِهُهُ وَمَا أُحَاشِى مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ

ثم طلب إليه أن يكون حكمًا فى أمره لا يقبل سعاية ساع ، ونفى عن نفسه ما اتهم به :

مَا إن أتيتُ بِشَىْء أَنْتَ تَكْرَهُهُ   إِذًا فَلَا رَفَعَتْ صَوْتِى إلىَّ يدى

*
* *

هٰذَا لِأَبْرَأَ مِنْ قَوْلٍ قُذِفْتُ بِهِ   كَانَتْ نَوَافِذُهُ حَرًّا عَلَى الْكَبِد

ثم مدحه بالكرم ، وأنه يشبه نهر الفرات ، واسترسل فى وصف الفرات كعادته أيضا وختمها بقوله :

هَا إنَّ تَا عِذْرَةٌ إلَّا تَكُنْ نفعتْ   فَإِنَّ صاحِبَهَا قَدْ تَاهَ فى الْبَلَدِ(١)

ويظهر من شعره التدين والتزام مكارم الأخلاق ، فهو يقول :

قالتْ أراكَ أخا رحْلٍ وراحِلَةٍ   تَغْشَى مَتَالِفَ لن يُنْظِرْنَكَ الْهَرَمَا

حيَّاكِ ربِّى فإنَّا لا يَحِلُّ لنا   لَهْوُ النِّساء وإنَّ الدِّين قدْ عَزَمَا

مُشَمِّرِين عَلَى خُوصٍ مُزَمَّمَةٍ   نَرجُو الإِلٰهَ ونَرْجُو الْبِرَّ والطُّعَما(٢)

ويعد شعره خطوة جديدة فى رقى الشعر بعد امرىء القيس ، فإنه أحسن ديباجة وأغزر معنى وأسلس كلاما .

ومما يستحسن قوله :

فَتًى تَمَّ فِيهِ ما يَسُرُّ صديقَهُ   عَلَى أَنَّ فِيهِ ما يَسُوءُ الأعاديا

فَتًى كَمُلَتْ أَخلاقُهُ غيرَ أَنَّهُ   جَوَادٌ فَمَا يُبْقِى مِنَ الْمَالِ باقيا

---

(١) العذرة : الاعتذار   (٢) الخوص : الإبل الغائرة العيون ، والمزممة المشدودة برحالها ، والطعم الرزق .

وقوله :

تَعْدُو الذِّئابُ عَلَى مَنْ لا كِلابَ لَهُ وتَتَّقِى مَرْبَضَ المُسْتَنْفِرِ الحَامِى

وقوله :

نفس عِصَامٍ سوَّدتْ عِصاما وعَلَّمتْهُ الكرَّ والإقْدَاما

وصَيَّرتْهُ مِلِكاً هُمَاما حتَّى عَلَا وجاوز الأقواما

وقوله فى الرثاء :

سهْلُ الخَلِيقَةِ مَشَّاءٌ بأقدمه إلَى ذوَاتِ الذُّرَى حَمَّالُ أثقَالِ

حَسْبُ الخَلِيلَيْنِ نَأْىُ الأرْضِ بيْنَهُمَا هَـذَا عليْهَا وَهَذَا تَحْتَهَا بَالِى

وقوله :

المَرْءُ يَأمُلُ أنْ يَعِيشَ وَطُولُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّه

تَفْنَى بَشَاشَتُهُ وَيَبْقَى بَعْدَ حُلْوِ العَيْشِ مُرُّه

وَتَخُونُهُ الأيَّامُ حَتَّى لَا يَرَى شَيْئاً يَسُرُّه

كَمْ شَامِتٍ بِى إنْ هَلَكْتُ وَقَائِلٍ : للهِ دَرُّه

وللنابغة الذبيانى ديوان شعر شرحه أبو بكر البَطَلْيَوْسِىّ طبع مرارا .

٩ — الأعشى

وأما الأعشى فهو مَيْمون بن قيس من قبيلة بكر بن وائل . وسمى أعشى قيس تميزا له عن آخرين سموا هذا الاسم . وسمى الأعشى لضعف فى بصره . وكان يسمى صَنَّاجَة العرب لتغنيهم بشعره .

كان الأعشى من أهل اليمامة من قرية يقال لها "منفوحة" ولكنه جاب جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها يمدح ملوكها وأمراءها كما يقول :

قدْ جُبْتُ ما بَيْن بانِقْيا إلى عَدَنٍ وطال فى العُجْمِ تَرْدادى وتَسْيارى

و ينسب إليه قوله

وَطَوَّفْتُ لِلْمَالِ آفَاقَهُ ... عُمَانَ فَحِمْصَ فأورِيشَلِمْ
أَتَيت النجاشِيَّ فى دَارِهِ ... وأَرْضَ النبِيطِ وأَرْضَ العَجَمْ

وكان تطوافه سببا فى كثرة معارفه وسعة ثقافته، اتصل بنصارى نجران و بأهل الحيرة و بشريح بن السموءل اليهودى صاحب تيماء بحصنه الذى يقال له "الأبلق" إلى غير ذلك . وكان يرحل كل سنة إلى سوق عكاظ وهناك ينشد بعض أشعاره

وقد أدرك الأعشى الإسلام وقصد رسول الله ليسلم ، ولكن قريشا خافت من إسلامه — وكان ذلك قبل فتح مكة — فرصدوه على طريقه وقال له أبو سفيان : "نحن وهو فى هدنة فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك ستتك هذه ، وتنظر مايصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت حلفا ، و إن ظهر علينا أتيته" فأخذ مائة من الإبل وعاد إلى بلده ، فرمى به بعيره قريبا من قريته فمات . وقد كان أعد قصيدة فى مدح النبى (صلى الله عليه وسلم) حين رحل إليه مطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا ... وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ المُسَهَّدَا

وفيها يقول :

فَآلَيْتُ لا أَرْثِى لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ ... وَلَا مِنْ حَفًى حَتَّى تُلَاقِى مُحَمَّدَا
نَبِىٌّ يَرَى مَا لَا يَرَوْنَ ، وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ لَعَمْرِى فِى البِلَادِ وَأَنْجَدَا

شعره :

للأعشى ديوان شعر كبير طبع فى أوربا ، وفيه مطولتان عدّ بعض العلماء كلا منهما معلقة ، مطلع أحداهما :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟

ومطلع الأخرى :

ما بُكَاءُ ٱلْكَبِيرِ فِي ٱلْأَطْلَالِ وسُؤَالِي وما يُرُدُّ سُؤَالِي !

ويمتاز شعره كما أسلفنا بمعارفه الواسعة . وقد أدخل فى شعره ألفاظا فارسية استفادها من رحلته إلى الحيرة ، ووصف سيل العرم والقصر الأبلق وتاريخهما كما يرويه أهل عصره ، كما امتاز بإكثاره من وصف الخمر وما إليها من نديم وساق وقينة وعود . وأطال فى ذلك حتى عد إمام الأخطل وأبى نواس فى هـذا كله ، وحتى قالوا إنه كان له معْصَرة يعصر فيها العنب ويتاجر فى الخمر .

ومن قوله فيها :

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا وقهوةً مُزَّةً رَاوُوقُها خَضِلُ

لا يَسْتَفِيقُونَ منها وهى راهِنَـــةٌ إلّا بِهَاتِ ، وإنْ عَلُّوا وإنْ نَهِلُوا الخ

النثر الجاهلى

كان للجاهليين نثر ، يتكلمون به فى شئونهم وتصريف أمورهم ، وكان لهم نثر فنى ، ونعنى به النثر المنمق اللفظ الذى صيغ فى قالب أدبى يثير المشاعر ويحرك العواطف ، وكان هذا الضرب من نثرهم أقل شأناً من شعرهم ، لأن الشعر وليد الخيال ، والنثر وليد العقل ، والأمة فى بادىء أمرها خيالها أكبر من عقلها ، ولأن النثر الذى هذا شأنه أظهر ما يكون فى الكتابة يرتب الكاتب فيها أفكاره ، ويحدد معانيه وأغراضه . والعرب فى الجاهلية كانوا أمة أمية قل فيها القارىء والكاتب ، على أن الذى قالوه من النثر فى جاهليتهم لم يصل الينا وافرا وفرة الشعر ، لأن الأدب الجاهلى روى أول أمره من طريق المشافهة ، ينقله راو عن راو سماعا ، ولم يدون إلا فى العصر العباسى الأول ، والذاكرة أقدر على حفظ الشعر وروايته ، من حفظ النثر وروايته ، لأن ما للشعر من أوزان وقواف يعين على استذكاره وضبطه ، اذا أخطأت الذاكرة فيه فكلمة موضع كلمة ، أو شطر موضع شطر ، ولكن جوهر القصيدة سليم غالبا ، وليس كذلك النثر .

وما روى لنا من نثرهم أنواع :

(١) قصص تروى فيه أخبارهم وأيامهم ومفاخرتهم وقد ورد من هذا كثير فى كتاب الأغانى ولكن يظهر أن هذا النوع كثيرا ما تكون ألفاظه ألفاظ الراوى احتفظ بالمعنى ورواه من لفظه .

(٢) مواعظ دينية كالذى روى لقس بن ساعدة .

ولكن أكثر المأثور من النثر الجاهلى هو الخطب والأمثال .

الخطابة :

للخطابة صلة وثيقة بالشعر لاعتمادها كذلك على الخيال يثير العاطفة ويهيج المشاعر وأكثر ما تنمو الخطابة حيث الحرية والاستقلال . وحيث الحاجة إليها شديدة فى النضال السياسى والحزبى والقومى . وهذه وسائل كانت متوافرة فى الجاهلية ؛ فهم أحرار جاوزوا الحد فى الحرية ، والنزاع القبلىّ بينهم شديد.وهم أهل لسن وفصاحة ،فلا غرو أن ترقى فيهم الخطابة ويعلو بينهم قدر الخطباء وتزهى القبيلة بخطبائها كما تزهى بشعرائها . وأكثر ما روى لنا من الخطب الجاهلية كان يدور حول أحد أمرين : —(١) المنافرة ، وهو أن يفخر رجل على رجل أو قبيلة على قبيلة فيتنافرا إلى حَكم يحكم بينهما ، وقبل الحكم يقوم كلٌّ خطيباً يعدد مفاخره أو مفاخر قومه . فكان ذلك مجالا صالحاً للخطيب يستعرض فيه بلاغته وفصاحته . (٢) الوفود ، فقد كان شائعا عند العرب وفودهم على الملوك والأمراء فى حاجاتهم. كالذى روى فى كثير من الأحيان من إيفاد الوفود لملوك الحيرة ، اذ كانوا مقصد العرب ،و بيدهم إدارة الشؤون السياسية بين القبائل حولهم ، من إشعال نيران الحرب أو الدعوة إلى السلم أو نحو ذلك . وكانوا أغنياء تطمع القبائل والأفراد فى أموالهم فكثرت الوفود عليهم ، وكثرت خطب الوفود بين أيديهم .

وكانوا إذا خطبوا وقفوا وفى أيديهم العصا فى السلم . والقوس فى الحرب.وقد يخطبون على رواحلهم ، وقد يضعون العمامة فوق رؤوسهم إذا خطبوا.ومنه قوله : «متى أضع العمامة تعرفونى» .

وعلى الجملة فما روى من خطبهم يمتاز بقوته ، معان غزيرة فى ألفاظ قليلة ، وجمل محكمة وضع بعضها بجانب بعض فى قليل من الروابط والصلات . والكثير مما روى لنا من الخطب فى صدر الإسلام كخطب الخلفاء الراشدين وأمثالهم لم يكن إلا ارتقاء للخطب الجاهلية ، تأثرت معانيها بالإسلام ولكن صياغتها وشكلها وإلقاءها وتراكيب جملها كان على نمط راق من أنماط الجاهلية .

أمثلة من الخطب والوصاية :

خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوّار بيت الله الحرام :

رووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أولَ نهار اليوم الأول من ذى الحجة، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول :

يا معشرَ قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما .

"يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمَكُم بولايته ، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه، وزوّار بيته ، فانهم يأتونكم شُعْثاً غُبْراً من كل بَلَد ، فوَرَبِّ هذه البَنِيَّة : لو كان لى مال يَحمل ذلك لكفَيْتكموه ، ألا وإنى مخرجٌ من طَيِّب مَالى وحَلاَله ، ما لم يُقْطَع فيه رَحم ، ولم يؤخَذْ بظلم ، ولم يدخل فيه حَرَام ، فواضعه ؛ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك ، فعَلَ ؛ وأسألكم بحرمة هذا البيت ألاَّ يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوّار بيت الله ومعونتهم إلا طَيِّبًا ، لم يؤْخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يغْتَصَب" .

خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة :

تنافرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة ، فقال فى خطبته :

" أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النَّضْر بن كنانة ، وبنو قُصَىّ بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ؛ لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كل حِلْف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رَحم .

يابنى قصىّ ، أنتم كغصنى شجرة : أيهما كِسرَ أوحش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللّجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كَنز ، والجود سؤدد ، والجهل سَفَه ، والأيام دوَل ، والدهر غِيَر ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ؛ فاصطنعوا المعروف تكسِبوا الحمد ، ودَعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمرْ ناديكم ، وحاموا الخليط يرْغَبْ فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإنَّ نَهْنَهَةَ الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومَقام الحليم عِظة لمن انتفع به .

فقالت قريش : رضينا بك أبا نَضْلَةَ ! وهى كنيته .

وصية لأكثم بن صيفى

تباروُّا فان البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوقى مما هو واقع ، فى طلب المعالى يكون العناء ، الاقتصاد فى السعى أبقى للجَمام ، أُصْبِحُ عند رأس الأمر أحب إلىّ من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ، ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ؛ وإذا أدبرعرفه الكيس والأحمق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يُضْحَك منه ، حيلةُ مَن لا حيلة له الصبر ، إن تعش تر ما لم تره ، المكثار كحاطِبِ لَيْلٍ ، من أكثر أسقط ، لاتجعلوا سراً إلى أمة .

الأمثال

وأما الأمثال بجمل رصينة جمعت فيها تجارب الأمة واجتمع فيها إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه . والأمثال — عادة — صورة صحيحة من صور الأمم ، وتمتاز بأنها لا تمثل عقلية طبقة راقية فقط كالشعراء ، ولكنها تمثل عقليات الشعب جميعه ، لأنها تنبع من طبقاته المختلفة . والأمثال تختلف باختلاف معيشة الأمم الاجتماعية ، فالأمة البحرية أمثالها مشتقة من حياتها ؛ والأمة الصحراوية كذلك ، كما تختلف باختلاف درجة الأمة فى الرقى وهكذا

والعرب من أغزر الأمم أمثالاً ، وكانت أمثالهم إما جملاً حكيمة ينطق بها عقلاؤهم وذوو التجربة فيهم ، وقد اشتهر بهذا النوع زهير بن أبى سلمى شعراً ، واكثم بن صيفى نثرا . وإما أمثال قيلت فى حوادث تمثل الناس فى الأحداث المشابهة مثل : — الصيفَ ضيعتِ اللبن — ولأمرٍ ما جدَعَ قَصِيرٌ أنفــه — والقافلة تسير والكلاب تعوى — ولا فى العير ولا فى النفير . وقد جمعت الأمثال العربية فى كتب كثيرة أشهرها وأجمعها مجمع الأمثال للميـــدانى ولكن مع الأسف لم تجمع أمثال كل عصر على حدته بل اختلطت فيها أمثال الجاهلية بأمثال الإسلاميين وأحيانا يسهل معرفة العصر الذى قيل فيه المثل من الحادثة التى قيل فيها وأحيانا لا يعرف ذلك وهذا فى كثير من النوع الأول وهى أمثال الحكمة (١)

---

(١) انظر طائفة من الأمثال فى المنتخب

الأدب فى صدر الإسلام وبنى أمية

عصر صدر الإسلام

من بدء الإسلام الى سنة (٦٠ هـ)

أثر الإسلام فى ارتقاء شؤون العرب الاجتماعية والسياسية

(ا) ارتقاء حياة العرب الاجتماعية بظهور الإسلام

كانت البداوةُ طبيعةً غالبة على أمة العرب فى أُخْرَيات جاهليتها حتى على ملوكها وأقيالها من سكان القرى ، فلم يكن يؤثَر عنهم علمٌ نافع ، ولا شرع وازع ، ولا صناعةٌ محكَمَة ، ولا تجارة منتشرة ، ولا معاملةٌ حسنة ، ولا أمْن شامل ، ولا ملك عتيد .

فلما ظهر الاسلامُ جاءهم بهَدْيٍ منير ، وخير كثير ، ومُلْك كبير ، فأحياهم حياةً طيبة راقية فى اجتماعهم وسياستهم .

فمن مظاهر رُقيِّهم فى حياتهم الاجتماعية الجديدة .

(١) نظامُ الأُسرة :

فقد أبطلَ الاسلامُ كثيرا من أنواع الزّواج والمخالطة البَشِعة التى كانت فاشيةً فيهم ، وقصَرَهم على الزواج الشرعىّ بشروطه المعروفة ، فحَفِظَ به الأنسابَ وبيّن النفقاتِ ، وحدّدَ أكبرَ عددٍ للزّوْجات بأربع للقادر المستطيع العَدْل بينهن . وقد كان فى الجاهلية غيرَ محدود . وفى هذا التعدّدِ القليلِ مَرْحَمةٌ للنساء عِند فناءِ الرجال فى الحروب ، وهى ضروريةٌ فى دِينٍ تجب على أهله الدعوةُ إليه . وحمايةُ هذه

الدعوةِ من المعتدى عليها بالقُوة،وأباح للأرامل المُتوفَّى عنهن أزواجُهن الزواجَ بعد أن كان وَلِيُّ المُتَوَفَّى يعضُلُهنَّ (أى يمنعهن عنه) وورَّث النساءَ بعد أن كان أكثرُ قبائلِ العرب لا يورِّثُهن .

(٢) نظامُ الجماعة :

فقد حَرَّمَ الإسلامُ الدعوةَ إلى العَصَبيَّة الممقوتة ، واستبدلَ بها جامعةَ الدين وجامعةَ الطاعةِ لحاكِمٍ واحد هو وَلِيُّ أَمر المسلمين ومَنْ دَخَل فى ذِمَّتهم . وسَوَّى الإسلامُ فى الحقوق الدنيويةِ والتكاليف الدينية والعقوبة ،وجمعهم فى صلاة الجماعة والجُمَع والعيدينِ والحج ، وعاشوا آمنين، يُنصِفهم القاضى ، ويتفقدهم العَسَسُ ، ويزعهم الشُّرَط ، وتُقام عليهم الحدود . ويُطرحَ العاتى منهم فى السجون، ويفقه عالمُهم فى الدين جاهلَهم .

(٣) نظام التعيش والتكسب :

فقد قرر أقصى عِقابٍ على من يتكسب بطريقةِ شن الغارات ، واغتصاب أموالِ الناس ، وجعلهم بغاراتهم هذه يحاربون الله ورسوله ، ويسعَوْن فى الأرض فسادا ؛ فقال تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون اللهَ ورسولَه ويسعَوْن فى الأرض فسادا أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلُهم من خِلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرةِ عذابٌ عظيم) وعوّضهم رِزقا شريفا ؛ بجعلَه مضمونا تحتَ ظِلال رِماحهم ، ومعقودا بِنواصِى خَيلِهم : وذلك بضرب الهجرةِ عليهم الى فتح الأمصار والدعوةِ الى دينِ الله ، واغتنام الفىءِ والاكتتاب فى ديوانِ الجيش والأُعطياتِ ؛ ففتحوا بلادَ الفرس وأطيبَ بلاد الروم ؛ واقتسموا الأرض ، واستغلوا الريفَ والضِّياعَ ، واختطّوا الدورَ وشيّدوا القصور بأيدى عبيدهم أو مواليهم من أهلِ الممالك التى افتتحوها .

وكان القرنُ (١) الذين خلفوهم وورثوا نعمتهم من أبنائهم وحفدتهم أهلَ حضرٍ فى كل شىء ، حتى كان منهم فى مكةَ والمدينة مترفون يلبسون الرقيقَ ، ويلهون بالغناءِ وعزفِ القيان .

(ب) رُقِىُّ حالتهم السياسية

ومن مظاهرِ ترقيةِ حياةِ العرب السياسية فى خاصة أنفسهم وفى أهل الممالك التى استولوا عليها .

(١) أنهم خضعوا لإمامٍ واحدٍ يأتمرون بأمره وينتهون بزجره. وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حياته ، وخليفة له من بعده ، يبايعونه بالخلافة فيسوقهم لنشرِ الدين وإعلاء كلمتهِ وفتح البلاد المستغلقة على الإسلام ، ويقومون هم بتأييده ومحاربة الخارجين عليه ، فتكون بذلك من جميع قبائل العرب وَحْدةٌ سياسية إسلامية متوحدة فى الدين واللسان ونظام الحكم والآداب .

(٢) استقلال كثيرٍ من بلاد العرب . وخروجهم عن تابعية الممالك العظيمة المجاورة لهم من الفرس والروم، ودخولهم جميعا فى نطاق الوَحْدة الإسلامية . وهم :

(أ) عربُ اليمن ، وكانوا قبيل الإسلام تحت سلطةِ الفرس يبعثون عليهم عاملا من قِبلهم . وآخرُ عاملٍ عليهم باذانُ الذى أسلم ودخلت اليمن جميعها فى الاسلام .

(ب) عربُ البحرين وكان أكثرُهم مجوسا تابعين للفرس ينصِّبون عليهم ملكا من العرب ، وآخرُهم المنذرُ بن ساوى ، وقد أسلم وأسلم قومه .

---

(١) القرن هنا أهل زمان واحد

(ح) عربُ بنى نَصْر من لَخْم ، وملوكهم المناذرة ملوك الحيرة ، وكانوا عمالاً للفرس على عرب الفُراتِ ، فُتِحت بلادُهم زمن أبى بكر وعمر ، ودخلوا فى الاسلام

(ى) عربُ غَسّان ، وينزلون شرقى الشام ، وكانوا نصارى تابعين للروم ينصببون عليهم ملوكا منهم بمنزلة عمالٍ لهم وآخرهم جبلة بن الأيهم ، أسلم ثم ارتدّ وهرب إلى القسطنطينية ، وأسلمت بقيـــةُ غسان الا قليلا وأصبح أشرافُ هذه الإمارات التى كانت تابعة للفرس والروم ساداتٍ فى الإسلام فى بلادهم وغير بلادهم بعد أن كانوا بمنزلة الرعية أو الحراس على تخوم الأعاجم .

(٣) تمرنُّهم على أساليب حكم الأمم ، لحوّلَ الاسلامُ كثيرا منهم من أعرابٍ جفاةٍ أو تجارٍ صغار إلى خلفاء وأمراء وعمال وقضاة ، فبرعوا فى قيادة الجيوش واختطاط المدن وتولى مناصب الدولة من الامارة والجباية والشرطة والقضاءِ والمظالم ؛ يشهد لهم بتلك البراعة فى الحكم ما حفظه التاريخ من كتبهم ووصاياهم إلى الولاة ، ومن العهود التى كانوا يعقدونها مع الأمم المغلوبة وأهل الذمة فى مشارطات الصلح وعقد الهدنة . ومن العهود التى كان يكتبها الخليفة والأمراء عند تولية العمال والقضاة . نعم إن بعض هذه النُّظُم مقتبَس من نظام الدول التى افتتحوها ، ولكنّ رُوحَ الإسلام هو الذى حفَزَهم إلى اقتباس النـافع ، إذْ كان مِن أشرفِ تعليماته أنّ الحِكمةَ ضالةَ المؤمن ينشدها أنى وجدها (أى أن المؤمن يجب عليه أن يتطلب النّافـع ويأخذ به مهما كان مصدره)

ومن حسن مَرانتهم على أساليب السياسة حسنُ معاملتهم لأهل الذمـة ، وتسويتهم بالمسلمين فى أكثر الحقوق المدنية ، واستخدامهم فى مرافق البلاد : مِن الجباية وهندسة الرى وكتابة الدواوين ، وإعفاء العجزة والشيوخ والأطفال والرهبان من الجزية ، ومصاهرتهم لهم بالتزوج مِن نِسائهم والتسرى بهن ، فامتزجت

دماؤهم بدماء أمم شتى من فرس وسريان وروم : مما يعرف منه أن الاسلامَ ألَّف من أممٍ متقاطعةٍ متباغضة أمة مهذبة متدينة سياسية حربية ، أنقذت كثيرا من الأمم المظلومة . وساستْهم خيرَ سياســة ، وسهّلت لهم سبُل الترقى ، وامتزجت بعد دماؤها بدمائهم ، وغلبت لغتُهــا على لغتهم ، حتى كوّنت منهــا ومنهم وَحدة إسلامية ملكت من حدود الهند والصين إلى جبال البرانس من أسبانيا .

القرآن

القرآن هو كتاب الله العزيز الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هدًى وبشرى ، وموعظةً وذكرى ، ودعوة إلى خير الدنيا والأخرى

أنزله عليه بطــريق الوحىَ منجما حسب على الوقائع والأحداث والتــدرج فى التكاليف والفرائض ، لينشئ الأمة العربية تنشئة تصلح بها لتبليغ العــالم رسالة توحيد اللهِ توحيدا خالصا من شوائب الشرك ومشابهة المخلوقات فى أى شىء

وتم نزولهُ على رسول الله فى ثلاث وعشرين سنة كان فى ثلاث عشرةَ ســنةً منها يُقيم بمكة ، وهى وطنهُ الذى نشأ فيه ، وتُسمّى الآيات والسور التى نزلت فيها أو فيما حولها مكية . وكان فى عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة ، وهى دار هجرته التى قضى فيها بقيةَ حياته ، وتسمى الآياتَ والسور التى نزلت فيها أو فى غزواته وأسفاره فى أثناء إقامته فيها مدنية . ومجموعهما أربعَ عشرةَ ومائةُ سورةٍ .

وأولُ ما نزل من القرءان : " اقرأْ باسم ربِّكَ الذِى خَلَقَ ، خلقَ الإنسـٰنَ مِن عَلَقٍ اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ الذِى عَلَّمَ بالقلِمِ علّم الإنسـٰنَ ما لم يعلَمْ " نزلت على رسول الله وهو يتعبّد بِغارِ حِراء بقرب مكة .

وأوّلُ ما نزل عليه بالمدينة : "ويلٌ للمطفِّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستَوْفون وإذا كالوهم أو وزَنوهم يُخسِرون ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ يوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين" لأنهم كانوا أشدّ العرب إخسارا للكيل والميزان .

وآخرُ آية نزلت على أشهر الأقوال : "اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ دِينا" نزلت عليه فى حجة الوَداع ، وقُبَيْلَ حِجّة الوَداع نزلت عليه سورةُ التوبة .

موضوعات سور القرءان أو أغراضها ومقاصدها :

كانت موضوعاتُ الآياتِ والسور التى نزلت بمكة الدعوةُ إلى عبادة اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، وتنزيهِهِ من مشابهة خلقه ، ونبذ عبادة الأوثان التى لا تنفع ولا تضر ، وإلى الإيمانِ بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا فى يومٍ يبعث فيه الناس ، ويُنْشرون ويُحاسَبون على ما قدموا فى دار الدنيا فيجازىٰ المؤمن بنعيمِ الجنةِ الخالدِ ويعاقَبُ الكافر بجحيم جهنم الخالد . يقرر كل ذلك فى سُوَرٍ شتى وأساليب مختلفةٍ : فمن موعظةٍ حسنةٍ وحكمةٍ بالغة ، وحث على التمسك بفضيلة ومكرمةٍ ، ومن عِبرةٍ بقصِّ قِصةِ طاغيةٍ ، أو عاقبةِ أممٍ باغية ، وسِيرةِ رسول مع قومه ، ومن استدلالٍ بخلق السمواتِ والأرضِ على قدرةِ موجدها ، وعلى وجوب توحيده بالربوبية ، ومن إنذارٍ للعاندين وتقريعٍ للمستهزئين ونعيٍ على الجاهلين وذم للكافرين ؛ كل أولئك بعباراتٍ بليغة وفقارٍ مفصلةٍ وسورٍ كانت فى أول الإسلام قصيرة ثم طالت بحسب الأحوال ؛ وذلك لأن أهم ما قصَد إليه الإسلامُ فى أول أمرِه بيان منزلة العبد مِن مولاه وخالِقه ، وما أعده له على طاعته أو معصيته من ثوابٍ أو عقاب .

ثم لما قوى الإسلامُ بالهجرة إلى المدينة ، وقيّض الله له الأنصارَ من أهلها يؤيّدونه ويُعلون كلمتَه صار أكثرُ موضوعات الآيات التى نزلت على رسول الله بالمدينة وفى أثناءِ خروجه منها للغزاةِ أو الأسفار يشمَل فوق ما تقدّم أموراً أخرى : مثل نظامِ العبادة . وفرضِ الفرائض والتحليلِ والتحريم . ومثل نظامِ الأُسرة : مِن تقرير أحكامِ الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعِتق ، ومثل نِظام الجماعةِ بإطاعة أولياءِ أمورِهم ، والتناصرِ على إقامة الحدود ، وحماية العِرضِ والمالِ ، وتقريرِ العدالة فى القضاء والأحكام ، وتحديدِ المعاملة الحسنة فى البيع والشراء والمداينة والرهن ، ونحو ذلك مثل نظامِ معاملة أمةِ المسلمين لغيرها من الأمم فى الحرب والسلم وتقسيمِ الغنائم ومعاملة الأسرى وعقد الهُدُنات والمعاهدات وسياسة المغلوبين من غير المسلمين من أخذ الجزية من أهل الذمة ومصالحة غيرهم ، وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وجملةُ القول أن القرءانَ كتابُ هدايةٍ إلى مكارم الأخلاق والآداب وإلى توحيدِ اللهِ وعبادته وتنزيهِه عن مشابهةِ خلقه . وكتابُ شريعةٍ لحقوق الأسرة والأمة فى خاصة نفسها وفى علاقتها بغيرها .

أسلوب القرءان :

وقد نزل على أسلوبٍ من الكلام لا يُضارعُه أسلوبٌ قبلَه ولا بعده من كلامِ البشرِ ، فلا هو شِعرٌ ، ولا هو سجع ملتزَم ، ولا هو مزاوجة دائمة ، ولا هو نثر مرسل إرسالَ الحديث ، ولا هو خطابة ، وإنما هو نظم بديع من كلامٍ عذبِ اللفظ محكَمِ الوضع باهرِ الروعة حصيف المعنى ، فُصِّلَ بين أجزائه تفصيلا تشعر النفس عند انتهاءِ أى فاصلة منه بانتهاء القول ، وتطمئن إلى الوقف عليها ولو تعلق بها ما بعدها. وتتنوّع طرقه فى الاقناع بتنوّع طبائع المخاطبين به : فمن قصصٍ على أشكال مختلفة فى إطناب أو إيجاز أو توسط ، وبفواصل طوالٍ أو قصار أو متوسطة ،

ومن استدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة فى خلق السموات والأرض ، أو ضرب الأمثال ، أو بقياس الغائب على الحاضر ، أو بالبرهانات النظرية ، ومن تصريح وتكرير إلى كناية وإيجاز .

كل أولئك مصوّر بصورةٍ فوق طاقة البشر من الإحكام والبلاغة وصحة الحكم وانتفاءِ التناقض والاختلاف ؛ فإن البشر إذا أجاد أحدهم فى فن من الكلام قصّر فى غيره .

(أفلا يتدبرون القرءانَ ولو كان مِن عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلٰفا كثيرا) .

أثر القرآن الكريم فى اللغة والأدب

القرءانُ قرءانٌ بمجموع ألفاظه ومعانيه ، والتعبيرُ عن معانيه بألفاظٍ غيرِ ألفاظِه يخرجه عن صورته التى نزل بها ، وأعجز البشرَ محاكاتُها فى فصاحتها وبلاغتها ، لِذلك عُنِيَ المسلمون بحفظه جِدَّ العِناية ، وقرءوه بلغة قريش المنزِلِ بها ، فكان ذلك بمثابة تصديقٍ لقوله تعالى "إنا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنا له لحٰفظون" وكان لحفظه قائمًا بصورته طَوالَ تلك القرون الخالية أثرٌ عظيم عادَ على اللغة العربية وأدبها بفوائد شتى .

فأما آثاره فى اللغة العربية الفصيحة فمنها :

(١) خلودُها وحفظها من الانقراض كما انقرض غيرها من اللغات القديمة التى تعدُّ الآن من اللغات الأثرية .

(٢) ومنها توحيدُ لَهَجاتها فى لهجة قريش أفصح اللهجات العربية ؛ فكان من ذلك التئامٌ لصُدوعها ، وجمعٌ لِشتيت قبائِلها فى لغة العبادة والقراءة والكتابة لغة القرءان .

(٣) ومنها توسيعُ نِطاقِها بالتوسع فى استعمال بعض ألفاظها لِتتسع للمعانى الدينية والفقهية ؛ مما سُمِّىَ بالألفاظ الإسلامية : كلفظ المؤمن والكافر والمنافق والصلاة والصوم والزكاة ونحو ذلك .

(٤) ومنها تهذيبه ألفاظَها وأساليبَها ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم فى الصلاة والعبادة ، وطول درسِهم له وتفهّمِهم إياه واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه . فنشأ مِن ذلك أن هُجِر كثيرٌ من الألفاظ الحُوشية والمعيبة واستُبدِل بها ألفاظُ القرءان العذبةُ السائغة ، وعُدِل عن الأساليب القديمة المعقدة والمتداخل بعضها فى بعض إلى أساليبه السهلة الممتنعة .

(٥) جعلُ اللغة العربيــة لغةً عامة رسمية لجميع الممالك الكثيرة التى انتحها المسلمون ، لأن جمهرتهم أسلموا واندمجوا فى العرب ، فاضطروا إلى هجر لغتهم الأصلية وتعلم العربية للتفاهم مع أوليائهم من العرب ، وتفهم القرءان والسنة لأخذ أحكام دينهم ومعاملتهم بهما .

وأما آثاره فى الأدب العربى فمنها :

(١) أن شدةَ حرص المسلمين على تفهّم القرءانِ من حيث معرفةُ ألفاظه والوقوف على معانيها الوضعية والمجازية وأساليبه المختلفة وكناياته الدقيقة حملتْهم بل فرضت عليهم تتبعَ ألفاظِ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم ؛ فكان من ذلك أنْ تجرّدَ الوفُّ من الرواة يجمعون اللغةَ وشعرها وحكمها وأمثالها ووصاياها وخطبها حتى أسجاع كهانها ؛ فجمعوا من ذلك مئاتِ الكتبِ والرسائل ، وتألفت بذلك مادةُ الأدب القديم التى صارت فيما بعد أساسا للآداب العربية فى موضوعاتها وأغراضها ومعانيها وتصوراتها وأخيلتها .

(٢) محاكاةُ الشعراء والكتّاب والخطباء لعبارات القرءان فى ألفاظه وأساليبه واقتباسهم آياته فيما يقولون واستشهادهم بها فى وعظهم ومحاورتهم وجدلهم حتى اشترط كثير من أئمة الدين إيرادَ بعض آى القرءان فى خطب الجمع . ويرى المتتبعُ لشعر

المخضرمين فى أول الإسلام كحسان وأبى قيس صرمة وكعب بن مالك والحارث ابن عبد المطلب ولشعر الإسلاميين كثيراً من ألفاظ القرءان وأساليبه وكناياته وتشبيهاته .

(٣) تخليدُه صورَ البيانِ الرائع والأساليب البديعة التى استخرجها بَعْدُ الأدباءُ منه وسمّوها المحسناتِ البديعية .

(٤) إن إتيانه بكثير من القصص المسوقة للعبرة والذكرى كقصص الأنبياء وبعض الملوك كان من أهم الأسباب التى حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة الساميّة وغير السامية : مما جعَل التاريخَ العربىّ ذا فنونٍ وشُعَب كثيرة العدد والمباحث وجعَلَه من أجمل كتب الأدب العربى .

(٥) إحداثُه لكثير من العلوم اللغوية والأدبيــة والشرعية التى أكسبت الآدابَ العربية فَراهةً وعظما .

الأحاديثُ النبوية وأثرُها فى ترقية الأدب

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصحَ العرب لهجةً ، وأبلغهم حجة ، وأعذبهم كَلِما ، وأغزرهم حِكَماً ، وأوجزهم عبارة ، وأعلمهم بلغات قبائل العرب ، وأقدرهم على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها .

فلا جَرَمَ أن يكون المــأثور عنه من الحديث صفوةَ اللغة وحلية البيان بعد القرآن يقتبس الأديب من لفظه ، وينتفع البليغ بصَوغه ، ويستمدّ مفسر القرءان من أثره ، ويستكمل الفقيه الأحكام الشرعية من نصه ، ويشيد اللغوى صرحا للغة من كلمه ، ويستظهر الحكيم بحكمتــه ؛ إذ كان صلوات الله عليه لا ينطق بلغو ، ولا يقصــدُ الى غير توضيح قرءانٍ ، أو تقريرِ شرع ، أو هداية إلى حقّ ، أو تنفير من شر ، أو حكمة ينتفع بها الناس فى أمور دينهم ودنياهم .

ولم يدون أصحابه (رضى الله عنهم) أحاديثَه من ساعة نطقه بها خشية أن يختلط على عامة المسلمين المروى منها بالمروى من القرءان ؛ ولكن من أمِن منهم على نفسه ذلك الاشتباهَ كان يقيّدُ بعضَه بالكتابة لنفسه : إما بلفظه ، وإما بقريب منه .

وللرسول من مجاز اللغة كلماتٌ لم يُسبَق إليها ، منها قوله عند احتدام الحرب (الآنَ حَمِيَ الوَطِيس) وقوله فى الاهبة للحرب (يا خيلَ الله اركبى) وقوله (مات حتفَ أنفه) وقوله (هذا يومٌ له ما بعده) .

وله من جوامع الكلم ما يجلو صدا النفس، و يشرح ضيق الصدر فراجع بعض ما تيسر ذكره فى (المنتخب) .

النـــثر

الخطابة ورقيها بعد ظهور الإسلام

صور من خطب عصر النبي والخلفاء الراشدين

لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : "وأنذر عشيرتك الأقربين" جمعهم وخطبهم فقال :

" إن الرائدَ لا يكذِبُ أهلَه ، والله لو كذَبْتُ الناس جميعا ما كذبتُكم ، ولو غرَرتُ الناسَ جميعا ماغررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتُنّ كما تنامون ، ولتُبعَثُن كما تستيقظون ، ولتحاسَبن بما تعملون ، ولتجزَوُنّ بالإحسانِ إحسانا وبالسوءِ سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو نار أبدا " .

وخطب رسول الله ذات يوم فحمِد الله بما هو أهله ، ثم أقبل على الناس فقال :

" أيها الناس إن لكم معالمَ[1] فانتهُوا إلى معالمِكم ، وإن لكم نهايةً فانتهُوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجلٍ قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجلٍ باقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ؛ فليأخذ العبد مِن نفسِه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكِبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فو الذى نفس محمدٍ بيده ما بعد الموت من مستَعتَبٍ[2] ، ولا بعد الدنيا مِن دارٍ إلا الجنة أو النار" راجع (المنتخب الجزء الثانى)

---

(١) جمع معلم بفتح اللام وهو ما يستدل به على الشئ .

(٢) من استرضاء

ولما بايع المسلمون أبا بكرٍ بالخلافة يوم السقيفة بايعوه بعدها فى المسجد البيعة العامة ، وبعدها خطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله :

أما بعد فإنى قد وليتُ عليكم ولست بخيرِكم : فان أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى .

الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى أريحَ [1] عليه حقه إن شاء الله ، والقوىُّ منكم الضعيفُ عندى حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله ، لايدع أحد منكم الجهادَ فى سبيل الله ، فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تَشيعُ الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله وَرَسوله ، فاذا عَصَيتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لى عليكم .

قوموا إلى صلاتكم . رحمكم الله ! »

ومن خطب على (رضى الله عنه) خطبة له خطبها بعد التحكيم وهى :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحادث الجلل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ليس معه إلٰه غيره وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أما بعد فإن معصيةَ الناصح الشفيق العالم المجرب تُورث الحَيرة، وتُعقِب الندامة وقد كنت أمرتكم فى هــذه الحكومة أمرى ، ونخلَت لكم مخزونَ رأيى لو كان يطاع لقصيرٍ [2] أمرٌ ، فأبَيتُم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزّند بقَدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتهمو أمرى بمنعرَج اللّوى   فلم يستبينوا النصحَ إلا ضحى الغدِ

---

(١) يقال أراح فلان على فلان حقه : رده عليه

(٢) هو قصير بن سعد صاحب جزيمة الأبرش يضرب به المثل فى مخالفة الرأى السديد .

حال الخطابة

(زمن النبي والخلفاء الراشدين)

الخطابةُ خِطاب يلقى من فردٍ على جماعةٍ بقصد التأثير فى نفوسهم وإقناعهم بأمرٍ من الأمور .

وللخَطابةِ دواعٍ تقتضيها ومواطن تحمد فيها حيث لا يقوم مقامَها قصائدُ الشعر الطنانة ، ولا رسائل الكتابة المنمقة .

وتتوافر هذه الدواعى عند حدوث حادثٍ عظيم أو انقلاب دينى أو سياسى أو اجتماعى .

وحدوثُ الاسلام وانتشارُه فى سُرعةٍ تفوق الوصف من أكبر حوادث العالم التى نسخت ديانات مختلفة . وقوضت نُظُمَ اجتماعٍ متقادمةِ العهد ، وأزالت مِن الأرض سلطانَ أممٍ ، و بسطت سلطان آخرين ، وتوافرت فيها الدواعى إلى الاستعانة ببلاغة الكلام قبل تجريد الحسام .

دواعى الخطابة :

فمن الدواعى التى استوجبت الاستعانةَ بالخطابة فى تأييد الإسلام أو معارضته ما يأتى :

١ — ظهورُ الإسلامِ بين أمة من الأميين على يد مبعوث منهم ؛ فإن فشوّ الأمية بين قوم كافٍ فى اضطرارهم إلى أن تكون الخطابةُ فيهم وسيلةَ الاقناع ! لذلك كانت الدّعاوة العظمى من رسول الله وأمراء جيوشه وخلفائه واردة من طريق الخطابة .

٢ — سموُّ منزلة الخطابة عند العرب والتباهى بالفصاحة والارتجال فيها قُبَيْلَ الإسلام وفى مبدإ ظهوره ، لا بتذال الشعر بالتكسب به والإقذاع فيه ، ولاتساع مجال القول فى الخطابة ، ولذلك كان لخطب رسول الله وخطب أصحابه أكبرُ أثرٍ فى إقناع فصحاء العرب بصحة الإسلام وسعيهم فى تأييده لقوة التأثير والتأثر بفصاحة الخطيب و إعجاب المستمع .

أما إذا استعجم أحدُهما أو كلاهما فقد بطلت الخطابة .

٣ — تكوّنُ المسلمين أو المشركين فى ابتداء الاسلام من طوائف أو جماعاتٍ مصلين أو حجاج أو من قبائل صغيرةٍ يمكن اجتماع كل منها فى صعيد واحد لاستماع خطيب واحد ، وحينئذ تكون الخطابة أبلغَ الوسائل فى الاقناع لمشاهدة الخطيب بشخصه وتأثرهم بنبرات صوته وشارته و إشارته ، و إذا تعذر إسماع الخطيب لجماهير الجماعة كأهل المدن العظيمة والجيوش الجرارة كان المقام الأول للمنشورات المكتوبة .

موضوعات الخطابة :

ومن موضوعات الخطابة فى زمن النبوة وزمن الخلفاء الراشدين :

١ — الدعوةُ إلى الاسلام ، وتوحيد الله ، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتحذير من بطش الله والترغيب فى نَيْل ثوابه ، أو شَرعِ أمرٍ أو تقرير حكم دينى ونحو ذلك من الأمور الدينية . ولأمرٍ ما جعلها الشارع شِعار كل إمام ، وركنا من أركان العبادة فى كل حَفْلٍ دينى كالجمعة والعيدين وموسم الحج بعَرَفة .

ولذلك كان دعاة النبى صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وخلفاؤه من بعده وقواد جيوشهم وعمالهم كلهم خطباءَ مَصَاقع ولُسُنًا مقَاول .

٢ — تشييع جيوش المسلمين ، وتوصيتهم بما يعاملون به المشركين ، والتحريض على قتالهم والتحذير من كيدهم والتبشير بنيل إحدى الحسنيين الشهادة أو النصرِ عليهم ، أو تهنئة المسلمين بالظفر بعدوّهم . وخطبُ عليٍّ فى حروبه مع معاوية غايةُ الغايات فى هذا الباب .

٣ — حلّ المعضلات السياسية من شرح خُطة ، أو تأييد بيْعة أو رد شبهةٍ على تصرف أو حكم ، أو إعطاء أمانٍ ، أو رد على أعدا ، أو إعلان عفوٍ أو نحو ذلك .

وخطبةٌ واحدة خطبها أبو بكر يوم السقيفة كان فيها مَقنعٌ للسلمين فى استحقاق قريش الخلافة وولاية الإسلام العامة .

أسلوب الخطابة :

ويمتاز أسلوب الخطابة فى صدر الإسلام عن أسلوبه فى الجاهلية بقوة عبارتها وسهولة ألفاظها ، وتجنبها سجع الكهانِ ، وقلة سردِ الحِكم القصيرةِ الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة كما كانت تفعل خطباء الجاهلية ، وببدئها غالبا بحمد الله والثناء عليه . ويحاكاتها أسلوبَ القرءان فى الاستدلال على الله وتنزيهه ، والترغيب فى العمل الصالح بضرب المثل وقص القصص وكثرة الاقتباس من آياته والاستشهاد بها ، حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شىء منه .

على بن أبى طالب رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب ابن عم رسول الله وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين وإمام الخطباء من المسلمين . ولد بعد مولد النبى باثنتين وثلاثين سنة وبعد سنوات لحقت أبا طالب عَيْلة فكفل رسول الله ابنه عليا ، ونشأ فى بيته .

ولما بُعِثَ رسول الله الى الناس كافة كان أوّلَ من آمن من الصبيان ، وأولع منذ صغره بالفروسية ومزاولة السلاح ، فبرع فيهما براعة لم تشهد فى نظرائه ، وأحله هذه المنزلة بين فرسان قريش أنه كان أيِّدا جليدا شجاعا لا يُشَق له غبار . ولذلك خلف رسولَ الله فى داره ليلةَ هجرته ، ونام على فراشه ، وتسجّى بثوبه ، والأعداء يترصـدون النائمَ ليقتلوه . ولما عرفوا أنه علىٌّ رجعوا خاسئين . ثم لحق برسول الله مهاجرا الى المدينة . وشهد معه الغزواتِ كلها الا غزوة تبوك . وأبلى فى نصرته ما لم يُبله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز . وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعةُ بنى أمية غضبًا منهم لمقتل عثمان ، زاعمين أن عليا أغرى القتلة به أو إنه لم يفعل تهاون فى تعرّفهم و إيقاع الحد عليهم ؛ فحدث من جَرَّاء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين تحاربتا من غير أن يستتبّ الأمر لعلى أو معاوية حتى قَتَلَ أحدُ الخوارج عليا غِيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ . وكانت مدة خلافته خمسَ سنين الا ثلاثة أشهر .

وكان رحمه الله أفصح الناس بعد رسول الله وأكثرهم علما وزهـدا وشدة فى الحق . وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله .

الشعر
فى صدر الإسلام

نماذج من شعر المُخَضْرَمين

قال أبو قيس صِرْمَةُ بن أبى أنس من عُبّاد بنى النجار من الأنصار ، ومن أول من أسلم عند قدوم رسول الله المدينة :

سبّحوا اللهَ شرقَ كل صباحٍ   طلعت شمسه وكلَّ هلال[١]

عالم السر والبيان لدينا   ليس ماقال ربنا بضلال[٢]

وله الطير تستريد وتأوى   فى وكور من آمنات الجبال[٣]

وله الوحش بالفلاة تراها   فى حقاف وفى ظلال الرمال[٤]

يابَنِىَّ الأرحامَ لاتقطعوها   وصِلوها قصيرةً من طِوال

واتقوا الله فى ضعيف اليتامى   ربما يُستَحَلّ غيرُ الحلال

وأعلموا إن لليتيم وليّا   عالما يهتدى بغير السؤال

ثم مالَ اليتيم لاتأكلوه   إن مال اليتيم يرعاه والى

يابَنِىَّ التُّخُومَ لاتخزلوها   إن خزل التخوم ذو عقال[٥]

---

(١) يريد : سبحوا الله صباحا ومساء .

(٢) البيان هنا : الظهور ويريد به العلانية ، أى أنه سبحانه يعلم السر والعلانية وله الطير ، أى له من الخلق الطير .

(٣) تستريد : تذهب وتجئ فى طلب الرزق .

(٤) الحقاف جمع حقف وهو المعوج من الرمل .

(٥) التخوم : جمع تخم كنجم وهى حد الأرض بين الجارين ، والمعنى لا تقتطعوا منها شيئا ليس لكم أو لا تقتطعوا صلة الجوار بينكم وفى رواية (لاتظلموها) ويروى هذا البيت لأحيحة بن الجلاح — ومعنى (ذو عقال) ذو مرض صعب البرء وأصل العقال التواء فى قوائم الدابة .

يابنىَّ الأيامَ لاتأمنوهــا ... واحذروا مكرَهـا ومرَّ الليالى

واعلموا أن مرَّها لنفـاد الـ ... خلق ما كان من جديد وبالى

أجمعـوا أمرَكم على البر والتقـ ... وى وترك الخنا وأخذ الحلال

وقال حسان بن ثابت الأنصارى شاعر رسول الله فى انتصار المسلمين على المشركين فى وقعة بدر :

عرَفتُ ديارَ زينب بالكثيب ... كخط الوَحْى فى الورق القشيب[1]

تَداولها الرياحُ وكلُّ جَوْن ... من الوَسْمِىّ منهمر سكوب[2]

فأمسى رسمُها خَلَقاً وأمست ... يَبَابا بعدَ ساكنها الحبيب[3]

فدع عنك التـذكّر كل يوم ... وردّ حرارةَ الصدر الكئيب

وخبِّرْ بالذى لا عيبَ فيــه ... بصدق غير أخبار الكذوب

بمـا صنع المليكُ غداةَ بدر ... لنا فى المشركين من النصيب[4]

غداةَ كأنَّ جمعَهم حِراءٌ ... بدت أركانُه جُنْحَ الغروب[5]

فلاقينـاهم منّـا بجمع ... كأُسْد الغاب مُردانٍ وشيب

أمامَ محمـد قـد وازروه ... على الأعداء فى لفح الحروب

---

(١) الوحى هنا الكتابة ، والرسالة والقشيب الجديد .

(٢) الجون الأسود من السحاب لتراكمه والوسمى أول المطر .

(٣) اليباب : الخراب .

(٤) أى خبر بما صنع الله لنا من النصيب ، أى بما أحسن لنا واختارلنا .

(٥) حراء جبل قرب مكة وفيه الغار الذى كان يتعبد فيه رسول الله قبل نزول الوحى . والمعنى كأن جمع المشركين جبل حراء عنـد غروب الشمس فيكون مسودا مدهاما ، وكذلك يكون الجيش المدجج بالحديد والدروع .

بأيديهم صوارمُ مرهَفات ... وكلٌّ مجرَّب خاظى الكعوب[1]

بنو الأوس الغطارف وازرتها ... بنو النجار فى الدين الصليب[2]

فغادرْنا أبا جهل صريعا ... وعُقْبَةَ قد تركنا بالجبوب[3]

وشيبةَ قد تركنا فى رجال ... ذوى حسب إذا نُسبوا حسيب

ينـاديهم رسـول الله لما ... قذفناهم كباكبَ فى القليب[4]

ألم يجدوا كلامى كان حقا ... وأمر الله يأخذ بالقلوب

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذا رأى مصيب

وقال أبو دَهْبَل الجُمَحى يمدح النبى صلى الله عليه وسلم .

إن البيوت معادِن فنِجاره ... ذهب وكل بيوته ضخم[5]

عقِمَ النساء فما يلدن شبيهه ... إن النساء بمثِله عُقم[6]

متهلل بنعم بِلا متباعد ... سِيانِ منه الوفر والعُدم[7]

نَزْر الكلام من الحياء تخاله ... ضِمنا وليس بجسمِه سُقْم[8]

---

(١) خاظى الكعوب غليظها صلبها يريد الرمح أى بأيديهم سيوف مرهفة ورماح غليظة مكتنزة .

(٢) الغطارف جمع غطريف وهو السيد الشجاع ، والصليب القوى يريد به دين الإسلام

(٣) الجبوب : موضع ببدر

(٤) القليب : البئر ، وقد قذف رسول الله بقتلى المشركين فى بئر هناك وخاطبهم بعدد منهم فقال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ والكباكب جمع كبكبة وهى الجماعة من الناس .

(٥) النجار : الأصل .

(٦) عقم النساء : منعهن أن يأتين بمثله .

(٧) أى يجيب وهو مستبشر بلفظ (نعم) عندما يسأل ، ويبتعد عن (لا) كناية عن كرمه .

(٨) الضمن : السقيم .

وقال كعب بن زهير .

لو كنت أعجب من شيءٍ لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر

فالمرء ما عاش ممدوّد له أمل لا ينتهي العمر حتى ينتهي الأثر

وقال النابغة الجعدي .

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وقال الأشتر النخعي من أصحاب علي رضي الله عنهما .

بَقَّيتُ وَفْرِى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس [1]

إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس [2]

خيلا كأمثال السعالِي [3] شُزَّبا تعدو ببيض في الكريهة شوس

حَمِىَ الحديد عليهم فكأنهم ومضان برق أو شعاع شموس

وقال الحطيئة يمدح :

تزور امرأ يؤتى على الحمد ماله ومن يؤت أثمان المحامد يحمد

يرى البخل لا يبقى على المرء ماله ويعلم أن البخل غير مخلد

كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند

متى تأته تعشو الى ضوء ناره تجدْ خير نار عندها خير موقد [4]

---

(١) أي بقيت مالي ولم أنفقه فيما يكسبني رفعة القدر .

(٢) يريد بابن حرب معاوية .

(٣) السعالى : الغيلان والشزب جمع شازب وهو الضامر ، والشوس جمع أشوس وهو السيد المترفع أنفة .

(٤) تعشو : تقصد .

الشعر
(زمن النبي « صلى الله عليه وسلم » والخلفاء الراشدين)

كان الشعر عند العرب فى جاهليتهم ديوان آدابهم ولسان بيانهم الذى به يفصحون عما يقع تحت حواسهم أو يخطر على قلوبهم من وصف أو تشبيب أو مدح أو هجاء أو فخر أو رثاء ونحو ذلك مما يصور حياة البداوة المشوبة بشوائب من الوثنية وخيالات من الديانات السماوية وغير السماوية .

فلما بدّلهم الإسلام بحياتهم الجاهلية حياة راقية من حيث التدين والتعقل والاجتماع والسياسة كان شعر الشعراء الذين عاشوا فى عهد النبي وخلفائه ممن أدركوا الجاهلية والاسلام جامعا بين مظاهر الحياتين ، ولذلك يسمون بالمخضرمين : لأن الأصل فى معنى الخضرمة أن يجعل الشيء بينَ بينَ . وتظهر الصبغة الإسلامية واضحة فى شعر الشعراء الذين تملئوا بروح الاسلام أو عاشروا رسول الله ودافعوا عنه كحسان ، وعبد الله بن رَواحة ، وكعب بن مالك ، ولا تتضح جلية فى شعر أعراب البوادى من أمثال الحطيئة .

واقتضى عناد مشركى مكة أن يقاوموا الاسلام بما استطاعوا من قوة حتى قوة الهجاء ، فعانوا الشعر بعد أن لم يكن لهم شأن فيه . وظهر فيهم شعراء ناصبوا رسول الله العَداء ونظموا فى هجائه شعرا مصطبغا بصبغة وثنية ، حتى إذا أسلموا هجروا الشعر : من أمثال عبدالله بن الزِّبَعْرَى وأبى سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص .

على أن كثيرا من الشعراء أصغروا الشعر وقوله عن أن يكون مشغلة لهم عن مدارسة القرءان وعبادة الله ، وخاصة بعد أن سمعوا قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين

آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » ومن هؤلاء لبيد العامرى من أصحاب المعلقات ، لأن أكثر أغراض الشعر من باب هذه الغواية التى ذمها القرءان

ونجمل هنا ذكر ماطرأ على شعر هؤلاء المخضرمين (ومدتهم قليلة لا تبلغ نصف قرن من الزمان) فيما يتعلق بأغراضه وأسلوبه .

ما يتعلق بأغراضه :

١ — هجر الشعراء المتورعون فى الدين من المسلمين كثيرا من أغراض الشعر التى تعد من باب الغواية التى نعى القرءان على أهلها فى قوله : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ولا يُحسَبُ من باب الانتصار للدين من ظالميه المستثنى من الغاوين بقوله « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » أما غير المتورعين من أشباه الحطيئة وغير المسلمين من نصارى العرب فكانت حالهم فى شعرهم أشبه بحالهم فى جاهليتهم ، فمن هذه الأغراض التى هجر قول الشعر فيها : الغزل المفحش الصريح ودواعيه ، وتملق الناس بالمدح ، وهجوهم بغير كفرهم وعنادهم ، والفخر بالباطل ، ووصف الخمر وما يحشد فى مجالسها من الندمان والقيان ، ووصف صيد الوحش وطرده مما كان يعده المسلم المتأثر بالحياة الإسلامية الجديدة عبثا ولهوا وغرورا .

٢ — مناقضة شعراء المسلمين لأهاجى شعراء المشركين ، وخاصة ماوقع بين شعراء الأنصار وقريش قبل فتح مكة ممن تقدم ذكرهم آنفا . ومن الحديث فى هجاء هذا العصر تعيير المشركين بالكفر وعبادة الأوثان وارتكاب ما يحظره الإسلام كما فى شعر عبدالله بن رواحة من الأنصار ، فكان هجاؤه أهون الهجاء على مشركى مكة ولكنه كان أشده عليهم بعد إسلامهم .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهجاء المشركين لأن العرب كانت تعدّ سيرورة الشعر بهجائهم أشد عليهم من وقع السهام .

٣ — استعمال الشعر فى تأييد دعوة الإسلام وفيما يطابق روح القرءان كالحث على العمل الصالح وكالموعظة الحسنة وكمدح رسول الله وأنصاره والحض على جهاد أعداء الإسلام ورثاء من استشهد فى غزوات رسول الله أو قتل ظلما من خلفائه وكبار أصحابه ..

(٤) شيوعه على ألسنة شعراء الفاتحين زمن الخلفاء الراشدين فى الفخر والتباهى بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال والحصار التى لم يكونوا عرفوها وأنواع الحيوان العجيب الذى لم يشاهدوه ، ومنه الفيلة التى حارب الفرس عليها العرب، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر ونحو ذلك : مما ملئت به كتب المغازى والفتوح . ويكثر فى هذا النوع من الشعر الأراجيز .

ما يتعلق بلفظه وأسلوبه ومعانيه :

يقسم الأقدمون من الأدباء الشعراء المخضرمين طائفتين متميزتين : شعراء الوبر من أعراب نجد واليمامة وبواديها ، وشعراء المدر أى أهل القرى كالمدينة ومكة والطائف ،وقرى عبد القيس فى البحرين ، والحيرة بسواد العراق . ويرون أن شعر أهل نجد واليمامة والبوادى أخل من شعر أهل القرى وأجزل لفظا وأفخم معنى وأوسع مذهبا فى تنويع أساليب الكلام ولكن شعرهم لا يخلو من حوشية فى العبارة ، ومنهم كان فحول الشعراء فى الجاهلية .

ويرون أن شعراء المدر ألين شعرا وأرق لفظا وألطف كتابة وأدمث أسلوبا وأن أشعرهم جميعا أهل المدينة ، ومنهم كان شعراء النبى الذين نافحوا عنه الشعراء الناشئين فى قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر ، وأن شعر الأنصار من الأوس

والخزرج فى هذا العصر لأن فى اللفظ وهان فى المعنى عما كان عليه فى الجاهلية ، وعللوا ذلك بأن الإسلام نسخ كثيرا من بواعث الشر التى تثير النفوس وتشعل الأحقاد : كالعصبية الجاهلية ، وحب الانتقام ، والأخذ بالثار ، والنشوة بالخمر ، والهجاء الكاذب ، وأكثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور وتسكن اليه النفس عند الرضا والسرور . وأمر آخر ذكروه ، وهو أن كثرة تلقيهم آيات هذا القرءان المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يبهرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم صغر قيمة شعرهم فى أعينهم ، واستخسوا معانيهم وأسلوبهم بالإضافة إلى معانيه وأسلوبه ، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه ؛ ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام وشموخ شعر أمية بن أبى الصلت فى الجاهلية واستخذائه فى الإسلام : لمكان حسده لرسول الله . وأكبر من ذلك أن لبيدا العامرى وهو من أفحل شعراء الجاهلية ، عند ما انقطع إلى حفظ القرءان ومدارسته انقطع عن قول الشعر فى الاسلام . ويقولون : إن من لم يتعرض لهذا الإفحام والانبهار من أعراب البوادى بقى شعره إلا قليلا على غرار شعر الجاهلية من أمثال الحطيئة وكعب ابن زهير . وكل هذا كلام وجيه مقبول فى جملته ، ولكن كثيرا من أهل العلم والنقد من المتقدمين والمتأخرين يرون أن بعض ما يستضعف من شعر مكة والمدينة والطائف مدسوس عليهم لأغراض دينية وفكاهية ،

وللقرءان وفصاحة حديث النبي صلى الله عليه وسلم وخطبه أثر عظيم فى ترقيق شعر المخضرمين بعامة وشعر أصحابه بخاصة . فقد كثر فى شعرهما استعمال ألفاظ القرءان وأساليبه وتشبيهاته وتوليد المعانى من العقائد الإسلامية كالصلاة والزكاة والصيام والجنة والنار والثواب والعقاب والبعث والنشور وأسماء كثير من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين .

حسان بن ثابت

هو أبو الوليد [1] حسان بن ثابت بن المنذرِ الأنصارى الخزرجى النجارى أشعر شعراء رسول الله .

وبنو النجار أخوال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن أم عبد المطلب جده منهم ، ولذلك كان لحسان به صلة قرابة فوق صلة مدحه له ونفحه .

وبنو النجار من قبيلة الخزرج ، وهى إحدى القبيلتين الأختين اللتين سميتا بعد هجرة النبي الى المدينـــة بالأنصار . وكانت هى وأختها الأوس تسميان ابنى قَيلة (أمهما) وكلتاهما بطن من قبيلة الأزد من القحطانية .

وكان يساكنهما بالمدينة عشائر من اليهود ، وهم أصل سكانهـا غلبت عليهم هاتان القبيلتان ثم تراضواهم واليهود على المجاورة والإقامة فيها . وكان بين القبيلتين فى الجاهلية منافسات ومناوشات يجرها عليهما بعض سفهائهما ؛ فيقتل بعضهم من بعض ويطالب أولياء المقتول بثأر القاتل؛ فوقعت بينهم حروب "كان بها بعضهم لبعض عدوا حتى أسلموا وهاجر النبي فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمة الله إخوانا . وولد حسان بالمدينة قبل الهجرة بنحو ستين عاما ، ونشأ بها ، وأدرك بعض وقائع قومه الخزرج مع الأوس ؛ فكان شاعرهم .

وكان قيس بن الخَطيم شاعر الأوس ؛ فكانت بينهما مناقضة وملاحاة ولدت فى حسان الفخر والحماسة قولا لا فعلا .

فأما ابن الخَطيم فكان شاعرا شجاعا فاتكا ؛ ومات قبيل الهجرة . وأما حسان فلم يكن شجاعا وإنما يعين وليّه بلسانه ؛ وكذلك كان مع النبي فى نضاله أعداءه من قريش وفى غزواته .

---

(١) ولقب أيضا فى الاسلام بأبى عبد الرحمن

ولما أحس حسان من نفسه قدرة على قول الشعر الجيد ورأى فحول زمانه من أمثال النابغة والأعشى والحطيئة يتكسبون بالشعر ويحترفون المدح ، رغب فى عرض مدائحه على ملوك العرب ، فكان ينتجع بها آل جفنة ملوك غسان بشرقى الشام ، وهم من قبيلة الأزد أيضاً : فكان يقصدهم بمدائحه عاما ويقعد عنهم عاما ، وكان يرجع عنهم بالجوائز السنية حتى قيل إنهم جعلوا له مرتبا سنويا يصل اليه . وربما انتجع النعمان بن المنذر ملك الحيرة . ولاقى النابغة مرة عند جبلة فأنشده لاميته المشهورة ، ففضلها جبلة على شعر النابغة. ولم يكن حسان وهو شاب ليبذ النابغة فى عامة شعره . وشعر زهير والأعشى خلاصة شعر الجاهلية وزبدته .

ولما هاجر رسول الله الى المدينة أسلم حسان مع أهل المدينة ولم يعدم من لسانه نصرة لرسول الله اذ لم يستطع نصرته بسيفه .

فقد كان ثلاثة رهط من قريش وهم عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص قبل إسلامهم يهجون رسول الله والأنصار ؛ فاستنصر رسول الله الأنصار فى الرد عليهم ، فتجرد لهم ثلاثة من الأنصار هم : عبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك ، وأشعرهم حسان . فقال له رسول الله : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين . فقال : إيت أبا بكر فهو أعلم بالقوم . فأطلعه أبو بكر على مخازيهم ، وما يتهمون به فى نسبهم ؛ فهجاهم أوجع هجاء عليهم فى جاهليتهم ، ولم يمس رسول الله من هجائه لهم شىء .

وبقى حسان شطر حياته الأخير فى الإسلام يعيش زمن رسول الله مما اقتنى وخلف له أهله ، ومما كان يقسمه له رسول الله من الغنائم والهدايا ، وقد وهب له سيرين أخت مارية القبطية أم ولد رسول الله ، وهما من الهدية التى بعث بها المقوقس اليه فأولدها حسان ابنه عبد الرحمن .

وكان له أطم (أى بناء عال) يسكنه بالمدينة يسمى فارعا .

وكان الخلفاء يفرضون له فى العطاء بعد رسول الله مثل ما كان يفرض لكبار الصحابة المقيمين بالمدينة .

وعمر حسان طويلا حتى كف بصره فى حياته . ومات سنة ٦٤ ﻫ زمن معاوية عن عشرين ومائة سنة .

شعره :

كان آل حسان من أعرق بيوت العرب فى الشعر ، فكان أبوه وجده شاعرين ، وكان ابنه عبد الرحمن وحفيده سعيد بن عبد الرحمن شاعرين ، وكان هو أشعر أهل بيته .

وفضل سائر الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر (النبى صلى الله عليه وسلم) فى النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام .

وأجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدَر ، وهم أهل المدينة ومكة والطائف وأهل قرى البحرين من عبد القيس .

وكان أجزل شعره وأقواه وأحصفه ما قاله فى شبيبته وكهولته فى الجاهلية ، أى من مثل ما ناقض به قيس بن الخطيم فى وقائع الأوس والخزرج ومدح به آل جفنة وآل النعمان بن المنذر . ولما أسلم كان قد مضى من عمره ستون سنة ولكنها لم تطفئ من شعلة خاطره ولم تفلّ من غَرْبِ لسانه .

ووجد فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقية من النكاية لأعدائه أبقاها فيه انطباعه على الهجاء منذ شب ، ودعا الله أن يؤيد فيه هذه البقية بروح القدس . وحكمة الدعاء بتأييد الله له فى الهجاء وهو سباب أن الهجاء كان عند العرب من أقوى الأسباب فى خضد شوكة أعدائهم وكسر حدتهم وإدخال الغم والذل على نفوسهم ، فهى سلاح من أقوى الأسلحة فى توهين العدو وكف غَرْبه .

وكان رسول الله إذا سمع هجاءه فى أعدائه يقول : لهذا أشدّ عليهم من وقع النّبل .

ولذلك يرى العارفون أن شعره فى الإسلام كان لايزال كعهده فى زمن الشباب قويا حصيفا رصينا فى مواضع خاصة : فى هجائه المشركين ، وعند هيجه بمعارضة شعرهم ، وفى فخره وحماسته . ويرون أيضا أن كثيرا مما وجد فيها من شعره لينا ضعيفا لم تكن نسبته اليه صحيحة ، وإنما هو مما وضعه المتكثرون من الشعر من رواة المغازى والسير . قال الأصمعى مرة : حسان أحد فحول الشعراء ، فقال أبو حاتم : تأتى له أشعار لينة ، فقال الأصمعى تنسب له أشياء لا تصح عنه[1] .

وأما ما يستلان من شعره فهو بعض ما قاله فى وصف عقائد الإسلام وشعائره وتعداد فضائله ، أو قوله فى توحيد الله وتنزيه صفاته وتهجين عبادة الأوثان وما أعد الله للمؤمنين من الثواب وللمشركين من العقاب ، أو بعض ماقاله فى مدح رسول الله وأصحابه ، أو بعض ما قاله فى رثاء من استشهد فى الغزوات من أصحابه ومن مات من الخلفاء بعد رسول الله أو من أصحابه .

---

(١) وقد بين بعض هذا المنحول لحسان المؤرخ المحقق ابن هشام صاحب السيرة النبوية التى اختصرها من سيرة ابن إسحاق الكبيرة ، فبعد أن يأتى ابن هشام على بعض قصائد نسبت لحسان أو على أبيات منها ، ناقلا لها عن ابن اسحاق ، يعقب عليها فيقول فى موضع : وأهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان . وفى موضع آخر : وتروى هذه الأبيات لفلان ، أى لغير حسان ، وكرر هذا القول فى غير موضع وكذلك قال فى قصائد نسبت لغيره من الصحابة أو من المشركين .

وسبب ذلك أنه كان فى ابن إسحاق غفلة فى نقد الشعر وتمييزه — وهو من أهل المدينة — فكان أهل الهزل والدعابة من شبانها يتنادرون عليه ، ويضعون شعرا على لسان بعض الصحابة أو المشركين أو العرب البائدة أو التابعة أو الجن أو الهواتف ، ويروونها كذبا عن الشيوخ الثقات فيضعها فى كتبه من السيرة وغيرها .

ويمكن تعليل ذلك بأسباب :

١ — منها أن سبب لينه فيما يتعلق بعقائد الإسلام انبهاره بما قال القرآن الكريم، ونطق به رسول الله أبلغ العرب من خطبه ومواعظه وأحاديثه فى مثل هذه الأغراض . والمعروف أن الضعيف إذا أحس من نفسه العجز عن محاكاة ما يأتى به العظيم ازدادت نفسه خورا وفسولة عندما يرغب أن يخوض فى حديث من مثله .

٢ — ومنها أن الأصمعى يعلل لينه فى غير الهجاء وقوته فى الهجاء بأن الشعر نكد يقوى فى الشر ويضعف فى الخير . وهو تعليل مقبول فى جملته .

٣ — ومنها أن لين شعره الإسلامى علله حسان نفسه فيما روى عنه ، وقد قيل له : لان شعرك أو هرم فى الإسلام يا أبا الحسام[1] فأجاب : إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب .

٤ — ومنها أن كثيرا من شعره الإسلامى قاله بعد ما بلغت منه السن والشعر صورة من صور النفس يشيخ إذا شاخت .

٥ — ومنها أن كثيرا من شعره الإسلامى قاله ارتجالا عند حدوث الوقائع الداعية إليه .

أغراض شعره :

وقد قال حسان الشعر فى أكثر أغراضه ، وأهمها فى شعره الهجاء والمدح والفخر والحكمة .

فأما الهجاء فأول ما قال منه فى الجاهلية مناقضة لقيس بن الخطيم ، ولم يكن متناول الذم فيها بين الشاعرين معايبهما الشخصية ، بل معايب القبيلتين الأوس والخزرج حقا أو باطلا .

---

(١) وكان يكنى بذلك أحيانا .

ولما نافح عن رسول الله بشعره لم يعَن متناول الهجو قريشا كلها، بل المشركين منها بعامةٍ وأشدَّهم على رسول الله بخاصةٍ : من مثل أبي جهلٍ وأبي لهبٍ وأبي سفيان ، وهم مِن أقرب قريشٍ نسبا إليه ، فكان هجاؤه لاحدهم ليس بالطعن في أصل نسبهِ وذم عشيرته ، بل في نفي نسبهِ عن نسبهم وأنه دعيٌّ فيهم أو لصيق أومتبنًّى أو عبد ، ثم يذكر ما يستقبح مِن صفاته الخِلقيةِ والخلقيةِ فيصفه باللؤم وقطع الرحم والجهل وخِفةِ الحِلم والبخل والجبن والفِرار عن إنقاذ الأحبة من وهدةِ الموت في المعارك ، وأكثر ما يذكر من ذلك في وقعة بدرٍ وهزيمة قريشٍ فيها، وربما أقذع .

وأما مدحه في الإسلام فقلما أتى فيه بقصائد مطولة مستقلة بالمدح خاصة به على مِثال لامِيَّة كعب بن زهير ، وإنما يأتي بمدحه النبي — صلوات الله عليه — متصلا بهجائه أعداءه من قريش فيعير المهجو بمعاداة نبي أتى بكذا وكذا وصفته كذا وكذا.

ومدح كثيرا من أصحاب رسول الله وخلفائه وفرسان المسلمين بمقطعات بليغة نراها في ديوانه .

وأما فخره فكثير . فتارة يكون بذكر مآثر قومه الأنصار إذا هاجى قريشا أو ثقيفا أو هُذَيلا ، فيذكر تنكيلهم بقريش في وقعةِ بدر، وتارة يكون بذكر مآثر الخزرج أو رهطه بني النجار إذا لاحى قيس بن الخطيم شاعر الأوس في الجاهلية . وإذا فخر بنفسه فخر بفصاحة لسانه وسيرورة شعره ، وإذا غلى مِرجل حماسته نسي نفسه وطبيعته فادعى أنه شجاع مِغوار ، ولم يكن ذلك من صفاته ، سمعه رسول الله ينشد قوله :

لقد غدوت أمام القوم منتطقا　　بصارِمٍ مثل لون المِلح قطاعِ

تحفِز عني نجاد السيف سابغة　　فضفاضة مثل لونِ النهي بِالقاعِ[1]

فما زاد أن ضحك منه .

---

(١) النهي الغدير أي لون الماء في صفائه .

والحق أن نخره من أنخرِ شِعرِه حتى ما قاله منه بعد الإسلام وشيخوخته . وأما حِكمته وضربه المثل فذلك كان غريزة فيه منذ الجاهلية وزادهما الإسلام رونقا وصوابا ، وقلما تخلو قصيدة من شعره من حكمةٍ أو ضرب مثلٍ أو موعظةٍ رائعة .

وكان له نسيب وغزل لم يكن ناشئا من حب وغرامٍ، بل عن محاكاة للشعراء فى تقديمهم النسيب على أغراضهم ، وكان يهتف فى نسيبه باسم عَمْرة واسم شعثاء وكلتاهما زوج له فيما يروى ، وطلق الأولى .

وله رثاء يشجو القلب ويستذرف الدمع ، ومنه بِضع قصائد مطولةٍ رثى بها رسول الله وقصائد متوسطةٍ أو قصيرةٍ رثى بها الخلفاء وكبار الصحابة .

أسلوب شعره ومعانيه :

ويختلف أسلوب شعر حسان وعبارته فى شعره عن أسلوب معاصريه فى الجاهلية والإسلام بقلة تكلفهِ وتنوقهِ فى تجويد الرصف وتنقيح اللفظ وتهذيبه، كما كان يفعل النابغة والأعشى وخاصة الحطيئة ، بل يرسل الشعر كما تجود به القريحة وعلى ما خَيَّلت ، فيكون منه الجيد البالغ العناية والمفجج الكثير الثغر للطاعن والناقد . ومن هنا تعرف سبب قلة اطراد الغريب فى شعره ، فتجد لفظا غريبا بجانِب ألفاظٍ كثيرة سهلة لينة ، وربما كان لمعيشة المدن ومناغاةِ أهل الزراعة والصناعة أثر فى ذلك . ولهذا يقول :

لا أسرِق الشعراء ما نطقوا   بل لا يوافِق شعرهم شعرى

ودخل فى شعره كثير جدا من ألفاظ القرءان الكريم وضربِ أمثاله وكناياته وألفاظِ العبادةِ والشعائر الدينية مما لم يكن مستعملا ولا معروفا فى الجاهلية وسمى بعد بالألفاظ الإسلامية .

وأما معانى شعره فى الجاهلية فقد سلك فيها مسلك غيره من شعرائها . وله معانٍ رائعة فى مدح الملوك وتلمس ما يرضيهم ويرفعهم عن طبقة السوقة ، وفى وصف الخمر .

وأكثر معانيه فى الإسلام مستمد من معانى القرآن الكريم والآيات التى نزلت فى غزوة بدر وأحد والخندق، وحكاية حجج المشركين والرد عليهم ومن إرشاد القرآن ووعظه وحكمته وضرب مثله .

والخلاصة أن شعر حسان مظهر من مظاهر تأثير الإسلام والقرآن فى الأدب العربى ، ويكاد هذا التأثير يفقد فى شعر الحطيئة مع أنه من المخضرمين ؛ لأن الحطيئة أسلم ثم ارتد ثم عاد الى الإسلام على طمع وجشع ورقة دين وقلة وفاء ؛ فلم يتملأ بالروح الإسلامى كغيره .

وهاك جملة من شعر حسان فى بعض الأغراض المتقدمة، فمن شعره فى الجاهلية يفتخر بنفسه وقومه :

ولقد تُقلّدنا العشيرةُ أمرَها ... ونسود يوم النائبات ونعتلى

ويسود سيدُنا جحاجح سادة ... ويصيب قائلنا سواء المفصل

ونحاولِ الأمرَ المهم خطابةً ... فيهم ونفصِل كل أمر معضل

وتزور أبوابَ الملوك ركابنا ... ومتى نُحكّم فى البرية نعدل

وجاء وفد من تميم يفاخرون المسلمين بشاعر لهم فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يجيبه فأجابه بقوله من قصيدة :

إن الذوائب من فِهرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سننا للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق -فاعلم- شرها البدع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطمعون، ولا يزرى بهم طمع

لا يفخرون اذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع[1]

أكرم بقوم رسول الله قائدهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

ومن حكمه من قصيدة قالها فى يوم أحد قوله :

رب حلم أضاعه عدم الما ... ل وجهل غطى عليه النعيم

إن دهرا يبور فيه ذوو العلـ ... ـم لدهر هو العتو الزنيم

الخنساء

هى الصحابية الجليلة السيدة تماضر الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية أشعر النساء وأرثاهن .

وقومها بنو سليم من أشهر قبائل مضر جاهلية وإسلاما ، وأبوها وأخواها معاوية وصخر من ساداتهم .

وكانت فى صباها تقول المقطعات من الشعر ، فلما قتل شقيقها معاوية فى غزاة رثته بالقصائد ، ثم غزا أخوها صخر بنى أسد وغنم فتبعوه فطعنه أحدهم

(١) الخور : جمع خوار وهو الضعيف . والجزع جمع جزوع .

طعنة اعتل منها مدة، ثم مات . فحزنت عليهما حزنا شديدا ، وتابعت عليهما البكاء والرثاء بما لم تفِ به أخت حتى ضرب بها المثل فى البكاء والحزن .

ولما جاء الإسلام حضرت مع وفد قومها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يعجبه شعرها و يستنشدها و يقول : هِيهِ ياخناس ، و يومئ بيده .

وكان حزنها وبكاؤها على صخر أشد من حزنها و بكائها على معاوية لبره بها وشهدت حرب القادسية مع أربعة أولادها ، فأوصتهم عند خروجهم الى القتال بوصية بليغة فقتلوا جميعا فلم تحزن عليهم حزنها على أخيها صخر ، وقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم .

وما زالت تبكى على صخر حتى عميت وتوفيت زمن معاوية بالبادية . أما مراثيها فغاية ماتقوله امرأة فى هذا الباب . واعترف لها بالتقدم فى الجاهلية والإسلام وفى حياتها و بعد مماتها . وممن قدمها على جميع النساء وبعض فحول الرجال النابغة فى الجاهلية وجرير وبشار فى الإسلام .

ومما رثت به أخاها معاوية قولها من قصيدة :

ألا ما لعينــك أم مالهـا ... لقد أخضل الدمع سربالهـا

أبعد ابن عمرو من آل الشريـ ... ـد حلت به الأرض أثقالهـا

وأقسمت آسى على هالكٍ ... وأسأل نائحــة مالهـا

لِتجرِى المنية بعد الفتى الـ ... ـمغادرِ بالمحوِ أذلالها[1]

سأحمِــل نفسى على خطةٍ ... فإما عليهـا ، وإما لهـا

(١) المغادر بالمحو أى المتروك بالموضع المسمى المحو — وأذلالها مجاريها — تقول لتجر المنية فى مجاريها كما تشاء فما أبالى بما تفعل بعد موت هذا الفتى المقتول بالمحو .

بين النفوس وهون النفو   س يوم الكريهة أبقى لها

فإن تك مرة أودت به   فقد كان يكثِر تقتالها

فزال الكواكب مِن فقدِه   وجللت الشمس أجلالها[1]

وقولها من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا :

بكت عيني وعاودها قذاها   بعوّار فما تقضِى كراها

على صخر وأى فتى كصخر   اذا ما الناب لم ترأم طلاها

لئن جزِعت بنو عمرو عليه   لقد رزئت بنو عمرو فتاها

(راجع المنتخب) .

---

(١) اجلالها جمع جل أى ستر .

العصر الأموى

من سنة ٦٠ هـ — ١٣٢ هـ

تأثر الأدب بالحياة الإسلامية الجديدة

انتهى عصر النبوة والخلفاء الراشدين باغتيال على بن أبى طالب وخلوص الخلافة لمعاوية أول خلفاء بنى أمية ، فانتهى بذلك عصر الغزوات النبوية وحروب الردة وفتح أكثر البلاد التى فتحها الإسلام .

وخلف هذا العصر الإسلامى الأول فى الأمة العربية صورة من صور الحياة تختلف عن صورة حياتها فى جاهليتها فكرا ودينا وسياسة .

تشكلت هذه الصورة الجديدة من الغرائز العربيـة مهذبة بامتزاجها بالروح الإسلامى ، وعيشة الغلب ، وبسطة السلطان على ممالك كسرى وقيصر ، وتمثلت فى مرآة الشعر والأراجيز والخطب والرسائل والعهود التى كانت تصدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وقادة الغزاة والفاتحين متشبعة كلها بروح الإسلام من الجد والوقار والحزم وتأييد الحق والدين .

فلما كانت خلافة معاوية الطويلة العمر المصطبغة بصبغة الدهاء السياسى : من اصطناع الأولياء ، ومجاملة الأعداء ، تحول مجرى الحياة العربية إلى مسلكين متباينين .

١ — مسلك أهل الخطط والقطائع فى الأمصـار المنشأة ممن بقى من بقايا الفاتحين ومن القوم الناشئين من أبنائهم ، ويتألفون فى الشام وبعض مصر والجزيرة من شيعة بنى أمية ، وفى العراق من شيعة العلويين الراضين على مضض بملك بنى أمية . وكل من الشيعتين عاشوا عيشة حضارة واختلاط بالأعاجم بالمعاملة

والاسترقاق والتسرى مشوبة تلك المعيشة بروح الجندية لمظاهرتهم معاوية فى بعض حروبه وغزواته ، ولدفع الخوارج الذين خرجوا على معاوية منذ حادثة الحكمين .

ثم خاضوا بعد موت معاوية غمار الفتن التى قامت زمن ابنه يزيد وزمن مروان وابنه عبد الملك ، وتقسموا إلى طوائف : قحطانية ، ومضرية ، وزبيرية ، ومروانية ، وشيعة ، وخوارج .

وكان أكبر مواطن هذه الحياة الكوفة والبصرة .

٢ — مسلك العرب المتخلفين فى جزيرتهم عن المهاجرة إلى الأمصار .

فأما أهل الحجاز من هؤلاء فكان أكثرهم من بقايا أصحاب رسول الله الناقمين على خلافة معاوية والمؤثرين الحيدة والتقية فى دولته ومن أبناءِ الخلفاءِ وبنى هاشم وكبار الصحابة : ممن خلف لهم آباؤهم من الثروة الطائلة ما يغنيهم عن الخدمة فى دولة ، وممن غمرهم معاوية بالأعطيات يجاملهم بها ويترضاهم عن سياسته ؛ فكان منهم طائفتان متناقضتان فى أحوال المعيشة . فاكتفى جمهورهم بمجاورة الحرمين يتعبدون ويتدارسون علوم القرآن والسنة والفقه والسِيَر والمغازى . وآثر بعض شبانهم المترفين عيشة التمتع بالطيبات واللذائذ المباحة وغير المباحة ، وانضم إليهم حاشية وبطائن من الموالى والقيان يغنون ويعزفون بالمزاهر وينشدهم بعض خلعاءِ الشعراءِ المقطعات الغزلية فيطربون لها وينعمون ، وعاش كلاهما على طريقته زمن عصر بنى أمية .

واما أعراب البادية فقد عاشوا عيشة تشبه من ناحية عيشة الجاهلية من حيث القيام على رعاية الإبل والغنم فى مرابعهم ومصايفهم ، والمفاخرة ، والمهاجاة ، والمناقضة ، وتخالفها من حيث الإيمان والعبادة وأمن غارات العدو على تفاوت بينهم فى ذلك .

وكان فى بعض قبائل العرب جمال فى نسائهم وضعف فى قلوب شبابهم فتكثر بينهم حوادث العشق العفيف كبنى عذرة ، فكان الرجال وأهل القدرة منهم على الأسفار يخرجون أحيانا الى الأمصار للغَزاة أو للوفود على السلطان ، أو للتجارة وبيع جَلَبهم من الإبل والغنم والخيل والحمير لسكان الأمصار ، ويخلفون فى أحيائهم النساء ، والشيوخ والعجزة والأحداث من الغلمان ، فيخلو الجو لغلمان الحى أو لغلمان الأحياءِ المجاورة لهم — والقوم بداة "أعراب" لا يَرعَون الحجابَ والستر لوجوه نسائهم إلا نادرا — فيتحدث الغلمان مع الفتيات ويطول حديثهم ويقع العشق بينهم عشقا عفيفا ، فاذا جاء رجال الحى من سفرهم وعلموا بأمر فتياتهم حجبوهن وقعدوا لعشاقهن كلَّ مَرصَد ، فإذا كانت عشائر العاشق قوية البأس أعزة استعدى أهل الفتاة عليه عامل السلطان فى ناحيتهم فاستتابه أو حبسه ، أو أهدر دمه ، وأكثر ما كانت تقع حوادث الغرام بين غلمان بنى عذرة وجواريها وبين أهل نجد والحجاز .

وبالطبع تأثر الأدب عند أهل الأمصار وحاميتها بصورة حياتهم ، فكان لكل حزب سياسى أو طائفة مذهبية بين الخوارج والشيعة والزبيرية والمروانية والمضرية والقحطانية والشعوبية شعراء وخطباء ينظمون الشعر ويخطبون فى تأييد نِحلتهم وخَلَفَ مِربَدُ البصرة ومسجد الكوفة عُكاظَ فى اجتماع الشعراء والخطباءِ بهما .

كما تأثر الأدب فى الحجاز بحياة المترفين من شبانه ، فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطعات الغناء ، وما زال يستفحل أمره حتى تحول على لسان بعض مجان الشعراء إلى مجون .

وتأثر فى البوادى بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاء منهم فبرز فى ثوب الفخر والتباهى والتهاجى والتناقض والمدح والرثاء ونحو ذلك .

وتأثر عند رقاق القلوب وأهل الغرام بنزعة نفوسهم فخطر فى حلة الشعر العفيف الذى يعتبره قدماء المتأدبين من أجمل ما قيل من الشعر العربى .

الخطابة
فى عصر بنى أمية

كان قِصر عهد النبوة والخلفاءِ الراشدين مع ما فتح الله على العرب مِن عظيم الممالكِ ومع انسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها وشبوب نِيران الفِتن بعد مقتل عثمان (رحمه الله) مؤذِنا بأن الخطابة ستبقى آلة الاقناع وعدة الدفاع عند العرب ما احتفظت بصحة ألسنتها ، ولم تحتج إلى انتضاء السيوف من أغمادها .

وكان ذلك حتما مقضيا ، فان الخطابة فى دولة بنى أمية ازدادت دواعيها بازدياد الفِتن والثورات ، وتعدّد النحل الدينيــة والأحزاب السياسية : من شيعة وناصبية ، وزبيريةٍ ، وخوارج . ثم بازدياد الفتوح الاسلاميــة فى خراسان وبلاد الترك وسجستان والسند ، وفى إفريقية والمغرب والأندلس وجزائر بحر الروم ، وكل ذلك يستدعى الخطابة من الخلفاءِ والأمراءِ والولاة وقوّاد الجيوش وزعماء الأحزاب ويستدعى أيضا رقيّها وقوة تأثيرها ، لوَحدة اللغة بين التابع والمتبوع أولا ، ولازدياد المواطن التى يحمد فيها القول ثانيا ، ولانخداعِ العربِ بقوةِ الفصاحة ثالثا ، إذ كان الرؤساء منهم عربا ، وكان الأتباع إما عربا وإما مستعرِبين .

وكان الخلفاء يرسلون بأبنائهم إلى البادية لينشئوا فيها على فصاحةِ القول ، وخشونةِ العيش واحتمال الشدائد ، والتمرن على الفروسية ، وقل منهم من نشأ فى الحضر فأعدَتْه عجمةُ الخدمِ : كالوليد بن عبد الملك فعدت عليه بعض لحَنات .

ولم تبق بعدُ مناصِبُ الولاية والقيادة قَصْرا على قريش ، بل شمِلت قبائل العرب عامة واليمانيــة فى أول الدولة خاصــة ، لِحطب المضريةِ فى حبل عبد الله ابن الزبير . ثم تعصبت خلفاء الأمويةِ بأخرةٍ للمضرية على اليمانيةِ بعد خروج أبناءِ المهلب عليهم . فكان من الجميع خطباء مصاقع .

موضوعات الخطابة — وقد زادت موضوعات الخطابة فى هذا العصر بأمور مستحدثة فى الدين والسياسة والاجتماع ، منها :

(١) استعمالها عند فرق الشيعة والخوارج فى تأييد كلٍ منهم نِحلته ودعوة غيره إليها .

(٢) استعمالها فى الدِعاية السياسية كما كان يفعل خطباء المروانيين والزبيريين والعلويين والثوار الخارجين على بنى أمية من أمثال عبد الرحمن بن الأشعث ويزيد ابن المهلب .

(٣) استعمالها فى المفاخرات والمناقضات التى كانت تدور رحاها بين أهل العصبية اليمانية والمضرية ، وبين العرب والشعوبية .

(٤) استعمالها عند خلفاء بنى أمية آلة للعقوبة بالتوبيخ والتقريع أو تعيير المخطوب فيهم بمساويهم ومخازيهم فى الجاهلية والإسلام ، والتهديد بالقتل وحرق الدور واستئصال النعمة وأخذ البرىء بذنب المسىء ونحو ذلك .

وفوق ذلك استعملت الخطابة فيما كانت تستعمل فيه فى الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتالٍ ، أو وصيةٍ بمعروفٍ ، أو توضيح حكم شرعىٍ ، أو تهنئةٍ بفتح ، وفى صلاة الجمعة والعيدين وموسم عرفة وغير ذلك .

أسلوبها :

وكانت الخطب فى هذا العهد تفتتح دائماً بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه ، وعابوا على زياد بن أبيه تجريد خطبته التى خطبها أول دخوله البصرة والياً عليها من حمد الله والصلاة على نبيه وسموها : "البتراء" لذلك .

ثم نفيض الخطيب فى موضوعه ثم يختمها بقوله : "أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم" وربما أعاد بعد ذلك الحمد لله والصلاة على النبي والدعاء للخليفة فى الجمع والمواسم .

وكان خلفاء بنى أمية وولاتها اذا خطبوا أهل المـدينة ، بعد إخماد ثورة قاموا بها ، أكثروا من عبارات السب والتهديد ، وتمثلوا بأبيات الشعر الشديدة الوقع على نفوسهم المدخلة الرعب على قلوبهم، او اقتبسوا الآيات القرآنية المنذرة بسوء مصير الباغين ، وكثيرا ما كان خطيبهم يتفاصح بالغريب من اللفظ اذا خطب أعرابا أو فصحاء ، لتهويل خطبه فى نفوسهم وإكبار شخصه فى أعينهم .

وبقُوا على عاداتهم فى الخطابة من التزيى بزى العرب والخطبة من قيام والاعتماد على قوس أو قائم سـيف أو مِخصرة ، وخطب الوليد بن عبد الملك جالسا فلم تستحسن منه ولا ممن حاكاه من بنى أمية .[1]

وفى الجملة أن الخطابة بلغت فى هذا العصر قمة عظمتها ، وحق لهـا أن تبلغ هذه الغاية اذ كانت العربية لا تزال حافظة جدتها معتزة بمقاوليها من بنى هاشم وبنى أمية وفصحاء القواد : من أمثال الحسين بن على ، وحفيده زيد، ومن مثل معاوية وعبد الملك وسليمان ابنه وعمر بن عبد العزيز ، ومن أمثال الحجاج ، وقتيبة بن مسلم وخالد القسرى والمهلب بن أبى صفرة من ولاتهم ، ومن أمثال عبد الله بن الزبير والمختار وابن الأشعث من الخارجين عليهم ، ومن أمثال عِمران بن حِطّان وقَطَرِىّ ابن الفُجاءة وأبى حمزة الإباضى من الخوارج ، ومن أمثال صـعصعة بن صُوحان وسَحبان بن وائل من رؤساء القبائل ، ومن خطباء الأمصار ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية كخالد بن صفوان وعِقال بن شَبّة .

وحفظت الخطابة العربية رونقها نحو قرن من حكم الدولة العباسية فكان من أبناء على بن عبد الله بن عباس ومن أحفاده خطباء لا يجارون : كداود بن على وعبد الله بن على والسفاح والمنصور والمهدى والرشـيد والمأمون ، ومن القواد وخطباء الأمصار : أمثال أبى مسلم الخراسانى وشبيب بن شيبة وغيرهم .

---

(١) وسبب ذلك أنه صح عندهم أن عثمان (رضى الله عنه) خطب من قعود كما روى ذلك الطبرى .

الحجاج بن يوسف الثَّقَفى

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف رجل ثقيف وأحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحكامها وموطد ملك بنى أمية وأحد البلغاء والخطباء المصاقع .

ولد سنة ٤١ ﻫ وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف موطن ثقيف ثم لحق بَروح بن زنباع الجُذامى أحد أعوان عبد الملك بن مروان فكان فى شُرطته ثم صار رئيسها .

وأوّل ما اشتهر من أمره قيادته الجيش الذى وجه لقتال عبد الله بن الزبير فسار اليه وحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه ، فولاه عبد الملك العراق ، وكان كله نارا ملتهبة ، بفتنة الشيعة والخوارج ، فاستعمل من الشدة والقسوة وسفك الدماء وإرهاب الأمة ما لم يسمع بمثله ، وجدد الملك لبنى أمية ، وكان عاقبة أمره أمرين عظيمين : أولهما يمدح عليه : وهو جمع أشتات المسلمين تحت راية واحدة هى راية الخليفة العربى الأموى ، وثانيهما يذم به : وهو إذلال الأمة العربيـة إذلالا لم تعتده منذ خلقت بمـا قتل من نخوتها وسلب من حريتها وأخرس من ألسنتها فدخلت بعده فى طور خضوع وامتثال للحكام المستبدين أكمل بقيته نصراء الدولة العباسية من الأعاجم .

وخدم الحجاج بولاية العراقين عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد حتى كان ملـكه ما بين الشام والصين ومات سنة ٩٥ﻫ فى مدينة واسط التى بناها بالعراق .

وكان الحجاج آية فى البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجـة ، قال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جدّ وهزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان ، والحجاج [١] بن يوسف ، وابن القرية [٢] والحجاج أفصحهم ، وقال ملك ابن دينار مارأيت أحدا أبين من الحجاج إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم اليه ، حتى انى لأحسبه صادقا وأظنهم كاذبين .

ومن مآثره مايأتى لك من اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف وغيره ونسخه عدة مصاحف من مصاحف عثمان وإرسالهـا إلى بقية الأمصار .

الـكتابة

(انشاء الرسائل الفنية)

كان أكثر قبائل مضر فى الجاهلية أهل بدو أميين لايكتبون . فلما عنى أهل القرى منهم كمكة بالتجارة ونقلها بين اليمن والشام والعراق اضطروا الى تعلم الكتابة من أهل الأنبار . وأول من تعلمها منهم حرب ابن أمية القرشى جد معاوية ابن أبى سفيان . وجاء الإسلام وقد تعلمها طائفة من أهل مكة أسلم بعضهم وهاجر، فتعلمها الأنصار منهم ومن أسرى بدر ، وحض النبي « صلى الله عليه وسلم » على تعلمها ،

---

(١) زعم بعضهم أن الحجاج قد أخطأ ونسب له مايأتى : قال الحجاج للشعبي : كم عطاءك فى السنة قال : ألفين قال ويحك كم عطاؤك قال ألفان — قال وكيف لحنت أولا — قال لحن الأمير فلحنت فلما اعرب أعربت ، ولم يكن ليلحن الأمير فأعرت أناعليه فأكون كالمقرع له والمستطيل عليه بفضل القول ، وروى أيضا أن الحجاج قال ليحى بن يعمر أتسمعنى ألحن قال فى حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك أشنع . ثم قال له ماهو قال تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله) فتقرأ أحب بالرفع قال الحجاج لاجرم أنك لاتسمع لى لحنا بعد هذا ثم ألحقه بخراسان .

(٢) هو أيوب بن يزيد والقرية أمه

وكان له من المهاجرين والأنصار عدة كتاب ، ومنهم من كتب رسائله إلى الملوك والأقيال والعهود التي يكتبها لمن أسلم من القبائل ولمن صالحوه فى حرب، ومن هذا أطلقت الكتابة على معنى إنشاء الكتب والرسائل والعهود وكتابة الدواوين .

وأوّل ماظهر الاضطرار الى استخدام الكتابة فى أعمال الخلافة كان فى أيام عمر ، لكثرة الجيوش والفتوح والمغانم فى زمنه فاتخذ ديوانا للجيش يدوّن فيه أسماء المقاتلة وأنسابهم وأعطياتهم ، فهو أول من دوّن الدواوين من الخلفاء . ومن قوله فى ذلك لعمال الديوان وكتابه « إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لِغدٍ فإنكم اذا فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال فلاتدرون بأيها تبدءون وأيها تؤخرون » واتبع من بعده من الخلفاء سنته فى اتخاذ الدواوين الى أن كانت دولة بنى أمية . فزاد معاوية ديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الرسائل وكان يكتب له على الرسائل عبيد الله ابن أوس الغسانى ، ويكتب له على الخراج سرجون الرومى بالخط الرومى إلى أن نقلت دواوين الخراج من الفارسية الى العربية على يد صالح بن عبد الرحمن فى أيام الحجاج ، ومن الرومية الى العربية على يد سليمان بن سعد أيام عبد الملك ثم نقلت فى مصر من القبطية إلى العربية زمن الوليد فأصبحت لغة الدواوين كلها عربية .

وكانت الرسائل تكتب قبلُ بلغة التفاهم لايعمد فيها إلا إلى بيان الغرض المقصود منها بأوجز عبارة ، وكان أكثرها يمليه الخلفاء أو الولاة والقواد من إنشائهم على الكتاب لمكانهم من الفصاحة وقوة ملكة الارتجال فيهم. فلما عهدوا بكتابتها إلى كتابهم من أبناءِ عرب الشام والعراق ومصر ومن الموالى من الفرس والروم والقبط المتعربين اتخذوها صناعة فتأنقوا فى صوغ عبارتها وتخير ألفاظها ، وأقبلوا على تعلم الأدب وحفظ القرءان وأشعار العرب ، واقتبسوا منه ، وحلوا نظمه ، وأدخلوا فى عبارة الكتابة كل ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وضرب أمثاله وحكمه وترجموا إلى العربية كل ما أعجبهم من وجوه الاداء فى اللغة الفارسية والرومية . وتميز

ذلك فى عصر هشام على يد أبى العلاء سالم مولاه ، وكان يجيد العربية والرومية . وعليه تخرج ختنه وتلميذه عبد الحميد بن يحيى ؛ فصارت على يديه صناعة عتيدة وفنا من الفنون الأنيقة تدخل جودتها على النفس سرورا وبهجة ؛ فهو أستاذ الأستاذين لهذه الصناعة بلا مراء .

وفى عهد سالم وعبد الحميد قلل الكتاب من استعمال الغريب والوحشى من الألفاظ فى كتابة الرسائل ، وتجنبوا التعقيد وتباعد الأفكار ؛ فاشتدت الصلة بين كل جملة وما يليها ، فقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام بأجنبى .

ونعرض عليك هنا صورا من كتابة عبد الحميد ونعرفك به وببعض أعماله فى ترقية صناعته .

عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى مولى بنى عامر بن لؤى بن غالب من قبيلة قريش .

كان أول أمره معلم صبية يتنقل فى البلاد ، ويتكسب بالتعليم ، حتى عرفته الأقدار بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قبل أن يلى الخلافة ، وخدمه بالكتابة وبخدمته لمروان انتقل إلى الشام وخدم بصناعته فى ديوان الخلافة ، وعرف بليغ زمانه سالما مولى هشام بن عبد الملك الخليفة ورئيس كتاب الديوان وقتئذ وصاهره فلقنه سالم صناعة الكتابة الديوانية ومراسم الملك . وكان سالم يعرف اليونانية وينقل عنها فاستفاد عبد الحميد من صناعته وترجمته ، وفاق كتاب العرب والموالى بخواص اجتمعت فيه : من عقل وذكاء وحفظ قرءان ولغة ورواية خطب وعلم جم ووفاء عظيم لأولياء نعمته . يعرف ذلك من بعض رسائله المطولة التى أبقاها لنا الزمان من آثاره العظيمة ، وكبراها رسالته على لسان مولاه مروان إلى ولى عهده عبد الله حينما وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيبانى رأس خوارج الجزيرة سنة ١٢٧ هـ . وتليها رسالته إلى أهل صناعته الكتابة ، يرشدهم فيها إلى آداب

الصناعة وصون أنفسهم عن نقائص الأمور ، وتلى هذه رسالته التى كتبها على لسان الخليفة لعامل له على أحد الأمصار يأمره أن يزجر أهل مصره عن لعبة الشطرنج ويبين له معايبها ؛ مما استحق به أن يسمى بشيخ الصناعة وأستاذ كل كاتب ، فوق استحقاقه ذلك بما أثر عنه من استكمال أداة الصناعة فقد كاد يجيد الإيجاز كما يجيد الإطناب ، ويتخير من الألفاظ أنصعها وضوحا ، وأجزلها معنى ، وأدقها كتابة وأقواها حجة ، وأنسقها ترتيبا .

وهو أول من أطال الرسائل السلطانية والإخوانية والفنية ، وابتكر فيها كثيرا من صور البدء والختام وتعديد التحميدات لله فى الرسائل السلطانية المطولة حتى كأنه فى الحقيقة كان يضع نظاما عاما عتيدا للكتابة فى دواوين الدولة العباسية .

ومن رسائله المختصرة ما كتبه فى وصاةٍ :

حق موصلِ كتابى عليك كحقه علىّ ، إذ جعلك موضعا لِاملِهِ ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فحقق أمله .

وما كتب به إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها . وشكاها مستزيدا لها ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الاخوان ؛ فالدار نازحة والطير بارحة ، وقد كتبت والأيام تزيدنا منكُم بعدا ، وإليكم وجدا ، فإن تتم البلية الى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا . وإن يلحقنا ظُفُرُ جارح من أظفار من يليكم نرجع اليكم بذل الإسار ، والذل شر جار .

نسأل الله تعالى ، الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان فإنه رب العالمين ، وأرحم الراحمين .

الشــعر
فى عصر بنى أمية

نمــاذج منه :

قال خَلَفَ بن خليفة وهو شاعر إسلامى مقل عاصر جريرا والفرزدق يمدح :

عدلت الى فخـر العشيرة والهوى … اليهم وفى تعـداد مجدهم شغل
الى هضبة من آل شَيبان أشرفت … لهـا الذروة العلياء والكاهل العبل
الى النفر البيض الذين كأنهم … صفائح يوم الروع أخلصها الصقل
إلى معـدِن العز المؤيد والنـدى … هناك هناك الفضل والخُلُق الجزل
أحب بقـاء القوم للنـاس أنهم … متى يظعنوا عن مصرهم ساعة يخل
عِذاب على الأفواه مالم يذقهم … عدوٌ وبالأفواه أسمـاؤهم تحـلو
عليهم وقار الحلم حتى كأنمـا … وليدهم من أجل هيبته كهـل
إذا استُجهلوا لم يعزب الحـلم عنهم … وأن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل[1]
هم الجبـل الأعلى إذا ما تناكرت … ملوك الرجال أو تخاطرت البُزْل[2]
ألم تر أنّ القتل غال إذا رضـوا … وإن غضبوا فى موطن رخص القتل
لنـا منهم حِصن حصين ومعقل … إذا حرك النـاس المخاوف والأَزْل
مواعيدهم فعـل إذا ما تكلمـوا … بتلك التى إن سميت وجب الفعل

---

(١) الجهل هنا معناه الغضب .

(٢) البزل جمع بازل للبالغ تسع سنين .

وقال قطرى بن الفجاءة من الحماسة والفخر وهو من رؤساء الخوارج زمن بنى أمية .

الى كم تعادينى السيوف ولا أرى　　مضار بها تهدى الى حماميا

أقارع عن دار الخلود ولا أرى　　بقاء على حال لمن ليس باقيا

ولو قرّب الموتَ القراعُ لقد أنى　　لموتى أن يدنو لطول قراعيا[1]

أغادى جلادَ المعلمين كأننى　　على العسل الماذى أصبحت غاديا[2]

وأدعو الكماة للنزال اذا القنا　　تحطم فيما بيننا من طعانيا[3]

ولست أرى نفسا تموت إذا دنت　　من الموت حتى يبعث الله داعيا

إذا استلب الخوفُ الرجالَ قلوبَهم　　حبسنا على الموت النفوس الغواليا

قال جواس بن القعطل الكلبى من شعراء العصر الأموى :

صبغت أمية بالدماءِ رماحنا　　وطوت أمية دوننا دنياها

أأمى رب كتيبةٍ مجهولةٍ　　صِيدٍ[4] الكماة عليكم دعواها

كنا ولاة طِعانِها وضرابِها　　حتى تجلت عنكم غماها

فالله يجزى لا أمية سعينا　　وعُلاً شددنا بالرماح عراها

جئتم من الحجزِ البعيد نياطه　　والشام تنكر كهلها وفتاها

إذ أقبلت قيس كأن عيونها　　حدق الكلاب وأظهرت سيماها

(١) أنى : حان وقرب .

(٢) المعلمون : الذين يعلمون أنفسهم فى الحروب بشارة ظاهرهم ليعرفوا اذ لا يخافون الأعداء لشجاعتهم .

(٣) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع المستتر بالسلاح .

(٤) اى أن كتائبها صيد جمع أصيد وهو الأسد أو الرافع رأسه كبرا .

عزم معاوية على جمع الناس على البيعة ليزيد ابنه من بعده فأنشده مسكين الدارمى فى محفل كبير قصيدة يحثه فيها على البيعة ليزيد وهى :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفاء الله مهلا فانما يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربه فان أمير المؤمنين يزيد

على الطائر الميمون والجدّ صاعد لكل أناس طائر أوجدود

فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل وفود تساميها اليك وفود

ولا زال بيت الملك فوقك عاليا تشيد أطناب له وعمود

قدور ابن حرب كالجوابى وتحتها أثاف كأمثال الرئال ركود

فلما انتهى منها قال معاوية ننظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله فلم يتكلم أحد بغير الموافقة .

وقال أيضا :

نارِى ونار الجارِ واحِدة وإليه قبلى تنزل القدر

ما ضر جارا لى أجاوره ألا يكون لِبابه سِتر

أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر

قال الكميت وكان من شيعة على ثم اضطر أن يصانع بنى أمية :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب؟

ولم تلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان مخضب

ولا السانحات البارحات [1] عشية امر سلم القرن أم مر أعضب [2]

---

(١) البارح مامر من ميامنك الى مياسرك ومن لى بالسانح بعد البارح أى بالمبارك بعد المشئوم .

(٢) مكسور القرن .

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بنى حواء والخير يطلب

بنى هاشم رهط النبي فاننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

خفضت لهم منى الجناح مودة ... الى كنف[1] عطفاه[2] أهل ومرحب

ومالى الا آل أحمد شيعة ... ومالى الامذهب الحق مذهب.

بأى كتاب أم بأية سنة ... يرى حبهم عارا على ويحسب،

وقال العرجى وهو من ولد الخليفة عثمان بن عفان ومن شعراء الغزل

إذا حرم المرء الحياء فانه ... بكل قبيح كان منه جدير

له قحة فى كل شىء وسره ... مباح وخدناه خنا وغرور

يرى الشتم مدحا والدناءة رفعة ... وللسمع منه فى العظات نفور

ووجه الحياءِ مابس جِلد رقةٍ ... بغيض اليه مايشين كثير

له رغبة فى أمرهِ وتجرد ... حليم لدى جهل الجهول وقور

فرج الفتى ما دام يحيا فانه ... الى خير حالات المنيب يصير

وقال أبو صخر الهذلى[3]

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد تركتنى احسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لايروعهما الذعر[4]

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

(١) ظل .

(٢) جانباه .

(٣) وهو شاعر إسلامى موال لبنى مروان متعصب لهم .

(٤) الذعر : الخوف .

فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك روعة كما انتفض العصفور بلله القطر
وإنى لآتيها أريد عتابها وأوعدها بالهجر ١٠ برق الفجر
فما هو الا أن أراها بجاءة فأبهت لاعرف لدى ولا نكر(١)
أنس الذى قد كنت فيه أتيتها كما قد تنسى لب شاربها الخمر
ويمنعنى مِن بعض إنكارِ ظلمها اذا ظلمت يوما وإن كان لى عذر
مخافة أنى قد علمت لئن بَدا لِى الهجر منها ماعلى هجرها صبر
وأنى لا أدرى اذا النفس أشرفت على هجرها ما يصنعن بى الهجر

وقال ذو الرمة أحد شعراء الغزل فى عصر بنى أمية

أرانى إذا هومت يامى زرتنى فيا نِعمتا لو أن رؤياى تصدق (٢)
لها جيد أم الخشف ريعت فأتلعت ووجه كقرنِ الشمس ريان مشرق
وعين كعين الرئم فيها ملاحة هى السحر أو أدهى التباسا وأعلق

وقال ذو الرمة :

خليلى عدَّا حاجتى من هوا كما ومن ذا يواسى النفس الا خليلها؟
ألما بمى قبل أن تطرح النوى بنا مطرحا أو قبل بينٍ يزيلها
وإن لم يكن الا تعلل ساعة قليلا فانى نافع لى قليلها

---

(١) أذهل لا أعرف شيئا ولا أنكره

(٢) الألف فى فيانعمتا منقلبة عن ياء المتكلم كما فى " ياحسرتا " و" يا أسفا "

وقال نصيب أحد شعراء الغزل فى عصر بنى أمية وكان عبدا أسود

خليلى من كعب ألمّا — هُديتما بزينب لا تفقدكما أبدا كعب
من اليوم زوراها فإن ركابنا غداة غد عنها وعن أهلها نكب

وقال كعب بن جعيل شاعر أهل الشام . وتمثل به معاوية فى رده على كتاب لعلى :

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق له كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضا يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا
فقالوا علىٌّ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
من دون ذلك خرط القتاد وضرب وطعن يفض الشؤونا[1]

وفى رد على عليه ذكر شعرا للنجاشى أحد بنى الحارث بن كعب من شعراء أهل العراق ، منه :

دعا يامعاوى مالن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟

---

(١) وهى مواصل أجزاء الرأس .

الشـــعر

فى العصر الأموى

قدمنا أن شعر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام يمثل ما قيل منه فى الجاهلية الحياة العربية فى الجاهلية ، ويمثل ما قيل منه فى الاسلام الحياة العربية فى أول ظهور الاســلام أى زمن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

أما شعر عصر بنى أمية فإنه يمثل الحيــاة الإسلامية الخاضعة لسلطان الإسلام والخالصة من شوائب الوثنية الجــاهلية جملة بعــد أن طرأ عليها طوارئ سياسية واجتماعية ومذهبية تنوعت بها بعض الشيء عما كانت عليه فى عصر النبى "صلى الله عليه وســلم" وخلفائه فى بلاد العرب نفسها وفى الممــالك المفتتحة ، فتنوع لذلك الشعر فى بعض مواطنه فنا وأسلوبا ، ولكنه لم يخــرج فى صورته الجوهرية من حيث أوزانه وقوافيه وطريقة قرضه عما كان عليه فى الجاهلية وصدر الاسلام .

غير أن الأراجيز عنى بها فى عصر بنى أمية عناية جعلتها تقرب من القصائد فى أكثر خصائصها ، فبعد أن كان البــدوى ينظم منها بضعة مشطوراتٍ يحدو بها الإبل أو يصفها أو يصف ظبيا أو ظليما أو ثور وحشٍ ، نشأ فى هذا العصر فحول من الرجازين طولوا الأراجيز ونحوا بها منحى القصائد ؛ فضمنوها أغراضها من المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وصاروا يمهدون لهــذه الأغراض بالنسيب وذكر الديار وآثارها والظعائن وحدوجها ، ويقصدون بها الخلفــاء والولاة . واشتهر منهم أبو النجم العجلى والعجاج التميمى وابنه رؤبة .

وفى هــذا العصر طفر الشعر : رجزه وقصيده فى سبيل التفنن فيــه والاهتمام بشأنه أو التكسب به طفرة لم يتقهقر عنها إلا بعــد عدة قرون ؛ فطالت قصائده وأراجيزه وقلت عيوبه فى الوزن والقافية ، وزادت فنونه ، ودقت معانيه ، ورق أسلوبه وألفاظه فى الغزل والنسيب والعتاب رقة لم تعهــد فيه إلا نادرة فى البيت

أو البيتين والمقطعات الصغيرة حتى صلح كثير منه للتغنى والتطرب به ، ونبلت قيمته فى أعين الخلفاء والأمراء والولاة ورؤساء الأحزاب السياسية فاتخذه كل منهم ذريعة لترويج دعايته فكان عندهم بمنزلة صحف الأحزاب فى عصرنا . واستتبع ذلك نباهة شأن الشاعر عند من يتولاهم واضطهاده ومطاردته من منافسيهم .

وبالطبع كان حزب بنى أمية أقوى الجميع فاستأصل حزب الزبيريين اتباع عبد الله بن الزبير ، وأخمد شعلة شيعة بنى هاشم بعد مقتل الحسين وحفيده زيد رحمهما الله تعالى ، وطاردوا الخوارج حتى فشلوا وذهبت ريحهم بانشقاقهم وتفرقهم فى اعتقادهم وتبدد شملهم ، وذهبت كل فرقة منهم إلى صقع من الأرض تظهر حينا وتختفى أحيانا .

واستغل الأمويون أحزاب العصبيات العربية فى تمكين سياستهم زمنا ، فانقسم بها العرب قسمين : عدنانية وقحطانية ، ثم انقسم العدنانية إلى ربعية ، ومضرية ، ثم المضرية إلى قيسية وتميمية ، وتعصب بنو أمية فى أول دولتهم لليمانية لأن القيسية كانت شيعة لعبد الله بن الزبير ثم تعصبوا لمضر بعد عصيان أولاد المهلب عليهم بخراسان لأنهم هم وأنصارهم من اليمانية .

ولكل حزب من هؤلاء شعراء معدودون . وكان بعض أمرائهم وولاتهم يغرى بعض الشعراء ببعض فيقع بينهم التهاجى والتناقض ومدافعة كل قبيلة عن شاعرها ، ويشتبك معهم علماء اللغة والأدب فيفضلون شاعرا على شاعر ، وينقدون هذا ويقرظون ذاك ، ويشتغل الجميع بأمر هذه العصبيات والأهاجى والمناقضات عن سياسة الدولة ونقد أعمالها .

فكان كل ذلك سببا فى اتساع دائرة الشعر الفنية ، وخاف الشعراء نقد العلماء فجودوا الشعر وأسقطوا رذله وتجنبوا عيوب القافية التى كانت منتشرة فى عصر المخضرمين وأوائل هذا العصر ، وأصبح الشعر حرفة لمئات من الشعراء

يعيشون منها عيشة رغدا ، ويقتنون بها ثروة طائلة بمدح الخلفاء وذكر استحقاقهم للخلافة .

ويمكن إجمال الأمور التى يمتاز بها الشعر فى هذا العصر من حيث موضوعاته وأسلوبه بما يأتى :

موضوعاته وأغراضه :

(١) المدح — وهو من أغراض الشعر منذ الجاهلية الأولى إلا أنه لم يصر طريقا للتكسب والمسألة به إلا فى أواخرها . ولما جاء الإسلام ترخص النبي صلى الله عليه وسلم فى استماعه والإجازة عليه تأييدا لدعوته إذ كان جل ما يمدح به خاصا بعمل الرسالة . ولكنه صلى الله عليه وسلم نهى عن المدح لمجرد الإطراء والتقريظ وفى غير تأييد حق ، وتورع كثير من خلفائه الراشدين عن سماع المدح الباطل ؛ ففترت صناعة التكسب بالشعر ردحا من الزمان .

وجاء عصر بنى أمية فترخص معاوية فى استماعه قليلا لتأييد دعوته ، وتوسع فى ذلك بنو مروان فاستمعوا له فى حق وفى غير حق ، وأجازوا عليه الجوائز السنية ولم يقصر عنهم كثير من ولاتهم ورؤساء الأحزاب فى زمانهم ، وتسابق الشعراء إلى اختراع المعانى التى تعجب أولياء الأمر فكالوا منها لكل ما لا يستحق ، مما كان قدوة لمن جاء بعدهم من غلاة المداحين .

(٢) الهجاء — وكان الشأن فى الهجاء بدء الإسلام ما علمت من ترخيص النبي صلى الله عليه وسلم لحسان فى هجاء المشركين ، ولم يجزه فى غيرهم بل أوجبت الشريعة إقامة الحدّ على من قذف محصنا أو محصنة ، وجرى أصحابه من بعده على سنته فحبس عمر بن الخطاب الحطيئة فى الهجاء حتى تاب ، ولكن بنى أمية تغاضت عن هجاء من خالف سياستهم من المسلمين ، فهجا الأخطل الأنصار بإشارة من يزيد على ما يقال، ثم هجا القيسيين ثم ، هجا بعض قبائل العرب بعضا

ثم استفحل أمر اليمانية والمضرية . وتهاجوا ما شاءوا . وكان من أشد المضرية على اليمانية الكميت الكوفى الأسدى . وصار العرب فى الهجاء إلى شر ما كانوا عليه فى الجاهلية . ولو كانت الدولة الأموية تصعبت فى العقاب عليه لحفظت الآداب الإسلامية عن فحش القول دهرا طويلا .

(٣) الفخر — أباح الإسلام الفخر فى التحدث بنعمة الله والانتصار على المشركين والتمجد بالفضائل الإسلامية ، فتغيرت الحال فى عصر بنى أمية وتفاخر الشعراء بأيامهم فى الجاهلية وانتصار بعضهم على بعض فيها ، وكان فى ذلك إحياء لعصبية الجاهلية التى نهى عنها الإسلام وتباهوا بأعمال سفهائهم من المسرفين فى الكرم وغير ذلك. ولكن العلماء يرون أن هذا النوع حفظ للتاريخ وقائع العرب فى الجاهلية ولولاه لنسيت .

(٤) الشعر السياسى — وهذا النوع من الشعر وقع بصورة غير محدودة ولا مميزة فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وخاصة زمن الفتنة بين على ومعاوية ؛ ولكنه فى عصر الأمويين اتسعت طرقه ومناحيه ؛ فلم يقتصر على مناصرة شيعة بنى هاشم وبنى أمية بل تعداهما إلى مناصرة الأحزاب الأخرى من زبيرية وخوارج وغيرهما . ومن أشهر الشعراء المناصرين لبنى أمية الأخطل وجرير والفرزدق، (وكان هذا يتشيع سرا) ونصيب . ومن الزبيرية عبد الله بن قيس الرقيات ثم اضطر أن يكون أمويا . ومن شعراء الخوارج عمران بن حطان والطرماح بن حكيم. ومن شعراء الشيعة والمتعصبة لمضر الكميت الأسدى . ثم اضطر أن يكون مروانيا .

(٥) الغزل الصريح القصصى والغزل العفيف البدوى — فأما الأول فنشأ فى مكة والمدينة بين المترفين من أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء الغزاة الفاتحين الذين امتلأت أيديهم بالأموال والنعمة وأقاموا بمكة والمدينة لأسباب سياسية وغير سياسية ينعمون ويطربون . وكان لهم بطانة من الشعراء والمغنين والمغنيات والمضحكين ، وقلما يعجب أمثال هؤلاء من الشعر غير الغزل الذى يطرب منه

ويتغنى به . واشتهر من شعراء هؤلاء الأحوص من الأنصار وعمر بن أبى ربيعة من قريش ، ولكن عمر كان أصرح من الأحوص فى الغزل يذكر أسماء من يشبب بهن ، ويقص قصصا له معهن أكثرها مكذوب مفترى . وله ديوان كبير كله فى هذا النوع من الغزل .

وأما الثانى فنشأ فى بادية الحجاز فى بنى عذرة وخزاعة بين الشبان المستضعفين المؤثرين التبدى على الهجرة والجهاد غزلا شريفا نزيها عن الفحش ، وعن الكذب على الحسان بما لا يليق بشرف الفتاة البدوية المسلمة ، لكن أكثر حبهم كان حقيقيا غير متصنع

وقد قيل فى هذا الغزل قصائد مطولة بل دواوين من الشعر لم يؤثر لها شبيه لا عن الجاهلية ولا عن صدر الاسلام ، وإنما هو نوع نشأ بين شعراء أهل البدو من الاسلاميين . وأشهر هؤلاء الغزليين جميل بن معمر ، وكان يحب بثينة حبا صادقا ، وكثير وكان يحب عزة حبا قيل إنه متكلف .

أسلوبه :

لم يختلف أسلوب الشعر فى هذا العصر عما كان عليه فى الجاهلية وصدر الاسلام من حيث بناء القصيدة من عدة عناصر من الأغراض والمقاصد ، ومن حيث سهولة العبارة وصعوبتها ورقة الألفاظ وغرابتها . فكان الشاعر يبدأ القصيدة بالنسيب وذكر الديار وظعن الحبائب ، ثم يفخر بنفسه وقومه أحيانا ، ثم يقتضب الكلام اقتضابا ، وينتقل الى الغرض الذى يتعمده من مديح وهجاء وربما قدم هذا النسيب فى الرثاء مع عدم ملاءمته له لأن هذا النسيب لم يكن عن حب حقيقى ولكنه كان عادة تقليدية درج عليها شعراء العرب منذ القدم . ولذلك كان أكثر ما ينسب هؤلاء الشعراء الإسلاميون فى بدء قصائدهم بنسائهم وحلائلهم .

وكان الغالب على عبارة الشعر وألفاظه عند الاسلاميين الفحولة والجزالة واستعمال الغريب فى موضوعات الشعر الجدية ، كالمدح والفخر ووصف الوحش والفلاة والناقة والصيد ، وربما تعمد بعضهم الغريب ومداخلة بعض الكلام فى بعض ليعجب علماء اللغة والنحاة كالفرزدق .

وتغلب سهولة الألفاظ وعذوبتها ورقيها فى الغزل العفيف البدوى والغزل القصصى .

وجملة القول أن الشعر العربى الصحيح الفصيح بلغ فى هذا العصر غايته فنا وصناعة حتى فضله بعض أدباء المتقدمين على شعر الجاهلية والمخضرمين .

جرير

هو أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفى .

والخطفى لقب غلب على جده حذيفة لوقوع هذا اللفظ فى شعر له ، ومعناه السير السريع .

وجرير من كليب ، وكليب حى من يربوع من بنى تميم . وكانوا ينزلون بقرية حَجْر من قرى اليمامة بالجنوب الشرقى من نجد (وهى المسماة الآن بالرياض) ويكنى جرير بأبى حزرة (وهو ابنه البكر) وبابن المراغة ، والمراغة من الأسماء القبيحة للأتان ، لقب نبزت به أمه من أحد الشعراء الذين هاجوه لأن كليبا كانت رعاة غنم وحمير .

وولد جرير باليمامة فى خلافة عثمان ، ونشأ بين عشيرته بنى الخطفى نشأة البدوى الفقير . وكان يرعى على أبيه غنيمات له من الضأن والمعزى . وكان أهل بيته بنو الخطفى على فقرهم يغلب عليهم الشعر ويتهاجون مع شعراء قومهم ، فظهر عليهم شاعر من بنى عمومتهم يسمى غسان السليطى ، فرآه جرير يهجو قومه ، والناس

مجتمعون عليه ، فحمى ونطق بالشعر رجزا هجاه به أفحش هجاء ، فطرب له قومه واعتزوا به ، وتمادى الهجاء بينه وبين غسان وجرير يظهر عليه ، فأعان غسان شاعر يدعى البعيث من بنى مجاشع ، وهم قوم الفرزدق من بنى تميم ، فهجاهما جرير وظهر عليهما ، وسب نساء مجاشع سبا منكرا . وكان الفرزدق فى ذلك الحين قد اشتهر بالشعر وبز فيه الفحول ، ولكنه كان عند اشتباك البعيث مع جرير تائبا عن الهجاء مقيدا نفسه بقيد من حديد ، وقد آلى ألا يبرح منزله حتى يحفظ القرآن . فجاءته نساء مجاشع يلمنه على عزلته وتركه جريرا ينهش أعراضهن ، فحمى لهن ، وفض القيد ، وهجا جريرا ، فاحتدم بينهما الهجاء وسقط البعيث ، وتدخل بينهما فى تهاجيهما نحو ثمانين شاعرا منهم الأخطل ، فأسقطهم جرير جميعهم ، وثبت له الفرزدق والأخطل .

ومكث جرير يهجو الفرزدق عشر سنين ، وهو مقيم باليمامة والفرزدق مقيم بالبصرة حيث تقيم جمهرة العرب وعلماء اللغة والنحو والأدب والفقه وحيث يكثر الرواة والمتعلمون فيحفظون شعره ويشيدون به . فاستقدمت يربوع البصرة جريرا من البادية ليهاجى الفرزدق وجها لوجه ، ويستمع له الرواة والأدباء فانحدر إلى البصرة ، وأكثر الاقامة فيها ، واتصل بولاة العراق كبشر بن مروان أخى عبد الملك ، والحجاج بن يوسف ، وكاد يختص به حتى حسده عبد الملك عليه .

وأوفده الحجاج مع ابنه محمد الى عبد الملك فمدحه بعد تمنع من اسماع مدحه لخصوصيته بالحجاج ، ومدح بعده الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشاما . وزحم الفرزدق على أبواب الملوك وعلى التكسب بالشعر بقية حياته .

وبقى جرير يهاجى الفرزدق والأخطل حتى مات الأخطل ، وكان أكبرهم سنا . وطال عمر الفرزدق وجرير فعبرا طول عمرهما يتهاجيان حتى مات الفرزدق سنة ١١٠ هـ ومات جرير بعده بستة أشهر باليمامة .

أخلاقه — نشأ جرير بالبادية ، وشب متخلقا بأخلاق أهلها من الانتصاف لأنفسهم بأيديهم ؛ فان لم يستطيعوا فبألسنتهم ، فخرج مفطورا على المغالبة بالسباب والمهاجاة والمشارة والمهاترة ، فلا يكاد انسان يعرض به أو بقومه فى حديث أو شعر حتى يصب عليه سوط هجائه ؛ فكان مسرفا فى العداوة والانتقام والحقد إلى أمد بعيـــد .

وكان مع ميله إلى الشر شديد الفرق من أعوان السلطان . وكان بخيلا شحيحا على غير أهله وولده ؛ وربما جر عليه بخله مهاجاة بعض الشعراء له .

وكان موجع الهجاء كثير الافتراء على الأبرياء لا يبالى أن يقـذف المحصنات العفيفات ، بل لا يبالى أن يكذب على نفسه ، وينسب إليها بعض المخازى اذا كان فى ذلك نيل من عرض خصمه وغيظ له .

وكان على تلك الهنات دينا كثير الصلاة والدعاء والتسبيح عفيفا لم يستطع خصومه على كثرتهم أن يصيبوا منه معرة ، وكثيرا ما يستغفر الله من قذف المحصنات ويقر أمام الناس ببراءتهن ويعتـذر من قذفهن بأن أولياءهن ظلموه فجازاهم بما ظلموا .

شعره :

كان جرير يقول الشعر عن سليقـة فياضة وطبع دُفاق ، يواتيه متى شـاء ويصرفه كيف شاء ، فلا تكلف ولا حشو ولا تعقيد ولا اضطراب ولا قلق فى قافية ، فكأنه باتساق قوافيه ، وائتلاف ألفاظه ومعانيـه ، واقف على ساحل بحر يغترف من نميره ، ويصبه فى قوالب أرجازه وقصيده ؛ فيخرجه متشكلا بما تغتبط به نفسه ويعجب به غيره ، وأرقه وأطبعه ما كان فى تشبيب أو عتاب . وما كذلك كان الفرزدق ، فقد كان كزا فى لفظه ، متعمقا فى معانيه ، يتعمد الفخامة ومداخلة بعض ألفاظه ببعض فأعجب شعر جرير عامة الناس ، فسار على ألسنتهم

و بقى شعر الفرزدق لايدور إلا على ألسنة العلماء والخاصة وهم قليل عديدهم فى كل عصر وأمة .

وقد قال جرير الشعر فى كثير من أغراضه وفنونه غير أن أغلب ماتناول شعره النسيب والهجاء والفخر والمدح و يتخلل الجميع الوصف بأشكال مختلفة .

نسيبه وغزله :

امتـاز نسيب جرير برقته ، وخفـة وقعه فى السمع ، وقوة حوكه فى النفس بالاضافة إلى نسيب شعراء الجاهليـة والمخضرمين ، بلا خروج على مذهبهم ، ولا تحرف عن جادة طريقهم فى التصون والتجمل بما لم يخرج به عن وصف شـعراء البادية أزواجهم بقسامة الوجه وملاحة القد . وطيب الحديث والرائحة ، وأثر فراق الأحبـة فى أنفسهم ، كل أولئك فى لفظ جزل، ومعنى شريف ، وفحولة فى العبارة ، فلم يكن يتأنث فى غزله فيحاكى النساء فى حديثهن وحوارهن وتدللهن ودعابتهن ، وقص القصص عنهن ، على نحو ما كان يفعل الأحوص وعمر بن أبى ربيعة وأشباههما من شعراء المترفين ، أو يتهافت فيه تهافت قيان الحجاز وخلعاء الموالى والمغنين . مع أن نسيب جرير لم يصدر منه عن عشق وهيام كما صدر عن الشعراء العشاق ، ولو عشق مثلهم لكان إمام مذهبهم ، و فى ذلك يقول عن نفسه " ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكى على شبابها "

ومن رقيق نسيبه قوله :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زيارته لمـام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ويطرقنى اذا هجع النيـام

وقوله :

ان العيون التى فى طرفها حور قتلننـا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله انسانا

وقوله :

ودع أمامة حان منك رحيل إن الوداع لِمن تحب قليل
مثل الكثيب تهيلت أعطافه فالريح تجبر متنه وتهيل
تلك القلوب صواديا تيمتِها وأرى الشفاء وما إليه سبيل

وقوله :

إن الذين غدوا بِلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى : ما ذا لقيت من الهوى ولقينا

هجاؤه :

قال جرير الشعر فى الهجاء انتقاما مِمن ظلمه أو هجاه لم يبدأ به أحدا ، ولكنه كان اذا اشتبك مع أحدٍ فيه لا يتركه إلا مغلبا ساقطا إلا الفرزدق فان الهجاء استمر بينهما أكثر من نصف قرن ولم يكفهما عنه إلا الموت .

وكان أكثر هجائهِ تهكما واستهزاء وتعجبا من مكابرة خصمِهِ له ومن تبذلهِ بين الناس ، ورميه بما يضحك السامع بألفاظ يفهمها الخاصة والعامة .

كقوله للراعى :

فغض الطرف إنك من نميرٍ فلا كعبا بلغت ولا كِلابا

وقوله يتهكم بالفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربعا أبشر بطول سلامةٍ يامِربع

وكثيرا ما يفترى الكذب على الرجال والنساء ويرميهم بكل آبدة لشبهة أو لغير شبهة .

وأغرى جريرا بالفرزدق والأخطل فسق الفرزدقِ ونصرانية الأخطلِ وشربه الخمر مع عِفتِه هو وتدينِه .

وكان كلما هجا أحدهما بقصيدة ردّ عليه بِمثلِها ينقضها به ، فأصبح لجرير والفرزدق نقائض مشهورة يرويها الرواة ، فدونوها دواوين واستخرجوا منها تاريخا جما وتفصيلا لأيام العرب فى الجاهلية .

ومن مناقضته للفرزدق نقضه قوله من قصيدة يفتخر فيها :

إن الذى رفع السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

بيتا زرارة محتبٍ بِفِنائهِ ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

بقوله :

أخزى الذى رفع السماء مجاشعا وبنى بناء بالحضيض الأسفلِ

بيتا يحمم قينكم بِفنائهِ دنِسا مقاعده خبيث المدخل

فخره :

لم يستطع جرير أن يفخر بعشيرته من كليب ، لأنهم كانوا خاملى الشأن فى الجاهلية والاسلام ، فقراء سيِّء الحال ، بخلاء وبخاصة أبوه عطيه ؛ فاضطر جرير أن يعدل عن مفاخرة الفرزدق (وآباؤه من سادات تميم) بكليب الى مفاخرته بنى يربوع وهم قبيلته العليا ، وفيهم شرف ونباهة شأنٍ ، وشدة بأس فى الجاهلية والاسلام ، وكثيرا ما عيره الشعراء بمفاخرته بغير أهل بيته الأدنين فكان ذلك من أشد هجائهم عليه ، غير أن براعته فى صناعته غطت على ضعةِ أبيه وهوانه وبخله .

وإذا هاجى الأخطل سامى قومه تغلب النصارى بمضر ، وفيهم النبوة والخلافة ومما هجا به جرير الأخطل وافتخر عليه به ولم يستطع الأخطل أن ينقضه عليه .

قوله :

إن الذى حرم المكارم تغلبا   جعل الخلافة والنبوة فينا

مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم   يا خزر تغلب من أبٍ كأبينا ؟

هذا ابن عمى فى دِمشق خليفة   لو شئت ساقكم إلى قطينا

فلما بلغ الخليفة هذا الشعر قال : مازاد ابن المراغة أن جعلنى شرطيا أما لوأنه قال : لوشاء ساقكم إلى قطينا لسقتهم اليه كما قال :

مدحه :

كان الأخطل والفرزدق وجرير أسبق تجار المدح والكلام فى الإسلام وأكيسهم وأحذقهم فى استخراج أموال الخلفاء والأمراء والولاة وامتاز جرير فى مدحه باستجلاب رضا الناس ، فلم يأنف من مدح غير بنى أمية كما أنف الأخطل فانه لم يمدح الحجاج إلا مرة واحدة أمره بذلك عبد الملك ، وقلما مدح غيرهم الا لضرورة أو لشكر صنيعة أسداها إليه متفضلا بلا طلب منه فمدح جرير بنى أمية وولاتهم وعلى رأسهم الحجاج ومدح القيسية أعداء تميم فى الجاهلية والأسلام ومدح الموالى من العجم وسوّاهم بالعرب فى الشرف فكانت منحهم وعطاياهم لاتنقطع عنه ، وكلهم كان يحفظ شعره ويرويه ، ويباهى به ، وكان إذا مدح استقصى صفات الممدوح وأطال ، ولا يخالطه بفخر ولا هجو خصوم كما كان يفعل الفرزدق ، فهو فى باب المدح أعرق من الفرزدق ويفضله فيه الأخطل .

شعره السياسى :

ولجرير نصيب فى الإشادة بذكر بنى أمية والدعاية لهم ، وإن لم يتعرض لسب غيرهم من المطالبين من قريش بالخلافة كبنى هاشم وآل الزبير لأن ذلك خلاف مذهبه فى مراضاة الناس ، غير أنه زل زلة كادت تذهب فيها نفسه ، فإن الحجاج

حبب إلى الوليد بن عبد الملك أن ينقض عهد ولاية العهد لسليمان أخيه و يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد العزيز ، وخاض معه جرير غمار هذه السياسة وهتف بذلك فى عدة قصائد من شعره، وأعجلت الحجاج منيته عن اتمام سياسته ، ولم يلبث بعده الوليـد أن مات ، ولحسن حظه ثار أحد رؤساء بنى يربوع قوم جرير فى خراسان بمسلم بن قتيبة فقتله ، وكان ممالئا للحجاج فى هذه السياسة ، فكان ذلك مما أرضى سليمان عن يربوع عامة .

معانيه وألفاظه :

نشأ جرير بالبادية وقضى فيها أكثر حياته فكانت مادة معانيه مستمدة من بيئة البدو مضافا إليها ماجاء به الإسلام من الشعائر والاداب والعبادة والموعظة والحكمة فكان شعره وشعر الفرزدق يمثل الحياة البدوية الإسـلامية كل التمثيل ، و بذلك سمواهم ونظراؤهم من أهل عصرهم بالاسلاميين ؛ لأنهم أول نابتة من أهل الأدب نبتت فى الإسـلام . ولم يكن دخل على الشعر بعد شىء من علوم الأمم العريقة فى الحضارة كالفرس واليونان والهنود التى امتزجت بأفكار الشعراء المحدثين من أمثال أبى تمام وابن الرومى والمتنبى والمعرى :

فكانت معانى جرير فطرية قريبة من الخطور بالبال غير بعيدة الغور كطبع جرير نفسه فى السجاحة واللين ، على غير ما كان عليه الفرزدق من التعمق فى المعانى .

والذى جعل معانى جرير الفطرية تذبل وتكبر فى صدور الرواة وتوجع وتنكى فى أفئدة المهجوين انما هو قوالب الألفاظ الجزلة التى صبت فيها ، وفخولة الأساليب التى ترملت بها ، وتهويل عبارتها وانسجامها وحسن جرسها وخفة وقعها على سمع الخاصة والسوقة معا ، وتأثيرها فى نفوس الجميع على السواء .

وبذلك نفهم سر إعجاب المتقدمين بأبيات لم تكن بعجيبة المعنى فقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول جرير فى عبد الملك :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راحِ

وأهجى بيت قوله للراعى النميرى :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأغزل بيت قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وأفخر بيت قوله :

اذا غضِبت عليك بنو تميم   وجدت الناس كلهمو غِضابا

وأصدق بيت قوله :

إنى لأرجو منك خيرا عاجلا   والنفس مولعة بحب العاجلِ

وأشد بيت تهكما قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامةٍ يا مربع

وأحسن بيت تشبيها قوله :

سرى نحوهم ليل كأن نجومه   قناديل فيهن الذبال المفتل

أو قوله فى وصف خيل مضمرة :

وطوى الطراد بطونهن كأنها   طى التجار بحضر موت برودا

فإذا تأملنا هـذه الأبيات وجدنا أن معانيها ممكنة عادية ؛ ففى البيت الأول ترى أن فى استطاعة كل شاعر أن يبالغ فيقول لمدوحيه : أنتم خير الناس وأكرم الناس ، ولكن لمـا أخرجه مخرج الأمر المقرر المسلم به ، والذى لا سبيل إلى

إنكاره ، فى هذا اللفظ المنسجم ، والنغم المطرب ، نقله من حضيض المعانى المبتذلة الى هـــذا الأفق الأعلى ، فأمال به عطف ذلك الخليفة الغاضب عليه واستفزه من موطن حلمه .

وكذلك الشأن فى بيت الهجاء ؛ فكل مافيه مقايسة قبيلة المهجو بقرينتها فى النسب والحسب ، ولكن قوله : إنك من نمير ، أنزلها بعد منزلة هوان عرفت به عند جميع الناس حتى لايستطيع أحد منها أن يرفع عينه فى وجه مناظره مع أن كل من أعجب بهذا البيت من قدماء الأدباء والرواة يعرفون أن نميرا كانت أنبل وأشرف من كعب وكلاب ، فجاءت المعزة فى البيت من جانب اللفظ لامن جانب المعنى .

وكذلك بيت الغزل ؛ معناه قديم مبتذل ، ولـكن هذا التأنث والتهالك الذى فى لفظه جعله أليق بالغزل . وكذلك الشأن فى بقية الأبيات .

قيل : اجتمع الفرزدق والأخطل فتذاكرا شعر جرير فأقرا أنه أسير منهما شعرا ؛ لأن شعره يرويه الخواص والسوقة وشعرهما لايرويه الاحكماء الرواة وعلماء الأدب (راجع المنتخب) .

الأخطــل

هو أبو مالك غياث الأخطل بن غوث التغلبى النصرانى ، من عرب الجزيرة الفراتية .

ولد فى أوائل خلافة عمر ونشأ شاعرا هجاء .

كان أكثر الأنصار لايرون رأى معاوية فى الخلافة ، فأغرى يزيد بن معاوية الأخطل بهجائهم فهجاهم ، فشكوه إلى معاوية فطالبهم بالبينة ، فلم تمكنهم . ولذلك احتمى الأخطل بيزيد وبنى أمية وصار شاعر دولتهم بقية حياته . واوقعه

شؤمه فى مناصرة الفرزدق على جرير ، فنصب له جرير ، وما زال يهجوه حتى مات على نصرانيته سنة ٩٥ هـ

وكان يجوّد شعره ويعرضه على النقاد . فيسقط منه الردىء . ولذلك كان شعره خاليا من الحشو والعيب ، الا أنه لم يبلغ فيه مبلغ جرير والفرزدق

وهو ممن يحسن المدح و وصف الصيد ووصف الخمر مع إحجام المسلمين عن وصفها فى الجملة .

ومن أجود مدحه فى بنى أمية :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... اذا ألمت بهم مكروهة صبروا [١]

وان تدجت على الآفاق مظلمة ... يكن لهم مخرج منها ومعتصر [٢]

أعطاهم الله جدا ينصرون به ... لاجد إلا صغير بعد محتقر [٣]

لم يأشروا فيه اذ كانوا مواليه ... ولو يكون لقوم غيرهم أشروا [٤]

شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا [٥]

---

(١) حشد جمع حاشد ، كما فى اللسان ، وسكنت شينه للضرورة — أى هم حاشدون مجتمعون على تأييد الحق — وعيافو الخنا ، كارهون لقول الفحش — وأنف جمع أنوف وهو الشديد الأنفة أى يأنفون من قول الخنا .

(٢) تدجت : أظلمت ، أى اذا نزلت حادثة من المكروه مظلمة الخ : والمعتصر : الملجأ والمعقل أى اذا نزلت بهم نازلة كان لهم مخرج منها أو ملجأ عنها

(٣) الجد : الحظ أى أعطاهم الله حظا عظيما ليس بعد حظ الا أن يكون حظا صغيرا محتقرا

(٤) لم يأشروا الخ أى لم يبطروا هذا الحظ عندما ينالونه ولو ناله غيرهم لبطروه

(٥) شمس : جمع شموس وهو الصعب العداوة — يستقاد لهم ، أى حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم من قولهم استقدت الامير من القاتل فأقاد لى منه أى قتله .

ومن أوجع هجائه ماهجا به كليبا قوم جرير فى قوله من قصيدة :

مازال فينا رباط الخيل معلمة وفى كليب رباط الذل والعار
النازلين بدار الذل ان نزلوا وتستبيح كليب حرمة الجار
والظاعنين على أهواء نسوتهم ومالهم من قديم غير أعيار
بمعرِض أومعيدٍ من بنى الخطفى ترجو جرير مساماتى وأخطارى
قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

الفرزدق

هو أبو فِراس همام الفرزدق بن غالب بن صعصعة التيمى الدارمى .

وِلد الفرزدق سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر ، وكانت عشيرته بنو مجاشع بن دارم ممن نزل البصرة من بطون تميم أول اختطاطها عند فتح العراق .

وكان غالب أبوالفرزدق كريما شجاعا سيدا .

وفطر الفرزدق على الهجاء من صِغره .

ولما تدخل البعيث المجاشعى بين جريروغسان فى تهاجيهما ، وظاهر غسان على جرير ، هجا جرير البعيث ، وتعرض لقذف نساءِ مجاشع ، (ومجاشع رهط الفرزدق) فأتته نساء مجاشع وحرضنه على هجاء جرير فهجاه ولج بينهما التهاجى ، فبقيا يتهاجيان سائر حياتهما ، أى أكثر من نصف قرن .

ومدح الفرزدق الحجاج وعبد الملك وبنيه الوليد وسليمان وهشاما وبقية آل مروان وولاتهم .

ولما كبرت سنه خمدت فيه سورة الشر ، وتاب قبيل موته ، وتنسك وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ بعد أن عمر نحو مائة سنة .

وكان كثير الزهو بنفسه والفخر بآبائه فى شعره . وكان قوى الذاكرة يحفظ من شعر العرب وأخبارها وأيامها الشئ الكثير ؛ ضمن كل ذلك شعره مع ميل فيه إلى الغرابة ومداخلة بعض الكلام فى بعض ، لأن ذلك كان يعجب اللغويين والنحاة .

ومن فخره قوله :

لنا العزة الغلباء والعدد الذى ... عليه اذا عد الحصى يتخلف [١]

ولا عز الا عزنا قاهر له ... ويسألنا النصف الذليل فينصف [٢]

ومنا الذى لا ينطق الناس عنده ... ولكن هو المستأذن المتنصف [٣]

تراهم قعودا حوله وعيونهم ... مكسرة أطرافها ما تصرف

إذا هبط الناس المحصب من منى ... عشية يوم النحر من حيث عرفوا [٤]

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا ... وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا [٥]

والهجاء والمدح والفخر هى الفنون التى غلبت على شعره ، وقد تناول شعره غيرها من التشبيب والوصف والسياسة .

ومن أبياته المتداخلة الأجزاء قوله يمدح هشام بن اسماعيل المخزومى خال هشام ابن عبد الملك .

وأصبح ما فى الناس إلا مملكا ... أبو أمه حى أبوه يقاربه [٦]

---

(١) أى يخلف الناس أنه عدد الحصى .

(٢) النصف بكسر النون وسكون الصاد : الانصاف .

(٣) المتنصف : المطلوب منه الانصاف .

(٤) المحصب موضع رمى الجمار بمنى . وعرفوا أى من حيث هبطوا من جبل عرفات .

(٥) كان الذى يؤم الناس ويدفع بهم من عرفات فى الجاهلية من تميم فيسيرون بسيره ويقفون بوقوفه .

(٦) أى وأصبح هذا الممدوح ما فى الناس من يقاربه فى الشرف الا رجل أوتى الملك أبو أم ذلك الملك أبوه . وذلك أنه كان يمدح خالا للخليفة .

وقوله :

وكل رفيق كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوما هما — أخوان[1]

ويقل فى شعره الحشو وقلق القوافى وعيوبها وعلى الجملة كان شعره فى لفظه وأسلوبه رصيفا حصيفا ، قوى الأسر شديد الروعة ، عميق الأثر .

وكانت أبياته التى يتمثل بها منه أكثر مما كان يتمثل به من شعر الأخطل وجرير .

وذلك من قوله :

وكنا إذا الجبار صعّر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع[2]

وقوله :

وكنت كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما أحال على الدم[3]

وقوله :

ترى كل مظلوم إلينا فراره ويهرب منا جهده كل ظالم

وقوله :

ترجى ربيع أن تجىء صغارها بخير ، وقد أعيا ربيعا كبارها

---

(١) أى وكل رفيقين فى سفر اخوان وصديقان وأن تعادى قوماهما من قبل .

(٢) صعرخده : أماله عن الناس والأخادع : جمع أخدع وهو عرق فى الرقبة أى ضربنا عنقه حتى يعتدل — أى انما نعدل تصعير الجبارين خدودهم بضرب رقابهم .

(٣) أحال على الدم : أقبل عليه يلغ فيه — يرميه بعدم الوفاء كالذئب الذى يربيه رجل فاذا رأى فى الرجل دما نسى اكرامه له وتربيته وأقبل على دمه .

عمر بن أبي ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي . وكانت أسرة ابن أبي ربيعة من أغنى أسر قريش وأوسعها تجارة وأعزها جانبا وشرفا ، وولد عمر بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب ، فنشأ بالمدينة مترفا مترفها يؤثر رغد العيش والدعابة والهزالة والصبوة على الجد والتوفر والعمل للسلطان .

وقال الشعر من صغره على سبيل التطرب والغزل ، اذ كان فى غنى عن التكسب وأعجب به الشبان والقيان ، وأغراه ذلك على الاسترسال فى نظمه . واختط له فى شعره طريقة ابتكرها ، فوصف بها النساء المعروفات من نساء قومه المحصنات ومن نساء الأشراف ، وتحدث عنهن كاذبا أو صادقا ينعتهن فى لبسهن ومداعبتهن وتلاومهن وملاقاته لهن عند قدومهن الى مكة محرمات وعند طوافهن بالبيت الحرام ، ويصف زيارته لهن فى منازلهن أو دعوته إليهن ليسمعن شعره . نظم ذلك فى أكثر قصائده المطولة وفى مقطعاته على أسلوب قصصى غالبا رقيق اللفظ دمث المعانى له موقع فى القلب ومخالطة للنفس ، فاستهوى بشعره أهل الصبوة من الفتيان والفتيات ، واستطار شره حتى شبب بنساء الأشراف والخلفاء .

وتحدث عنه الثقات أنه حلف بأغلظ الأيمان لم يأت منكرا فى حياته . وكان يقيم بالمدينة أحيانا ، وأكثر ما كانت اقامته فى كبره بمكة . ولما تقدمت به السن أقلع عن صبوته وتاب عن تشبيبه ومات سنة ٩٣ هـ .

الكميت

هو المستهل الكميت بن زيد الأسدى المضرى الكوفى . كان من أعلم أهل زمانه باللغة وغريبها وأخبار العرب وايامها وأنسابها ومناقبها ومثالبها ، ومن أروى الناس لشعرها . وأقر له حماد الراوية بالتسبق عليه .

وقال الشعر الجيد وهو صغير ، واحترف بتعليم الصبيان بالمسجد . وتشيع لبنى هاشم ، ونظم فى تشيعه القصائد الطنانة التى بهرت الناس ، فتكسب بالشعر ، ومدح كبار بنى هاشم والسادات من العلويين واحتج لهم ودافع عنهم .

وكانت العصبية بين اليمانية والمضرية قد استغلها بنو أمية فى ترويج سياستهم ، فهجا شاعر من اليمانية يسمى حكيما الكلبى آل على وشيعته ومضر جمعاء ، فأغرت مضر الكميت به ، فحمى وهجاه وهجا اليمانية معه ؛ فأيقظ شعره ما كان نائما من العصبية فى الجاهلية .

واضطهده بنو أمية وولاتهم بالعراق وسجنوه ففر من السجن وذهب الى هشام الخليفة ومدحه وأظهر رجوعه عن التشيع مع تعصبه على اليمانية حتى مات سنة ١٢٦ هـ .

ويقول الجاحظ ما فتح للشيعة الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم ... فان ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون : لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب[1]

وهى من هاشميته المطولة التى أولها :

طربت ، وما شوقا إلى البيض أطرب ... ولا لعبا منى ، وذو الشوق يلعب
ولم تلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطو بنى بنان مخضب
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب[2]

(١) بكيل وأرحب حيان من همدان .

(٢) أى لا أعبأ بزجر الطير أن كانت سانحة أو بارحة أى تأتى من اليمين أم من اليسار ولا أن مر بى وحش سليم القرن أم مكسوره

ولكن إلى أهلِ الفضائلِ والنهى   وخير بنى حواء ، والخير يطلب

بنى هاشم رهط النبي فإننى   بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

خفضت لهم منى الجناح مودة   إلى كنفٍ عِطفاه أهل ومرحب

ومالى إلا آل أحمد شِيعة   ومالِى إلا مذهب الحق مذهب

بأى كتابٍ أم بأية سنةٍ   يرى حبهم عارا على ويكتب

تم طبع هـذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٨ من جمادى الثانية سنة ١٣٥٧
(١٤ من أغسطس سنة ١٩٣٨) م ٤

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ١٤٨٨-١٩٣٨-٦٠٠٠

